



المكتبة الثقافية
٣٣

أعلام الصحابة
المجاهدون

محمد خالد

وزارة
الثقافة والإرشاد القومى
الإدارة العامة للثقافة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آل بيته الكرام وصحابته العظام . أما بعد : فقد أوردت في هذه الرسالة سيرة طائفة من صحابة رسول الله ﷺ ، الذين حملوا ألوية الجهاد على عهده وعهد خلفائه الراشدين ، وبعض هؤلاء المترجم لهم معروف مشهور ، وسائرهم لا يعرفه إلا أهل الذكر فقط وإن كان أثره في الجهاد مجيدا ، وبلاؤه في نشر الدعوة الإسلامية حميدا !

وقد آثرت بالتنويه هذا الطراز من الصحابة ـ بعد أن قدمت التعريف بأولي الرأي منهم ـ لكي يتم العلم بتاريخ هذه الصفوة المختارة من الرجال ، ويقف القراء أثناء ذلك ـ من طريق محبب ـ على أهم أحداث الصدر الأول من تاريخ الدعوة الإسلامية ، وما انتظمه من مكارم جلت عن الوصف ، ومعالي حلقت في سماء المجد ، ومحامد أخلاقية لا تزال تتراءى حتى اليوم ، وكأنها المثل العليا لأسمى الصور الإنسانية في البطولية والفدائية والإيثار !

وأحب أن أنبه إلى أمر مهم في هذا المقام ، ذلك هو أننا لم نعمد إلى الحصر لضيق المجال ، وعلى ذلك هناك شخصيات

كثيرة لم نسعد بإضافتها إلى هذه القائمة ، بينما سعدت بتأريخها الموسوعات ، وحفلت بها المطولات . وجملة مايسعنا من الاعتذار عن ذلك - فوق ما أسلفناه بشأن ضيق المجال - هو أننا عمدنا إلى اختيار ذوى الشأن الأكبر فى تاريخ الجهاد الإسلامى ، وأرجأنا من يليهم إلى مقام آخر نرجو أن نعان عليه قريبا إن شاء الله !

كذلك أرجو أن يكون مفهوما أن طبيعة المجال قد تحكمت فأملت علينا طابع الإيجاز فى إيراد هذه التراجم . ولولا ذلك لما كفت هذه الرسالة برمتها فى التعريف بواحد ممن شرفت بانتظامهم فيها ، وإن كان قارئها سيحس - بعون الله - أنه لم يفته شيء كثير ، إذ كنا قد أحطنا بأصول المسائل ، وحرصنا على تسجيل أهم الوقائع فى تاريخ كل واحد منهم !

ويهمنا لهذه المناسبة أن نشير إلى أن وقائع هذه السّير مستمدّة من كتب التاريخ المعوّل عليها. ومن أصح روايات هذه الكتب ، وأكثرها ملاءمة للعقل ومسايرة لصفات ذلك العهد الإسلامى الرائع من كل نواحيه ، المشرق من كل جوانبه . أما ما عدا ذلك من التعليقات والتعقيبات فهو من عندنا . وقد آثرنا فيه القصد ، وأردنا منه توضيح بعض المسائل ، وتعليل

غيرها مما يدعو إليه الحال ويقتضيه المقام !

وقد راعينا فى ترتيب التراجم عنصر الزمان ، فبدانا بأول مترجم عقد له النبي ﷺ لواء ، وثنينا بمن يليه وهكذا ، وذلك خير - فى رأينا - من الترتيب بحسب السن أو النسق الأبجدى أو مكانة الأشخاص أنفسهم ، لما يمتاز به الترتيب الذى اخترناه من مطابقة التاريخ العام ، ومن الاحتفاظ بنسق الحوادث وتسلسلها .

وأرجو ان اكون قد وفقت لخدمة القراء ورضاهم .

محمد خالد

سعد بن أبى وقّاص
فاتح العراق

سعد بن أبى وقاص الزهرى المسلم السابع وفاتح العراق ، وأحد العشرة الذين قُبض رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وأحد الستة الذين اختارهم عمر لمّا طُعن وأيقن بالموت ليُنتَخب الخليفة من بينهم ، وعلم من أعلام الصحابة، وفارس مبرِّز من فرسانهم ، ووجيه عظيم من وجهائهم .

أسلم سعد وهو ابن سبع عشرة سنة . وكان ممن هداهم الله على يد أبى بكر الصديق . ولما أعلنَ إسلامه غضبت أمه — وكان باراً بها — وقالت : يا سعد، ما هذا الدين الذى قد أحدثت ؟! لتدعنَّ دينك هذا أولا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعيرَ بى فيقال : يا قاتل أمه !

فقال : لا تفعلى يا أمّهْ ، إنى لا أدع دينى هذا لشىء ! ، فكثت يوما وليلة لاتأكل ولاتشرب، وأصبحت وقد جُهِدَت، فلما رآها قال : يا أمّه ، تعلمين والله لو كان لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى ، إن شئت فكلى أولا تأكلى، فلما رأت منه الجِدَّ أكلت !. وفى هذه الواقعة نزلت الآية

الكريمة : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُما »[1] الآية .

بعث النبي ﷺ سريّة في السنة الأولى للهجرة برياسة عُبيدة ابن الحارث ، وفيها سعد بن أبي وقاص إلى مكان بالحجاز يدعى رابغ لمعارضة تجارة لقريش ، فلما تراءى الفريقان تقدم سعد صفوفَ المسلمين ، ونثر كنانته[2] وفيها عشرون سهما ، ورمى واحدا منها ، وكان من العلم اليقيني عند كل قريش مسلمِها وكافرِها أن سعداً لا يخطىء إذا رمى ، وكان معنى ذلك أنه سيقتل من المشركين عدد ما بقى من سهامه فلم يسعهم إلا أن ينصرفوا ، وكان عددهم أضعاف عدد المسلمين ، وفى هذه الواقعة يقول سعد بن أبي وقاص :

ألا هل جا رسولَ الله أنى حميت صحابتى بصدور نَبْلى
فما يعتدُّ رامٍ من معدٍّ بسهمٍ معْ رسول الله قبلى

أول لواء يعقد لسعد

وعلى رأس تسعة أشهر من هجرة النبي ﷺ علم أن تجارة لقريش ستمر فى هذه الآونة ، فعقد لواء أبيض لسعد بن أبي وقّاص ، وأمره بمعارضتها وسيّر معه عشرين من المهاجرين ،

(١) سورة لقمان ، الآية : ١ . (٢) الكنانة : جعبة السهام .

وسار القوم يكمنون بالنهار ويسيرون بالليل حتى بلغوا المكان الذى أمِروا أن لا يتجاوزوه واسمه الخرار[1] ، فوجدوا العير[2] قد فاتتهم فرجعوا إلى المدينة !

موقف فى أحد :

وليس لكثيرٍ من الناس مثل موقف سعد بن أبى وقّاص مع الرسول الكريم يوم أحد بعد أن انفض* نظام الجيش الإسلامى إثر ما أرجف به المشركون من أن محمداً قتل، فقد ثبت سعد مع الفئة القليلة التى التفّت حولَ الرسول العظيم وَوَقَتْه بأجسامها ، وفدته بنفوسها ، وكان سعدٌ يرمى بسهامه كل من يحاول الاقتراب من مُقام الرسول. وكان الرسول يناوله السّهام، ويقول له : « ارم فداك أبى وأمى » .

قال على بن أبى طالب : ماسمعتُ النبى ﷺ يجمع أبويه[3] لأحد غير سعد .

ضحك النبي !

وكان رجل من مشركى قريش فى غزوة الخندق قد أثقل

(١) الخرار : واد يتوصل منه الى الجحفة .

(٢) العير : قافلة التجارة .

(٣) يجمع أبويه : أى يقول له : فداك أبى وأمى !

على المسلمين بسهامه ، فرماه سعد بسهم أصاب جبهته فخرّ صريعا ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجزه !

يحرس الرسول :

وسهر النبي ﷺ ذات ليلة بالمدينة ، وكان وقت فزع ، فقال : « ليتَ رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة » فما كاد يتم جملته حتى سمع صوتَ السلاح . فقال : « من هـذا ؟ » قال سعد بن أبي وقاص : أنا يا رسولَ الله جئت أحرسك . فدعا له الرسول العظيم ونام !

هذا خالي :

وكان النبي ﷺ يحبّ سعداً ويكرمه ويقدمه، وقال يوما لأصحابه ، وقد رآه سعدا مقبلا :

« هذا خالي فليُرِني امرؤٌ خاله » !

ومن المعروف أن أم النبي ﷺ من بني زُهرة وهي ابنة عم أبي وقّاص والد سعد .

فاتح العراق ومبيد دولة الأكاسرة :

لما فرغ أبو بكر من حروب أهل الرّدّة وصارت الجزيرة

العربية مؤمنة مرة اخرى وإلى يوم الدين إن شاء الله ، سيّر جيوشه إلى الشام وإلى فارس، وقد كان من أبرز الرجال الذين اقتحموا حدود فارس واستولوا على كثير من أطرافها المُثَنّى ابن حارثة الشيباني ، فقد كان خبيرا بهذه المناطق ، جريئا على المجوس سريع الحركة واسع الحيلة ، وكان إلى ذلك أول من اجترأ على الفرس وجرّأ الناس عليهم ، فقد كان سواد القوم ما يزال مأخوذاً بعظمة الدولة الكسروية ، وكثرة جيوشها ، وعظم استعدادها ، وضخامة عددها ومواردها ، فلما ضرب المثنّى بن حارثة المثل على أن القوم يُهزمونَ ويُغلبون ولو كان عددهم أضعاف عدد جيشه ، ومهما بلغت عدتهم الحربية من الضخامة والقوة بالنسبة لعدته البسيطة ، فتح الباب لغيره من الناس ، وأزال ما كان لهذه الدولة فى نفوس بعضهم من جلالة ومهابة !

ثم جاء من بعده خالد بن الوليد مبعوثاً من قبل أبى بكر بعد أن انتهى من حروب الردة فضمّ المثنى بن حارثة إليه وأحسن إمداده وتوجيهه ، وكان لهما من الأثر فى تدويخ الفرس ما يعرفه الواقفون على تاريخ فتح العراق . ولكن أبا بكر أمر خالدا أن يرحل بنصف جيشه ليمد إخوانه بالشام فى واقعة اليرموك ، حيث أن الروم قد جمعوا لهم وأرادوا الدخول معهم فى معركة

فاصلة . فرحل خالد إلى الشام ولم يعد إلى العراق ، ثم توفى أبو بكر وجاء عمر . فكان أول ما فعله أن ندب الناس لجهاد الفرس . فانتدبوا فجعل أبا عبيدة بن مسعود الثقفى أميرا عليهم ، وضم إليه المثنى بن حارثة فاستشهد أبو عبيدة فى واقعة الجسر[1] واستشهد معه بضعة ألوف من المسلمين .

ثم كان من أمر الفرس أنهم أجمعوا على تمليك أحد أبناء كسرى عليهم واسمه « يزدجرد » والتفوا حوله لمواجهة العرب فنشط إلى هذه المهمة، وسارع إلى الحشد والتعبئة العامة، وجيّش الجيوش وانتخب قادتها من أعظم رجال الدولة بأسا ، وأشدهم مراسا ، وتهيأ للزحف على المسلمين !

وعلم المثنّى بن حارثة الشيبانى بذلك فكتب به إلى عمر بن الخطاب ، فورد عليه من الأمر ما أهمّه وأقلقه ، ورأى أن لا كفاء للموقف إلا أن ينصب هو له . فكتب إلى الولاة بالجزيرة العربية أن يندبوا الناس للجهاد ، فلما بلغت الحشود مبلغا يرضيه استخلف على المدينة عليا بن أبى طالب ، وخرج بالجيش حتى بلغ منزلا بضاحية المدينة يدعى صرار ، فعسكر به ، ودعا كبار

(١) موقعة الجسر كانت بين جيوش الفرس والعرب ، وسميت بذلك لأنها دارت حول جسر مقام على نهر الفرات .

الصحابة من المهاجرين والأنصار ليستشيرهم فى الأمر ، وأمر باستدعاء على بن أبى طالب ليشترك فى المداولة فحضر ، وبسط عمر خطته فأبان عن مبلغ الخطر الذى يتعرض له المسلمون بفارس ، وكيف أنه لم ير درءاً له إلا أن يخف إلى نجدة العرب بنفسه !

الأسد فى برائنه :

وكان عبد الرحمن بن عوف جريئا على عمر ، فعارض رأيه وبين أن بقاء عمر بالمدينة قوة للمسلمين ، ذلك أنه إذا نهض للأمر بنفسه ولم تكن العاقبة له انهدّ صرح الإسلام ، ولا كذلك إذا كان غيره فى مقامه ، فإنه يُتبعه بآخر من غير حرج أو مشقة !

فسأله عمر : من ترى لهذه المهمة ؟

وبينما راح عبد الرحمن يجيل فكره فيمن يرشحه لهذا الأمر ، ورد البريد يحمل كتابا من سعد بن أبى وقّاص وكان أميرا على هوازن رداً على كتاب عمر بشأن الحشد والإمداد ، وكيف أنه انتخب ألف فارس من ذوى النجدة والبأس وأرسلهم إليه !

وهنا قال عبد الرحمن بن عوف : وجدته يا أمير المؤمنين

إن هو الأسد فى براثنه : سعد بن مالك (هو سعد بن أبى وقاص) فكأنما ذكّر الناس بمن لم يكن ينبغى لهم أن ينسوه ، فهتفوا جميعا : هو لها ! . .

وكتب عمر إلى سعد يستدعيه فحضر فأمّره على حرب الفرس وأوصاه وصية كريمة جاء فيها :

يا سعد : « إنى قد ولّيتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى ، فإنك تُقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق ، فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به ، ولا يغرّنك من الله أن قيل : خال رسول الله ﷺ وصاحبه ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسبٌ إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ماعنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى ﷺ عليه منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه ، هذه عظتى إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين » !

ثم عقد له اللواء وشيّعه ، وكان عدد جيش سعد حين خروجه من المدينة أربعة آلاف مجاهد ، ثم أخذ عمر يرسل وراءه الإمداد حتى بلغ بما كان قبل فى العراق بضعة وثلاثين ألف رجل .

فى القادسية :

وسار سعد حتى بلغ أطراف العراق ، فكتب إليه عمر أن ينزل بجيشه القادسية ، وإنما اختارها لأنها تقع على حافة الصحراء حيث يكون للعرب مجال ولا يؤتون من خلفهم !

وكان عمر قد كتب إلى المثنى بن حارثة بتأمير سعد ابن أبى وقاص ، وتقدم إليه أن ينسحب هو وجميع الجيوش الإسلامية من سواد العراق ، ويرابطوا على حدود الصحراء . فلما بلغ سعد حدود السواد ونزل بالقادسية كتب إلى المثنى وجميع الأمراء أن يفدوا عليه ، فوفد الأمراء ، أما المثنى فقد أقعدته جراحه فى واقعة الجسر عن الرحيل فأرسل أخاه المعنّى وأهله إلى سعد ، وكتب إليه برأيه فى الفرس وحروبهم ، ثم مات إثر ذلك رحمه الله .

رستم يسير إلى سعد :

مكث سعد نحو أربعة أشهر والفرس لا يزعجونه بشىء وكان يرسل السّرايا فتغير على أطراف فارس وتستولى على الأرزاق والأسرى ، ثم سار إليه جيش فارس وعدته حوالى مائتى ألف ، وعلى رأسه رستم أكبر قواد الفرس وأعظمهم شأنا بعد كسرى

وكان مع الجيش ثلاثة وثلاثون فيلا قد درّبوا على الحرب وفوقهم الرجال كأنهم الجبال !

وأرسل رستم إلى سعد : أن ابعثوا إلينا رجلا رشيدا يكلمنا ونكلمه ، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب ، فلما بلغ رستما وهو على سرير من الذهب دلف حتى جلس إلى جانبه ، وأرادت بطانته أن تمنعه فزجرها رستم ثم قال للمغيرة في كلام طويل : نحن نعلم مبلغ ما أنتم فيه من شظف العيش ، ولا يسوءنا أن نُفْضل عليكم بالزاد والكساء حتى تنصرفوا ! فأنا لا أشتهى أن أقتلكم !

فقال المغيرة : لقد جئنا ولن نعود وليس لكم عندنا إلا واحدة من ثلاث : إما الإسلام وإما الجزية وإما الحرب !

فغضب رستم وتوعد المغيرة بالحرب القاصمة :

سعد مريض :

وفى اليوم التالى التقى الجيشان . وكان سعد مريضا لايستطيع ركوب الخيل ولا الجلوس نفسه فلم يشهد الحرب ، إنما وضع له سرير على مرتفع ليشهد القتال ، وجعل على الناس خالد ابن عرفطة ، وأقامه بحيث يستطيع أن يسمع توجيهاته للمعركة ،

ثم أمر قارئ الجيش أن يقرأ سورة الأنفال ، وكبر ثلاثا ، وعند الثالثة برز أهل النجدة من المسلمين فأنشبوا القتال . وحملت الأفيال فتحامتها الخيل لشدة خوفها ، فعمد شجعان المسلمين إلى راكبي الفيلة فرموهم بالنبال فى أعينهم حتى ضعضعوهم وأكثروا فيهم قتلا وجراحا ، وإلى الفيلة فأخذوا بأذنابها ، وقطعوا الحبال التى تمسك رحالها فهوت على الأرض وتحتها راكبوها من الفرس فداستهم الفيلة وولت حائرة طائشة من أثر حراب العرب فى أعجازها ، وهى تعوى من الألم كالكلاب ، وظل القتال دائرا حتى انتهى النهار وجاء الليل فتحاجز الجيشان !

وفى اليوم الثانى جاءت نجدة من الشام إلى المسلمين وعلى مقدمتها القَعْقاع بن عمرو ـ وكان أبو بكر يقول فى وصفه : لا يهزم جيش فيه القعقاع ـ فبارز القائد الثانى للفرس واسمه بهمن جاذويه فقتله ، واستمر يقتل كل من برز إليه من الفرس وانتهى اليوم الثانى ، وقد أثخن المسلمون فى الفرس وجردوهم من الغرور الذى كانوا فيه ، بسبب ما لهم من الكثرة والتفوق فى العدة ، ولاح للمسلمين الظفر !

ولما كان اليوم الثالث أعاد الفرس نظام الفيلة ، وأحاطوها بالرجال ليمنعوا العرب من الوصول إليها ، واشتدت الحرب

وصمد الجيشان بعضهما لبعض ، ونظر سعد ـ وهو على محفته ـ ما يلاقيه جيشه من الفيلة ، فاستدعى إليه جماعة من مسلمي الفرس كانوا يحاربون معه وسألهم : هل للفيلة مقاتل ؟ قالوا : نعم . مشافرها وعيونها . إنها إذا أصيبت فى شيء من ذلك لا ينتفع بها .

فأرسل سعد إلى القعقاع بن عمرو وأخيه عاصم بهذا الرأى ، وطلب إليهما ان يكفياه الفيل الأبيض كبير الفيلة وقائدها ، وإلى آخرين أن ينصبا لفيل آخر يلى الفيل الأبيض فى الخطر ، فعمد القعقاع والآخرون إلى الفيلين ووضعوا رماحهما فى أعينهما فطرحا راكبيهما وبركا على الأرض ، ثم ضربوا مشافرهما ، فولى الفيلان واخترقا صفوف الأعداء وتبعهما سائر الفيلة ركضا وهى تخبط الفرس بأيديها وأرجلها ، وتحدث فيهم من التكاثر والهزيمة ما لم يكونوا يحتسبونه ! .

وحمل المسلمون إثر ذلك على الفرس حملات صادقة حتى جاء المساء فازداد القتال شدة وعنفا ، وظل هكذا حتى الصباح . استمات الفريقان فى مواقفهم ، واستبسل الجيشان فى العراك حتى رأى العرب والعجم أمرا لم يروا مثله قط !

ولما أصبح الناس ، والقتال لا يزال ناشبا ، تنادى رؤساء القبائل وفرسان العرب يهيبون بإخوانهم أن يثبتوا ويقاتلوا

وينصروا دين الله ، وهتف حماة الجيش بزملائهم : إن النصر وليد الصبر وإن ساعة من الثبات والجلاد هي به كفيلة ، وأشعلت هذه الهتافات الحماسة في قلوب الأبطال فهجموا على القلب فأزاحوا من كان فيه من صناديد الفرس ، وهبت ريح شديدة عند الظهيرة ، فقلعت طيارة [1] رستم عن سريره ، فهوت عنه ، وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير فعثروا به وقد قام رستم عنه ، ووقف في ظل بغل من بغال قدمت إليه تحمل مالا ، فضرب هلال بن علّفة حمل البغل - وهو لا يرى رستم إذ كان في الجانب الآخر - فوقع الحمل عليه فصرعه ، ورآه علّفة فضربه بسيفه فجرى نحو النهر وطرح نفسه فيه ، فاقتحم علّفة النهر وأخذ برجله حتى أخرجه من الماء وأجهز عليه ، ثم صعد السرير وصاح : إليّ ! . . إليّ الناس ، فقد قتلت رستم ورب الكعبة !

ولما رأى الفرس مصرع قائدهم الأكبر انخلعت قلوبهم وتخاذلت عزائمهم فركنوا إلى الفرار والمسلمون في إثرهم يمعنون فيهم ضربا وتقتيلا ، وكان بينهم ثلاثون ألف رجل مقرنين في السلاسل لم يستطيعوا الحراك فذبحوا ذبح الخراف ؟

وأصيب من المسلمين في معارك القادسية ثمانية آلاف شهيد .

(١) الطيارة هنا شيء ينصب فوق السرير كالمظلة لاتقاء الشمس .

معركة لم ير العرب مثلها :

وكانت معركة القادسية اشد معركة خاضها المسلمون ، ولم يلقوا مثلها فى الشام أو العراق ، ولا عرف فى تاريخ الفتوحات نظير لها ، لقد ظلت دائرة ثلاثة أيام حتى المساء وفى اليوم الثالث استمر القتال طوال الليل حتى ظهر اليوم الرابع ، لا وقت للراحة ولا شئ هناك من طعام أو شراب !

انتحار جماعى :

لقد خاض الفرس المعركة وهم يمنون أنفسهم بملهاة من ملاهى الحروب ، لا يلبثون أن يشرعوا سيوفهم ويجولوا بوحوشهم من الفيلة حتى يركن العرب إلى الفرار ، ولكنهم رأوا من شجاعة العرب وشدة بأسهم واستهانتهم بالحياة وإقدامهم على الموت ما أذهلهم وأطاش عقولهم حتى أنهم كانوا من شدة الغيظ بل من الحنق على أنفسهم بعد الهزيمة يجلسون جماعات على الأرض ملقين سلاحهم ليقتلهم العرب كيف شاءوا ، وهذا هو الانتحار الجماعى !

أما خطر هذه المعركة فى نظر العرب فقد كان من الهول بحيث أن جميع سكان الجزيرة العربية من حجازيين ويمنيين

وغيرهم علقوا عليها أعظم النتائج : إن خيرا وإن شرا، وقد كانوا جميعا يترقبون أخبارها وينتظرون انباءها ، وهم فى اقصى حالات التلهف والرجاء من الله أن ينصر المجاهدين فى سبيله !

هذا هو عمر:

وكان عمر بن الخطاب يخرج كل يوم إلى ظاهر المدينة مما يلى طريق العراق ، ويمضى فى هذه الوجهة يتنسم الأخبار ويستقبل الوافدين إلى المدينة ويسائلهم عما سمعوه من أنباء القادسية !

وبينما هو فى إحدى غدواته الاستخبارية ، إذا براكب يركض ناقته نحو المدينة ، فأسرع نحوه وقال :

من أين ياعبد الله ؟

فأجابه الراكب ـ وهو لايزال يركض ناقته ـ:من القادسية!

قال عمر : حدثنى !

قال : هزم الله العدو !

قال : زدنى !

فأخذ البشير يحدثه وهو يسرع السير وعمر يخب بإزائه ،

وماز الا هكذا حتى بلغا المدينة ، فرآى الناس يتحازون إلى عمر ويحيونه بتحية الخلافة ، فذهل وقال :

فهلا أخبرتنى !

قال عمر : لا عليك يا أخى !

طرائف المعركة :

وقد حفلت هذه المعارك العنيفة بغرائب الوقائع فى البطولية والحمية العربية والمنافسة بين الفرسان فى الجلاد ، بل بين القبائل فى الشجاعة والثبات . ولو أن لدينا متسعا من المكان لسقنا منها طرائف نادرة وعجائب فريدة تشهد للعرب بباهر الصفات وبارع الشيم والأخلاق . اما والمقام لايتسع لذلك فإنا نكتفى بواحدة من هذه الطرائف على سبيل المثال !

الفارس الحبيس :

كان أبو محجن الثقفى فارسا عظيما وشاعرا مفلقا ، ولكنه كان ممتحنا بالخمر أو الغزل بها ، فكان إذا لم يشربها لايفتأ يتغنى بها ، وحدث أن شربها مساء اليوم الذى كان جيشا العرب والفرس سيلتقيان صبيحته فى القادسية ، فأمر سعد بن أبى وقاص بوضع رجله فى القيد وحبسه.

فلما وقعت الواقعة واشتبك الفريقان ، سمع أبو محجن وهو في محبسه قَعْقَعة السلاح وصياح الحرب ، فبكى وأنشأ يقول :

كفى حَزَنًا أن تردى الخيل بالقَنا
وأُترَكَ مشـــدودًا على وَثَاقِيا
إذا قُمتُ عنَّانى الحديدُ وغُلِّقَتْ
مصاريعُ من دونى تَصُمّ المناديا
وقد شَـــفَّ جِسمى أنّنى كل شارق
أعالجُ كَبْلًا مُصْمتاً قد برانيا
فلِلّه دَرِّى يوم أُتركُ مُوثَقاً
وتُذْهَلُ عنى أُسْرتى ورجاليا
حَبِيساً عن الحرب الْعَوان وقد بدت
وإعمالُ غيرى يوم ذاك العواليا[1]

وسمعت سلمى بنت أبى حفصة زوج سعد بن أبى وقاص بكاء أبى محجن وشعره ، فأطلت عليه وسألته : فيم حبس ؟

---

(١) الحرب العوان : هى التى قوتل فيها مرة بعد أخرى وهى أشد الحروب ، والعواليا : الرماح .

فأخبرها انه رجل شاعر يتحدث كثيرا عن الخمر، ثم سألها أن تحل قيده وتعطيه فرساً وسلاحاً ولها عليه عهد الله وميثاقه إن لم يستشهد أن يرجع إلى مكانه من الحبس لتضع رجله فى القيد ، ـ وكانت قد شاهدت جولته على المسلمين ـ فأعطته ماطلب ، فخرج إلى المعركة حتى إذا كان بإزاء الميمنة كبر وحمل على الفرس فقصفهم قصفا ، ثم برز بين الصفين يلعب برمحه ، وحمل على صفوف الفرس فزحزحها. وهكذا دواليك يكر الكرة ثم يعود إلى الفضاء الواقع بين الصفين ويلعب برمحه ويتحدى أعداءه !

وقال قائل المسلمين : من هذا الفارس العظيم ، لئن كان الخضر يشهد الحروب فهو صاحب البلقاء[1] . وقال آخر لولا أن الملائكة لاتباشر القتال ظاهرا لقلنا هذا ملاك بيننا !

وجعل سعد بن أبي وقاص يتأمل الفارس من مكانه المشرف على المعركة ويقول : الطعن طعن أبي محجن والكر كر البلقاء ، ولولا حبس أبي محجن لقلت : هذا أبو محجن ، وهذه البلقاء !

ولم يزل أبو محجن يقاتل حتى انتصف الليل وتحاجز الفريقان ، فرجع إلى محبسه ووضع القيد فى رجله ، فذهبت سلمى إلى سعد وأخبرته الخبر فدعا بأبى محجن وأطلقه وشكره

---

(١) البلقاء : هى فرس سعد .

على حسن بلائه مع المسلمين فعاهده أبو محجن ان لايشرب الخمر ولايذكرها بخير فى شعره أبدا !

فتح المدائن :

مكث سعد بن أبى وقاص مكانه بالقادسية شهرين ، يعيد تنظيم جيشه ، ويكاتب الخليفة ويتلقى توجيهاته ، ثم سار إلى المدائن وهى مقر الملك وعاصمة كسرى فافتتحها وفر كسرى منها ، واستولى سعد على كنوز كسرى وذخائره وملابسه وجميع نفائس الملك التى ظل الأكاسرة يجمعونها قرونا من سائر أنحاء الدنيا ، وقد بدا لسعد أن يرسل هذه الأشياء كاملة إلى عمر ليرى المسلمين مبلغ ما فتحه الله عليهم،وكيف آلت إليهم هذه الكنوز الفاخرة.
فلما رآها عمر قال : إن قوما أدوا هذا لأمناء !
فقال على بن أبى طالب : عففت فعفت الرعية .

واقعة جلولاء :

وعاد الفرس إلى أنفسهم وقد أكلها الحقد على العرب ، فنظموا صفوفهم وحشدوا خيرة ما لديهم من رجال وعتاد ، والتقوا بسعد مرة أخرى فى واقعة جلولاء ، وحاربوا المسلمين

بشراسة ومرارة ولكنهم باءوا بالهزيمة الساحقة . وكانوا يسمون هذه الواقعة فتح الفتوح ، وقد انتهت بإبادة دولة الأكاسرة فلم تقم لهم قائمة بعدها .

تخطيط الكوفة :

ولما أنهى سعد دولة الأكاسرة . اختط للمسلمين مدينة الكوفة وصار أميراً عليها من قبل عمر . ثم عزل عنها إثر شكاة أهلها منه . ولم يكونوا محقين فى ذلك ، وإنما هو تغير الأمور وتقلب النفوس ، ومن أجل ذلك نبه عمر على هذه المسألة وهو يحتضر فقال : إن أجمع القوم على استخلاف سعد فذاك وإلا فليستشره من يلى الأمر فإنى لم أعزله عن عجز أو خيانة !

وكان عمر قد عرض على سعد ان يعيده أميرا على الكوفة فأبى!

ولما استُخلِف عثمان أقر سعداً على الكوفة مدة ثم عزله عنها !

سعد يعتزل الفتنة :

ولما نشبت الفتنة إثر مقتل عثمان اعتزلها سعد وأقام فى ضيعة له يرعى الغنم وأمر من حوله أن لا يرفعوا إليه من أمر الناس شيئاً !

وبينما كان فى ضيعته يوما إذ رأى راكباً مقبلا عليه . فقال :

اعوذ بالله من شر هذا الراكب ، وكان ابنه عمر فقال : يا ابت أرضيت ان تكون أعرابيا فى غنمك والناس يتنازعون فى الملك بالمدينة ، فضرب صدره ، وقال : اسكت ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى » !

أى بُنَىّ ، أفى الفتنة تأمرنى أن أكون راسا ! لا والله حتى أعطى سيفاً إن ضربت به مسلما نبا عنه ، وإن ضربت كافرا قتله !

وعُمِّـرَ سعد حتى بلغ اثنين وثمانين سنة ، وكان آخر المهاجرين وفاة ، وذلك سنة ست وخمسين هجرية .



زيد بن حارثة

زيد بن حارثة بن شُراحِيل الكعبي : حِب[1] الرسول ﷺ ومولاه ، وأحدُ المسلمين الخمسةِ الأول من غير نزاع !

عربي يفقد حريته

وكان زيد بن حارثة أحد العرب من قضاعة ، فذهبت به امه — وهو صبيّ — لزيارة قومها من طيئ ، فأغار على الحي نفرٌ من بني القَينْ وأخذوا زيداً فباعوه[2] بمكة ، فاشتراه حكيمُ بن حِزَام لعمّته السيدةِ خديجةِ بنتِ خُويلد ، فلما تزوجها الرسولُ الكريم وهبته له ، فأعتقه ، وكانت سنُّ زيد حينئذ حوالى العاشرة وذلك قبل النبوة .

زيد يؤثر محمدا على أبيه

واتفق أن حج ناسٌ من كلب فرأوا زيداً فعرفوه وعرفهم،

(١) حب : أى حبيب ، وسترد على القارىء أثناء الترجمة الأسباب التى أدت إلى خصوصيته بهذا اللقب الكريم .

(٢) كان من عادات العرب قبل الإسلام أن العربى إذا أسر فقد حريته وصار عبدا وقد أبطل الإسلام ذلك .

فلما رجعوا إلى أهلهم اخبروا اباه بموضعه ، فخرج هو وعمه - كعب حتى جاءا مكة ، وسألا عن محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، فدُلاَّ عليه بالمسجد ، فدخلا عليه ، وقالا : يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيّد قومه ، أنتم أهل حرم الله ، تَفكّون العانى ، وتطعمون الأسير ، جئناك فى ولدنا ، زيدٍ عبدك ، فامنُن علينا وأحسن فى فدائه !

قال : « وما ذاك » ؟

قالوا : زيد بن حارثة ، نريد شراءَه !

قال : « او غير ذلك .. ادعوه نخيّروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء » !..

قالوا : لقد زدتنا على النّصف ! » .

وجاء زيدٌ فسأله الرسول الكريم : « هل تعرف هؤلاء » ؟

قال : نعم ! هذا أبى ، وهذا عمى ، قال :

« فأنا من علمتَ ، وقد رأيتَ صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما » .

فقال زيد : ما انا بالذى أختار عليك احدا ، انت منى بمكان الأب والعم !

فقالا : ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ قال : نعم إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحدا !

محمد يتبناه :

فلما آثر زيدٌ النبيَّ ﷺ على أهله تبناه وذهب إلى مجلس قريش بالمسجد ، فقال : « اشهدوا أن زيداً ابنى ، يرثنى وأرثه » !

ولما رآى أبو زيد وعمه ذلك طابت نفساهما ، وانصرفا عائدين إلى بلادهما !

وظل زيد يُدعى زيدَ بن محمد حتى جاء الإسلام ، ونزل قوله تعالى : « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فإِنْ لَمْ تَعلَمُوا آبَاءَهُم فأَخْوَانُكُمْ فى الدِّين وَمَوَالِيكُمْ »[1] الآية، رجع زيد إلى اسم أبيه حارثة ، ورجع كل من كان فى مثل حاله إلى الانتساب إلى آبائهم .

---

(١) سورة الأحزاب الآية رقم ٥ .

منزلته عند الرسول :

وكان زيد بن حارثة أثيراً عند النبي ﷺ ، وحسبه شرفاً قوله يخاطبه : « يا زيد أنت مولاى ومنى وإلى وأحبُّ الناس إلى ».

وقالت السيدة عائشة : ما بعث النبيُّ ﷺ زيد بن حارثة فى سَريَّة إلا أمّره عليهم ، ولو بقي لاستخلفه !

ولم يذكر فى القرآن أحدٌ من الصحابة باسمه غير زيد ابن حارثة ، إذ كان هو المعنى بقوله تعالى : « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا »[1] .

شهد زيد بدراً وأحداً وجميع المغازى حتى استشهد ، ما عدا غزوة المريسيع ، فقد استخلفه النبي ﷺ على المدينة حين خرج إليها .

صفة زيد :

وكان زيدٌ رجلاً قصيرا شديد الأدمَة[2] فى انفه فطس ، وكان إلى ذلك شجاعَ القلب ، ثَبْت الجنان فى الحروب ، صادق الإيمان ، عظيم الهمة ، وقد رشحته هذه الصفات الكريمة

(١) سورة الأحزاب الآية رقم ٣٧ .
(٢) الأدمة : السمرة الشديدة .

للمنزلة التى انزله الرسول الكريم بها ، ولم يتفق لأحد من الصحابة أن رأس عددا من السرايا[1] والغزوات يقارب مارأسه زيد من ذلك ، فقد كان ما يكاد يعود من سريّـة حتى يتجهز لأخرى ، وهو فى ذلك قائد مظفر وفارسٌ منصور . ومازال هذا دأبه حتى استُشْهِد فى غزوة مُؤْتَة[2] على نحو ماسنذكره بعد .

أحصينا فى كتب السيرة ست سرايا رأسها زيد بن حارثة يضاف إليها غزوة مؤتة التى ذهب أكثر المؤرخين إلى أنها غزوة لا سرية ، وذلك لكثرة عدد الجيش فيها إذ كان ثلاثة آلاف مقاتل ، ولأهمية الغرض منها ، إذ كانت أول محاولة لغزو الروم ، ولكثرة من استشهد فيها من الأمراء والصحابة .

غزوة مؤتة:

فى السنة السادسة من الهجرة بعث النبى ﷺ الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى أمير بصرى[3] يدعوه إلى الإسلام،

(١) السرايا : جمع سرية وهى تجريدة خفيفة من الجيش تندب لتحقيق غرض حربى، وفى رأى لبعض المؤرخين أن الغزوة هى ما كان النبي على رأسها والسرية مارأسها غيره .

(٢) مؤتة : قرية على مشارف الشام .

(٣) كانت بصرى مدينة من مدن الشام .

فلما نزل مؤتة تعرض له شرَحبيل بن عمرو الغسانى أحد امراء قيصر على الشام فقتله، ولم يُقل للنبي رسول غيره، ولما بلغه الخبر اشتد الأمر عليه واعتزم تأديب ذلك الغادر الأثيم الذى خرج على تقليد العرب الكريم ، وهو تأمين الرسل ، ولكن تتابع الحوادث لم يمكن الرسول الكريم من تحقيق غرضه إلا بعد سنتين بعد ذلك .

ففى شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة جهز النبي ﷺ جيشاً عدته ثلاثة آلاف مجاهد ، وجعل على رأسه زيد ابن حارثة ، فإن أصيب فجعفر بن ابى طالب ، فإن اصيب فعبد الله بن رواحة ، واوصاهم أن يأتوا المكان الذى قتل به الحارث بن عمر ، ويدعو من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله تبارك وتعالى وقاتلوهم .

وخرج الرسول الكريم مشيعا لهم حتى ثنية الوداع ، فوقف وقال :

« اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا بالصوامع [1] معتزلين فلا تتعرضوا لهم ،

---

(١) إشارة إلى الرهبان .

ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانيا ، ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء » .

الروم يجمعون للجيش :

ومضى الجيش حتى أتى مَعَان من أرض الشام ، وهناك علم المسلمون ان الروم قد جمعوا لهم جيشاً عدته مائة ألف ، يرفده جيش من العرب المتنصرة يبلغ عدده خمسين ألف مقاتل .

ولما صحت لديهم هذه الأنباء تبادلوا الرأى فيما يفعلون : هل يناجزون العدو على الرغم من كثرة عدده وقلة عددهم ، وبعدهم الشاسع عن المدينة مركز إمدادهم ، أو يطاولونه حتى يرسلوا للنبي ﷺ بالواقع ليرى رأيه ؟

وقد حسم الخلاف موقف عبد الله بن رواحة أحد الأمراء الثلاثة وشاعر النبى ﷺ ، إذ قال : يا قوم . والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : ألا وهى الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة ! . .

استشهاد الأمراء الثلاثة :

ونزلت هذه الكلمات بردا وسلاما على نفوس الناس ، وقالوا : صدق ابن رواحة ، وناجزوا العدو فى معركة لا تكافؤ فيها ، فقتل الأمراء الثلاثة واحدا إثر واحد ، ثم أخذ الراية خالد بن الوليد برأى جماعة المسلمين فانحاز بهم وخلصهم من إبادة شاملة كما هو مبين فى سيرته .

اللهم اغفر لزيد :

وبلغ النبي ﷺ الخبر ، فأطلع الصحابة عليه ، وعيناه تذرفان الدموع ، وقال : اللهم اغفر لزيد وكررها ثلاثا ثم قال : اللهم اغفر لجعفر ، اللهم اغفر لعبد الله بن رَواحة .

واستقبل النبي آل زيد ، فبكت بنت له ، فبكى الرسول الرحيم حتى انتحب ، فقال سعد بن عُبادة رئيس الخزرج : يا رسول الله ، ما هذا ؟

قال : « هذا شوق الحبيب إلى الحبيب ! » .

واستشهد زيد عن خمس وخمسين سنة .

أبو عبيدة بن الجراح



عامر بن الجرّاح الفهرى ثم القرشى ، ولقبه امين الأمة الإسلامية بشهادة النبي ﷺ .

لما أمدّ أبو بكر أبا عبيدة : وهو محاصر دمشق بخالد ابن الوليد قال له أبو عبيدة : تقدم فصلِّ بالناس ، فأنت أحقّ بالإمامة ؛ لأنك جئت تَمُدّنى !

فقال خالد : ما كنت لأتقدم رجلا سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

« لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح »

أمين من أمين :

وجاء النبيَّ ﷺ أسقفا نجران (١) العاقب والسيّد ومعهما وفد من قومهما ، وكان الجميع نصارى جاءوا ليجادلوه فى الدين ، فلما عدلوا عن ذلك بعد ما شدهتهم الآيات البينات مالوا إلى المسالمة وذكروا للرسول الكريم أن بينهم خلافا على شىء ، واقترحوا عليه أن يبعث معهم رجلاً من المسلمين أميناً ليحكمَ بينهم !

(١) نجران : مدينة بالجزيرة العربية واقعة بين اليمن والحجاز .

فقال : « لأبعثن معكم آمينا حق امين » .

واستشرف كبار الصحابة يرجو كل واحد منهم أن يكون المعنِىَّ بهذا التشريف ، ولكنه قال :

« قم يا أبا عبيدة » !

صفة أبي عبيدة :

وكان أبو عبيدة رجلاً عظيما فى كل نواحيه ، صادقا زاهدا عفيفا متواضعا ، تكاملت عنده الأخلاق الفاضلة التى يمثلها المؤمن الصادق الإِيمان ، ومن أجل ذلك قال الرسول الكريم فى حقه :

« ما من أحد من أصحابى لو شئتُ لأخذتُ عليه فى خلقه ليس أبا عبيدة بن الجراح » .

وسئلت عائشة : من كان احبّ إلى رسول الله ؟ قالت أبو بكر ثم عمر ثم أبو عبيدة بن الجراح .

وقال عبد الله بن عمر : ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها ، وأحسنهم خلقا ، وأشدهم حياء : أبو بكر وعثمان وأبو عبيدة بن الجراح .

يرشحه للخلافة :

ورشحه أبو بكر للخلافة يوم سقيفة بنى ساعدة[1] ، فقال : اختاروا أحدَ الرجلين : عمر بن الخطاب أو أبي عبيدة ابن الجراح !

وقال عمر لجلسائه يوما : تَمَنَّوا ، فتمنَّوا ، فقال : لكنى أتمنى بيتاً مُمتلئا رجالا مثل أبي عبيدة بن الجراح !

عمر فى ضيافته :

قدم عمر الشام ، وأبو عبيدة أمير عليها من قبله : فتلقاه أمراء الأجناد ، فقال : أين أخى أبو عبيدة ؟ فقالوا : يأتى ، فجاء على ناقة مخطومة بحبل ، فسلّم عليه فقال عمر : اذهب بنا إلى منزلك ! قال ابو عبيدة . وما تصنع عندى ؟ ما تريد إلا أن تعصر [2] عينيك علىّ .

ودخل عمر منزل أبي عبيدة فلم يرَ شيئا من أثاث أو رياش ،

---

(١) هو اليوم الذى اجتمع فيه المسلمون إثر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لينتخبوا خليفة له .

(٢) تعصر عينيك : أى تبكى ، كما سيجىء بعد .

فقال : أين متاعُك ؟ لا أرى إلا لَبَداً [1] وصفحة وشَنّا [2] وأنت أمير ! أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة إلى جَوْنة [3] فأخذ منها كُسيرات . . فبكى عمر !

فقال أبو عبيدة : قد قلت لك : إنك ستعصر عينيك عليّ يا أمير المؤمنين ، يكفيك ما يبلغك المَقِيل !

قال عمر : غيّرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة !

وليست هناك تعليق على هذا الحادث ابلغ ولا أكرم من إن عمر بن الخطاب هو نفسه الذى يقول هذا الكلام وهو أوحد الدنيا ، ونابغة الحاكمين زهدا وورعا وعدلا واستقامة !

الرجل المجاهد

سرية ذى القصة :

بعث النبي ﷺ أبا عبيدة فى اربعين رجلا إلى من بذى القصة ، فإنه بلغه أنهم يريدون الإغارة على المدينة ، فسار إلى غرضه ليلا ، ووصل إلى ذى القصة مع تباشير الصباح فأغار على القوم ففروا إلى الجبال ، فاستاق نعمهم وأسر واحدا منهم وجاء به إلى النبي ﷺ فأسلم فتركه .

---

(١) اللبد : البساط من صوف . (٢) الشنّ : القربة الصغيرة .
(٣) الجونة : القِدْر .

سرية الخبط : (1)

بلغ النبيَّ ﷺ أن حيًّا من جُهينة على ساحل البحر الأحمر يقطع الطريق على المسلمين ، فأرسل إليه أبا عبيدة ابن الجراح على راس ثلثمائة مجاهد فيهم عمر بن الخطاب ، وزودهم بجراب من تمر ، فكان أبو عبيدة يعطى الرجلَ تمرة فى اليوم ، فكان الرجل يمتصها ثم يحتفظ بها ليمتصَّها مرة اخرى وهكذا ، وطال بهم المقام حتى نفد التمر فجاعوا حتى أكلوا الخبط .

ثم أرسل الله إليهم حوتاً ضخما فاكلوا منه وشبعوا حتى سمنوا ، واخذوا بعضه إلى المدينة عند عودتهم !

فتح الشام :

لما استقر الأمر فى جزيرة العرب بعد هزيمة أهل الردة ، اتجه أبو بكر الصديق إلى الشام والعراق ، فعقد أربع الوية لأربعة أمراء ، وسيرهم جميعاً إلى الشام ، وحدد لكل أمير وجهته ورسم له خطته ، أما هؤلاء الأمراء الأربعة فهم:

أبو عبيدة بن الجراح ، ووجهته حمص .

وعمرو بن العاص ، ووجهته فلسطين .

---

(1) الخبط : ورق الشجر .

ويزيد بن ابى سفيان ، ووجهته دمشق .

وشُرحبيل بن حَسنَة ، ووجهته الأردن .

وسار الأمراء الأربعة إلى وجهاتهم ، وكان مجموع ما لديهم من الجند لا يزيد فى أقصى تقدير على اربعين ألف مجاهد .

الروم يحشدون جيوشهم :

ولما تسامع هرقل ملك الروم بأمر هؤلاء الأمراء وجيوشهم ، حشد لهم جيشا ضخما قدره المؤرخون بما لا يقل عن مائتى ألف مقاتل !

وجاءت أنباء الحشد الرومى إلى أمراء الجيوش من المسلمين وهم متفرقون : كل ماض إلى وجهته التى عينها لهم الخليفة ، فتراسلوا للتشاور ، فكان رأى عمرو بن العاص الاجتماع فى مكان واحد لمواجهة العدو ، وكان مما قال فى ذلك : « إن الراى الاجتماع ، وذلك أن مِثلنا إذا اجتمع لم يُغلب من قلّة » .

معركة اليرموك :

وكان أن اتّعدوا اليرموك [1] ليجتمعوا به ، وجاء رأى

---

(١) اليرموك : اسم نهر بفلسطين .

أبى بكر مؤيدا لرأى عمرو بن العاص ، وعلى هذا انحدر الأمراء إلى اليرموك ، وظل كل أمير مستقلا بإمارة جيشه ، ثم كتبوا إلى الخليفة يستمدونه لقلة عددهم بإزاء حشد الروم، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يسير إليهم ويخلف على ما تحت يده من العراق المثنى بن حارثة الشيبانى .

ووافق قدوم خالد إلى حيث اجتمع الجيش الإسلامى قدوم باهان أمير الجيوش الرومية، وقد سير أمامه الرهبان والقساوسة يحضون الروم على القتال ، فتيمنت الروم بباهان ، وفرح المسلمون بخالد !

واقترح خالد بن الوليد على الأمراء توحيد القيادة ليلقوا الروم صفا واحدا ، على أن تكون كل يوم لأمير ، وطلب أن يجعلوا له اليوم الأول فى الإمارة فاستجابوا له[1] .

وتلاقى الجيشان تحت إمرة خالد فهزم الله الروم شر هزيمة وقتل منهم أكثر من مائة وخمسين ألف رجل .

القائد العام :

ومن الطرائف التى حدثت فى هذه المعركة أن بريد المدينة

---

(١) نشرنا هذه الواقعة مفصلة فى ترجمة خالد بن الوليد إذ كان موضعها هناك .

حضر قبل تلاقى الجيشين ، وهو يحمل كتاب عمر بن الخطاب بوفاة أبى بكر الصديق ، واستخلاف عمر ، وعزل خالد ابن الوليد عن إمارة الجيش ، وتولية ابى عبيدة بن الجراح ، فلما قرأ خالد الكتاب وضعه فى كنانته ولم يخبر أحدا بما فيه إلى أن انتهت المعركة بالنصر فذهب إلى ابى عبيدة وسلم عليه بالإمارة وناوله كتاب الخليفة . وقال يخاطب المسلمين : إن الخليفة أمّر عليكم أمينِ هذه الأمة !

فقال أبو عبيدة : سمعت رسولُ الله ﷺ يقول : « خالد سيف من سيوف الله ونعم فتى العشيرة » !

فتح دمشق :

قصدت فُلول جيش الروم إثر هزيمتها بمعركة اليرموك إلى دمشق فتحصنت بها ، وسار إليهم أبو عُبيدة بن الجراح فى جيشه ومعه أمراء الأجناد وخالد بن الوليد من غير إمارة ولكن له المكانة التى كان يحظى بها فى نظر أبى عبيدة وتقديره ، ومن اجل ذلك أقامه على رأس فرقة من الجيش على احد ابواب دمشق اثناء حصارها الذى طال قرابة ستة اشهر !

وكان خالد ـ كما وصفه أحد المؤرخين ـ لا ينام ولا يُنيم ،

دائب اليقظة شديد الحذر ، يرسل عيونه ويلتقط الأخبار ، فعلم ذات يوم أن للروم عيداً مقدسا يشربون فيه الخمر ويكثرون من اللهو والغفلة أثناءه،فأعد للأمر عُـدته وهاجم أسوار المدينة من قبله ليلا حتى افتتحها عَـنوة !

ولما رأى الروم ذلك سارعوا إلى الباب الذى يلى أبا عبيدة ففتحوه ، وعرضوا عليه الصلح ـ وهو لا يعلم بأمر خالد ـ فاستجاب لهم . وجاء خالد بعد أن أعطى أبو عبيدة كلمته للقوم فطلب إليه أن لا يقبل صلحهم لأنه فتح المدينة من قِبَـله عَـنوة ، ولـكن أبا عبيدة أمضى كلمته ، وأتم الصلح مع القوم على المدينة كلها !

سمعته الخيرة عند أهل الشام :

ولئن كانت شهرة خالد الحربية قد سبقته إلى البلاد وتحدثت بها الأقاليم كلها ، فإن شهرة أبى عبيدة فى الحلم والرفق وسَـعة الصدر وحب السلام قد سبقته كذلك إلى أهل الشام ، فأحبوه ويسّـروا له مهمته ، وكان من أثر ذلك أن كثرت المصالحات بينه وبينهم ، وأن حُـقنت الدماء واطمأنت النفوس ، ولولا كَلَـب المملـكة الرومانية وشدة حرصها على الاستمساك بالشام

لمـا لقى أبو عبيدة حربا تذكر من الأهلين ، بل رحبوا بعدله واستقامته ، وانحازوا إليه شاكرين له تخليصه إياهم من عسف الروم وظلمهم . ومن ضرائبهم الفادحة وتحكمهم الظالم المحرج ، واستعمارهم الآثم الفظيع !

فتح حمص وغيرها صلحا :

سار أبو عبيدة بعد فتح دمشق إلى حمص فصالحه اهلها على مثل ما صالح عليه أهل دمشق ، ثم قصد إلى بعلبك وحماة فخرج إليه اهلهما مسالمين مصالحين !

ومرّ أبو عبيدة بمعرّة النعمان ، فخرج إليه أهلها يلعبون بين يديه ، ويستقبلونه بالفرح والاستبشار ، فأجرى الصلح معهم على نحو الصلح الذى أجراه مع أهل المدن الأخرى .

فتح حلب وما جاورها صلحا :

وفتحت حلب على أبي عبيدة صلحا ، وكذلك فتحت قنسرين وانطاكية وجميع بلاد الشمال .

وفيما تمّ من فتح عواصم الشام الكبرى على يد ابى عبيدة ابن الجراح صلحا ، تأكيد للمعنى الذى اشرنا إليه آنفا من استراحة أهل الشام وأصحاب البلاد الأصليين إلى روح الإسلام ،

وسياسته البرّة المحسنة ، ومبادئه القويمة التى كان أبو عبيدة يمثّلها خير تمثيل !

فتح قنسرين :

أرسل أبو عبيدة بن الجراح خالد بن الوليد إلى قنسرين على رأس جيش لفتحها ، فدلف إليه الروم فى جيش كبير على رأسه القائد « ميناس » . وهو رأس الروم وعظيمهم بعد هرقل . والتقى الجيشان فى معركة عيفة قتل فيها « ميناس » ، وثبت الروم حول جثته حتى أبيدوا كلهم ، وقد بلغ عدد هلكى الروم فى هذه المعركة عشرات الألوف .

وكان مع الروم عدد كبير من العرب المتنصرة وغيرهم من عبدة الأوثان ، فأرسلوا إلى خالد يقولون : إنه لا يدلهم فيما حدث ، وإنما هم عرب مثلهم حشروا بالقوة والإكراه مع الروم ، فقبل منهم عذرهم ، ولم يؤاخذهم على خروجهم عليه ، وقد أحسن صنعا إذ أنهم أسلموا كلهم وصاروا من خيار المجاهدين !

فتح أنطاكية :

وقصد أبو عبيدة إلى انطاكية ، وقد انحاز إليها جمع كثير من الروم ، بعد أن أصبحت أكبر مدينة لا تزال فى أيديهم .

فلما بلغ مهرويه ، وهى على بعد فرسخين من أنطاكية ، قابل حشداً للروم فهزمه ، وألجأه إلى المدينة ، ثم حاصرها فصالحه أهلها على الجزية ، وجلاء الروم الذين بها فقبل منهم ، وقد أعجبت شروط الصلح فريقا من الروم فقبلها وظل مقيما بالمدنية !
وبلغ أبا عبيدة أن هناك بين معرة مصرين وحلب جمعا للروم ، فسار إليهم وأوقع بهم وفض جيشهم بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة !

وجالت خيله حتى بلغت بوقا وفتحت قرى الجومة وسرمين وغيرهما من القرى والدساكر وظل أبو عبيدة يتقدم والفتوحات تسير فى ركابه والنصر السلمى يتقدمه ، وأهل البلاد يهشون لمقدمه ، حتى بلغ الفرات ففتح رعبان ودلوك واشترط على أهلهما أن يبحثوا عن أخبار الروم ويكاتبوا المسلمين بما يقع إليهم منها !

واقعة مرج الروم :

عزّ على هرقل ملك الروم أن تخرج الشام من قبضته وأن يستقل بها العرب، فجمع جيشا كبيراً أمّر عليه تيودورا البطريق فسار حتى نزل مرج دمشق . فدلف إليه أبو عبيدة بن الجراح

ومعه خالد بن الوليد وغيره من أمراء الأجناد، حتى نزل إزاءه بمرج الروم ، وفى هذا اليوم نفسه وصل مدد إلى العدو بقيادة شنس الرومى يضاهى عدده عدد الجيش الأول ، فاصطف ابو عبيدة . ووقف بإزاء شنس ووقف خالد بإزاء تيودورا ، ولما كان صباح اليوم التالى ، اكتشف المسلمون أن تيودورا قد رحل بجيشه كله ولم يلبثوا أن علموا أنه ترك شنس وجيشه لإشغالهم ، وقصد إلى دمشق ليفتحها . فاتفق أبو عبيدة وخالد على أن ينسحب خالد بجيشه أثناء المعركة ليلحق تيودورا ،ويحول بينه و بين غرضه !

وسار خالد بجيشه حتى لحق تيودورا قريبا من دمشق ، فحمل على مؤخرته .وحمل المسلمون الذين كانوا على حامية دمشق على مقدمته ، وهكذا وقع بين شقى الرحا فقتل وابيد جيشه إبادة كاملة !

أما أبو عبيدة فقد هجم بجيشه على شنس فهزمه هزيمة منكرة ، وقضى عليه قضاء تاما . وكان نصر المسلمين عظيما فى هذه الواقعة ، ومغانمهم منها فوق الحصر !

أبو عبيدة محاصر :

فى السنة السابعة عشرة من الهجرة لمّ الروم شعثهم ، وجمعوا جيشا كبيرا ، وقصدوا إلى أبى عبيدة بحمص ومالأهم على ذلك أهل الجزيرة ، فاستدعى أبو عبيدة قواته المتفرقة إليه. وقدم عليه خالد بن الوليد من قنسرين، فاستشارهم : هل يناجز القوم أو يتحصن بالمدينة ويكتب إلى الخليفة يطلب مددا ؟ فكان من رأى خالد المناجزة ورأى غيره من الأمراء التحصن وانتظار المدد وجنح أبو عبيدة إلى الرأى الثانى !

ولما بلغ عمر كتاب أبى عبيدة أهمّه الأمر جدا ، فاستنفر أهل المدينة إلى الجهاد ، وأمر خيل النجدة [١] بالكوفة أن تبادر إلى نجدة أبى عبيدة ، وكتب إليه يواسيه :

«أما بعد : فإنه ما نزل بعبد مؤمن شدة إلا جعل الله بعدها فرجا : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [٢] »

---

(١) كان عمر قد أعد فى كل مصر من الأمصار فرقا من الخيالة لا تشترك فى الحروب العادية، وإنما تنجد كل من وقع فى حرج من جيوش المسلمين، وكان عدد هذه الفرق بالكوفة أربعة آلاف .

(٢) الآية الأخيرة من سورة آل عمران .

ثم كتب إلى طائفة من القواد أن يُسيِّروا قواتهم إلى الجزيرة ، فقد كان أهلها هم الذين استثاروا الروم على أبى عبيدة : وأعقب ذلك بأن خرج هو مبادرا إلى نجدة أبى عبيدة بمن نفر معه من اهل المدينة ، وسار من المدينة حتى بلغ الجابية [1] .

ولما بلغ أهل الجزيرة مسير الجيوش إليهم من كل ناحية أهمّتهم أنفسهم ، فتخلوا عن الروم وتفرقوا إلى بلادهم .

ولما رأى أبو عبيدة انفضاض أهل الجزيرة عن الروم ، استشار خالدا فى الأمر فأشار بالخروج إلى الروم ومناجزتهم ، فعمل برأيه ، وخرج من المدينة فهجم على الروم هجمة صادقة زحزحتهم عن اماكنهم ، فتمكن المسلمون منهم ، وهزموهم هزيمة منكرة ، ونصرهم الله عليهم نصرا مؤزرا .

وقد وصلت أمداد الخليفة إلى أبى عبيدة بعد انتهاء المعركة، ولكن عمر بن الخطاب كتب إلى أبى عبيدة يوصيه بأن يشرك مُمِدّيه فى الغنائم لأنهم كانوا أحد أسباب نصره .

---

(١) مركز على مسيرة يوم جنوبى غرب دمشق .

طاعون عمواس[1] :

فى السنة الثامنة عشرة للهجرة انتشر الطاعون بالشام ومصر والعراق ، ولكنه استفحل بالشام . وقد قدر المؤرخون ضحاياه من الجيوش العربية المجاهدة بنحو ثلاثين ألف مجاهد !

ولما علم عمر بن الخطاب بأمر هذا الوباء الجارف ، كتب إلى أبى عبيدة يستقدمه ، ويقول له : « إنه قد عرضت لى حاجة ولا غنى بى عنك فيها فعجّل إلىّ .. وكان غرضه أن يبعده عن موطن الوباء ، ولكن أبا عبيدة فطن إلى قصده ، فاستعفاه وآثر الموت بين أصحابه . ولم تر فجيعة بين المسلمين بعد فجيعتهم برسول ﷺ وأبى بكر الصديق ، أشد وقعا عليهم ، ولا أكثر حزنا لهم من فجيعتهم بهذا الرجل الصادق الأمين !

قال معاذ بن جبل يبكيه :

إنكم فجعتم برجل ما أزعم والله انى رأيت من عباد الله قط أقل حقدا ، ولا أبر صدرا ، ولا أبعد غائلة ، ولا اشد حياء للعاقبة ، ولا انصح للعامة منه ، فترحموا عليه .

مات أبو عبيدة عن ثمانية وخمسين عاما .

---

(١) عمواس : اسم بلد بسهل فلسطين .

عمرو بن العاص
فاتح مصر



عمرو بن العاص السَّهمى من أذكياء قريش ودهاتها فى الجاهلية ، فلما أسلم فى السنة الثامنة الهجرية ، كان كما وصف به هو نفسه فى حديث إسلامه حيث قال : « فوالله ماعدل بى رسول الله ﷺ وسلم وبخالدبن الوليد — أسلما معا فى ساعة واحـدة — أحداً من الصحابة فى أمرِ حربٍ منذ أسلمنا ، ولقد كنا عند أبى بكر بهذه المنزلة ، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة ، وكان عمر على خالد كالعاتب » .

اللواء الأول :

كان أول لواء عقد له فى الإسلام فى السنة الثامنة من الهجرة ، أرسله النبىّ ﷺ رئيسا لسَرِيّـة ذات السلاسل[1] . ليفرق جمعا لقضاعة كانوا يريدون غزو المدينة ، فلما قرب من مكان العدو ، علم أنه فى عدد كثير . وكانت سريته ثلثمائة مجاهد ، فأرسل يستنجد الرسولَ العظيم فأمدّه بمائتين من المهاجرين والأنصار برياسة أبى عبيدة بن الجراح وفيهم أبو بـكر وعمر ،

(١) ذات السلاسل : اسم لماء وراء وادى القرى .

وأبى عمرو إلا أن يكون رئيسا للجميع فقبل أبوعبيدة رياسته ، وصلى خلفه .

والتقى الجمعان ، وكان العدو كثير العدد ، ولكنه جبن امام صدق عزيمة المسلمين ، فتفرق وولّى هاربا .

وأراد المسلمون أن يقتفوا أثر العدو فنعهم عمرو ، وفى الليل اشتدّ البرد فأراد المسلمون أن يوقدوا ناراً يصطلون بها فنعهم عمرو كذلك .

عمرو الحصيف :

فلما عاد عمرو إلى المدينة سأله النبىّ ﷺ عن هذين الأمرين فقال : كرهت ان يتّبعوهم فيكون لهم ـ أى للأعداء ـ مدد فيعطفوا عليهم ، وكرهت أن يوقدوا نارا فيرى عدوهم قِلّتهم ! فحمِد الرسولُ الكريم حسنَ تدبيره .

هدم سواع :

وأرسله النبىّ ﷺ لهدم سُواع ، وكان صنما لهذيل يحجون إليه فى الجاهلية ، وتعظمه العرب معهم . فسار إليه فى جماعة من المسلمين ، فلما بلغه وأراد هدمه قال سادنه : إنك لاتستطيع ذلك !

فقال عمرو : وماذا يمنعنى ؟

ـــ الصنم نفسه .

ـــ حتي الآن أنت على الباطل !..

ثم أعمل المعاول فى هدم الصنم حتي حطّمه ، وقال للسادن بعد ذلك : كيف رأيت ؟ !

قال : أسلمت لله !

أبو بكر يؤمره :

ولى النبيّ ﷺ عمرو بن العاص على صدقات سعد هذيم وعذرة ومن لفّ لفّها من جُذامة وحَدَس وعلى عمان ، فلما تُوفىّ الرسول ﷺ كتب ابو بكر إلى عمر يقول :

إنى كنت قد رددتك على العمل الذى كان رسول ﷺ ولاّكه مرّة وسماه لك أخرى ، مبعثك إلى عمان إنجازا لمواعيده ، وقد أحببتُ اباعبد الله أن أفرِغَك لما هو خيرٌ لك فى حياتك ومعادِك منه إلا ان يكون الذى أنت فيه أحبّ إليك !

وكانت هذه الإشارة من أبى بكر ترشيحا لعمرو ليكون من بين قادة الأجناد الذين يعتزم تنصيبهم على الجيوش التى سيسيرها إلى الشام والعراق ، فكتب إليه عمرو يقول :

إنى سهم من سهام الإسلام ، وانت بعد الله الرامى بها والجامعُ لهـا ، فانظر اشدّها وأخشاها وأفضلها ، فارم به شيئا إن جاءك من ناحية من النواحى !

أمير فلسطين :

واختار أبو بكر عمرا لقيادة احـد جيوشه الأربعة الذين وجههم لفتح الشـام — على نحو ما قدمنا فى ترجمة أبى عبيدة ابن الجراح — وكانت وجهة عمرو فلسطين ، وعدد جيشه أول الأمر ثلاثة آلاف ، ثم أخذ يزداد بإمدادات الخليفة حتى بلغ سبعة آلاف .

وقد افتتح عمرو بن العـاص غزّة وسبسطية ونابلس ولدّ ويبنى وعمواس وبيت جبرين ويافا ورفح .

فى اليرموك :

ولمـا جيّش هرقل ملك الروم جيوشه الكبرى لتصد المسلمين ، وتراسل امراء الجيوش الإسلامية الأربع ، نزلوا على راى عمرو بن العاص وهو التجمع فى مكان واحد باليرموك ليقابلوا الروم جبهة واحدة ، وعلى ذلك سار عمرٌو بجيشه إلى

مكان الاجتماع ، وكان من أمر هذه الموقعة الشهيرة ما سبق ان عرفه القراء فى سيرة أبى عبيدة .

فتح مصر :

حين انكسرت شوكة الروم بالشام ، وتم فتح معظم مدنه ، واستولى المسلمون على ثغوره وقلاعه ، ومَضَت فى ذهن عمرو ابن العاص فكرة فتح مصر ، فانتهز زيارة عمر بن الخطاب الشام فى السنة الثامنة عشرة الهجرية وعرضها عليه ، فتردد عمر إشفاقا على المسلمين ان يُورّطهم فى حرب فظيعة أخرى ، وهم لما تندمل جراحهم من حروب الشام .

ولكن عمرا بن العاص كان قوىّ الحجة رائع البيان ، فذكر لعمر بن الخطاب ان أريطون حاكم القدس الرومانى قد فرّ إلى مصر لما أيقن اتجاه أهل القدس إلى مصالحة المسلمين ، ولابد أنه يعمل على تجييش الجيوش بها لمعاودة حرب العرب ، والمصلحة تقضى بمداهمة مصر حتى لا يتسع وقت الرومانيين للحشد والتعبئة !

ومضى عمرو يهوّن الأمر على عمر فاقترح أن يسير إلى مصر فى اربعة آلاف مجاهد فقط ، فأذن له فى ذلك على تردّد ،

وأنهى إليه أنه سيرسل إليه أثناء قصده إلى مصر رسالة برأيه الأخير !

ويقول المؤرخون إن عمر لما رجع إلى المدينة استشار كبار الصحابة فى الأمر ، وكان من بينهم عثمان بن عفان فاستعظم الأمر ، وذكر أن فى عمرو بن العاص جُرأة وتهوّرا !

فعاد عمر إلى تردده وإشفاقه ، ولكنه خشى أن لا تبلغ رسالته عمرا إلا بعد ان يكون قد دخل مصر ، فيحدث رجوعه أثرا بالغا فى سمعة العرب والإسلام ، فتوسط الأمر وكتب إليه : إذا بلغتك رسالتى قبل دخولك مصر فارجع ، وإلا فسر على بركة الله .

عمرو الفطن :

وجاء رسول الخليفة عمرو وهو عند رفح ، ففطن إلى ما تحتويه رسالة الخليفة من وقف الحملة ، واستعان بدهائه المعروف فلم يأخذ الكتاب من الرسول حتى بلغ العريش ، وحينئذ استدعاه وأخذ كتاب الخليفة ففضّه وقرأ ما فيه ، ثم سأل أصحابه : أنحن فى مصر الآن أم فى فلسطين ؟ فأجابوا :

نحن فى مصر ! فقال : « إذن نسير فى سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين » !

فتح الفرما :

كانت مدينة الفرما أول مدينة اشتبك فيها العرب مع الروم، وكانت محصنة وقد حاصرها العرب شهرا ثم دخلوها عنوة ، وقتلوا وأسروا من الرومان خلقا كثيرا، وولى الباقون الأدبار.

وقد روى المقريزى وأبو المحاسن أن قبط الفرما ساعدوا العرب على الروم فى هذه المعركة.

فتح بلبيس :

وسار عمرو بجيشه إلى بلبيس لايلقى معارضة ، وكانت هذه المدينة ذات حصون ومَنَعة ، وقد حشد فيها الروم جيشا ضخما وأرسل عمرو إلى المدينة يخيّر قادتها بين الإسلام أو دفع الجزية أو المناجزة : وأمهلهم أربعة أيام ليبعثوا بردّهم ، ولكن قائد المدينة الرومانى وهو أريطيون الذى كان قائدا للقدس اختار الغدر والخيانة على الاستقامة والسلامة ، ففى اليوم الثانى من المهلة بيّت المسلمين بجيشه ، ولكن الله نصرهم عليه نصرا مبينا ، فقتلوا من جيشه ألف رجل وأسروا ثلاثة آلاف أسير !

أم دنين :

ومكث عمرو ببلبيس شهرا يجُمّ فيه جيشه ويرسل عيونه لجمع الأخبار ويبعث كتبه إلى الخليفة يستمده بالجيوش . ثم سار قاصدا إلى حصن بابليون معقل الروم الأكبر وحرزهم الحصين ، فاعترضه الروم بأم دنين ولكنه فلّ جمعَهم وهزمهم هزيمة منكرة !

أمداد الخليفة :

وفى هذه الفترة وصلت أمداد الخليفة من الجيوش ، وكان عددها ثمانية آلاف مجاهد فقويت شوكة المسلمين . وباء الروم بخذلان مبين .

حصن بابليون :

ربض المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل وبطريركها الرومانى الأكبر وقائد جيوشه تيودور فى حصن بابليون ، ومعهما صفوة الجيش الرومى ، ووقف عمرو بن العاص وجيشه أمام الحصن محاصرين إياه ودام الحصار سبعة أشهر ، حدث فى أثنائها أن أرسل المقوقس رسله إلى عمرو للمصالحة ، فاستجاب له عمرو على الشروط

التى ذكرناها قبلا وهى الإسلام أو الجزية فاختار المقوقس الجزية، وكتب إلى هرقل يستأذنه فى ذلك ، فلم يقبل منه ، بل حنق عليه ولامه لوما شديدا واستدعاه إلى القسطنطينية ثم نفاه .

فلما بلغ المسلمون ذلك تسوّروا الحصن فى الليل واشتبكوا مع الجنود فى قتال عنيف ، وكان أول من تسوّر الحصن الزبير ابن العوام ابن عمة رسول الله ﷺ ، وأحد أبطال الإسلام وأركانه العظام . فلما رأى الروم ذلك أذعنوا للصلح على شرط أداء الجزية فقبل منهم عمرو ذلك ، وخالفه الزبير بن العوام ، وقال : إنه كان على وشك فتح الحصن عَنوة . ولكن عمرا امضى الصلح على أن يخرجَ جند الروم من الحصن فى ثلاثة أيام، فينزلوا النهر ويحملوا مايلزمهم من القوت لبضعة أيام . أما الحصن ومافيه من الذخائر وآلات الحرب فتبقى غنيمة للمسلمين .

فتح الاسكندرية :

كانت الاسكندرية عاصمة مصر فى ذلك الزمن، وكانت مدينة انيقة ليس فى العالم كله مايضارعها رونقا وعمارة غير مدينة روما وهى إلى ذلك محصنة تحصينا قويًّا ، وقد انحاز إليها جيش

الرومان الذى جلا عن حصن بابليون والجيوش الأخرى التى كانت تحتل مدن الريف .

لم يمكث عمرو بن العاص بحصن بابليون طويلا ، بل اجتاز النيل ، قاصدا إلى الاسكندرية محاذيا له ؛ وقد افتتح فى طريقه جميع الحصون التى اعترضته ، ففتح مدينة نقيوس ، وقد كانت على شاطىء النيل الشرقى بالقرب من منوف . ولم يلق عناء فى فتحها ؛ إذ أن قائدها الرومانى ما كاد يسمع بقرب مجىء الجيش الإسلامى حتى فرّ إلى الإسكندرية ، ولما رآى جنوده قائدهم يهرب فعلوا فعله ونزلوا إلى السفن والقوارب يريدون الصعود إليها . فأدركهم الجيش الإسلامى وهم على هذه الحال فأفناهم عن آخرهم .

وواصل عمرو سيره إلى الاسكندرية وهو يدفع العدو دفعا أمامه ، فلما بلغ سنطيس ، وهى على بعد ستة أميال من مدينة دمنهور التحم مع جيش الروم فى موقعة عنيفة ، فهزمهم هزيمة منكرة .

موقعة كريون :

واستأنف عمرو بن العاص مسيره نحو الاسكندرية فلما خلف

سنطيس بعشرين ميلا وجد تيودور قائد الجيش الرومى قد اعترض طريقه عند حصن كريون على رأس الجيش الرومى كله ، فالتحم عمرو بن العاص معه فى معركة ظلت دائرة حوالى عشرة أيام . ثم نصر الله المسلمين على الروم نصرا مبينا .. فانهزموا وولوا سراعا نحو الاسكندرية .

على أسوار الاسكندرية :

وواصل عمرو سيره بالجيش حتى بلغ الاسكندرية ، وضرب الحصار عليها وكان بها من الروم ما يزيد على خمسين ألف مقاتل . وجس القائد الإسلامى الأسوار فوجدها منيعة جدا ، فاكتفى بفرض الحصار . ثم أخذ يرسل السرايا لفتح المدن الواقعة فى دلتا النيل ، ثم سار بنفسه على رأس فريق من الجيش يفتتح حصون مصر السفلى ، فاخترق إقليم الغربية وبلغ دمياط ، واستغرقت هذه الرحلة حوالى سنة ، ثم قصد إلى حصن بابليون.

وحدث أثناء هذه السنة ان هلك هرقل راس الكفر ، ونشبت فتن صاخبة بالقسطنطينية إثر هلاكه ، وحكم من بعده ابنه قسطنطين ، ولكنه لم يعمر فهلك بعد مائة يوم من حكمه . وحكم من بعده أخوه هرقلوناس وتم فى أول عهده قرار

النزوح عن الإسكندرية بعد أن اقتنع مستشاروه أن لا امل فى الانتصار على العرب ، وعلى ذلك استدعى المقوقس من منفاه ، وفوض فى الصلح مع العرب فحضر إلى مصر وقصد إلى عمرو بن العاص فى حصن بابليون ، وتحدث معه فى الصلح وتسليم الاسكندرية واتفق الفريقان على ذلك وفيما يلى أهم الشروط :

١ — يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

٢ — تعقد هدنة مدتها أحد عشر شهراً .

٣ — يبقى العرب فى مواضعهم ، ويكفوا عن قتال الروم .

٤ — يرحل الجيش الرومى عن طريق البحر بأمواله ومتاعه .

٥ — يحترم المسلمون كنائس المسيحيين .

٦ — يرسل الروم مائة وخمسين جنديا وخمسين من الوجوه كرهائن لضمان تنفيذ شروط الصلح من جانبهم .

وقد قدرت الجزية بدينارين على كل رجل ما عدا الشيخ العاجز والولد الصغير .

إلى الخليفة :

أرسل عمرو بن العاص معاوية بن حُديج إلى عمر بن الخطاب

ليبشره بالفتح ، ووافق بلوغه المدينة وقت القيلولة . فتحرّج أن يقلق الخليفة ، ودخل المسجد فرأته جارية لعمر وشاهدت ما عليه من وعثاء السفر ، فسألته عن اسمه فذكره وزاد بأنه قادم من مصر إلى الخليفة برسالة من أميرها فلما علم الخليفة بذلك استدعاه سريعاً . وسأل عن الأنباء : فقال : خيراً يا أمير المؤمنين ، فتح الله علينا الإسكندرية ، فقام عمر إلى المسجد ومعه معاوية ، وصلى صلاة الشكر ، واعتذر معاوية لعمر بأنه قد ظن عند وصوله أنه نائم فلم يُرد إزعاجه : فقال عمر :

بئس ما قلت وبئس ما ظننت ! لئن نمتُ النهار لأضيعن الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسى . فكيف بالنوم مع هذين !!

تعليقات على فتح مصر :

يلاحظ المتتبع تاريخ الفتوحات الإسلامية فى صدر الإسلام أن فتح مصر قد صاحبه يُسرٌ وتوفيقٌ أكثر مما كان من ذلك فى فتح الشام أو العراق ، مع أن مصر لم تكن أقل من الشام فى نظر الروم . فلم تحدث فيها معارك كبرى مثل اليرموك أو القادسية بل إن الروم أظهروا من الجبن والتنصل من

التبعات ما لم يحدث منهم مثله فى الشام . فما هو السرّ فى ذلك ؟
هناك أسباب عدة لهذه الظاهرة منها :

١ — جاء العرب إلى مصر وقد سبقتهم إليها شهرتهم فى الحروب ، وانتصاراتهم العظيمة فى الشام والعراق ، ففت ذلك فى عضد جنود الروم المعسكرين بها ، وأدخل اليأس إلى نفوسهم ، وتملكتهم عقيدة راسخة هى أن العرب لا يغلبون.

٢ — سبق مجىء العرب إلى مصر عهد تعصب دينى مفرط الشناعة ظل قائما نحو عشر سنين ، فقد أراد الروم أن يحملوا القبط على ترك مذهبهم الدينى واعتناق المذهب الرومى ، فلم يستجب لهم القبط ، فملأوا بهم السجون وأذاقوهم أشنع ألوان التعذيب والتنكيل !

ويقول المؤرخ الإنجليزى الدكتور « ألفرد . ح . بتلر » فى كتابه فتح العرب لمصر ترجمة الأستاذ فريد أبو حديد فى هذا الموضوع ما يأتى ، ص ٢٠٢ .

« ذكرنا من قبل أنهم ـ أى الروم ـ سجنوا فى أول الحصار [1] كثيرا من القبط الذين كانوا فى الحصن ، وذلك

(١) المراد حصار العرب حصن بابليون .

لأنهم ابوا أن يتركوا دينهم أو لأنهم رابهم منهم أمر ، فلما جاء يوم الفصح الذى كان فيه الخروج من الحصن جعله الروم يوم وقعة ونقمة من هؤلاء المسجونين التعساء ، فسحبوهم من سجونهم ، وضربوهم بالسياط ، وقطع الجند أيديهم » .

يفعل الروم هذا بالقبط يوم جلائهم الأبدى عن حصن بابليون ، وخروجهم منه إلى غير رجعة ، وكأنهم بذلك يصبّون جام غيظهم من العرب على القبط ، ويعدونهم والعرب سواسية فى العداء !

٣ — وهذا الموضوع يرشح لسبب آخر من أسباب خذلان الروم الشنيع فى مصر ، ذلك أنهم أحسوا منذ وصول العرب الفاتحين أنهم وحدهم أمامهم ، وأن لا أمل لهم فى عون أو مدد أو فى مسالمة من القبط فى هذا الظرف العصيب ، وبذلك حصروا أنفسهم بين جيش فاتح وشعب حاقد عليهم أشد من حقد الفاتحين أنفسهم !

وقد ثبت أن القبط كانوا كلما جلا الجيش الرومى من موقع من المواقع أو مدينة من المدن ، وضعوا أيديهم على المتخلفين منهم وقتلوهم .

توفيت وبيانه :

١ — تم فتح مصر فى ثلاثة أعوام ، ابتدأت فى السنة الثامن عشرة للهجرة ، وانتهت فى سنة ٢١ .

٢ — بنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط إثر رحيل الروم من الاسكندرية .

٣ — أعاد حفر خليج تراجان الموصل من مصر إلى البحر الأحمر لتنقل السفن المؤونة إلى الحجاز .

٤ — دخل فى الإسلام كثير من القبط والروم أنفسهم .

٥ — ذهب الدكتور « بتلر » صاحب كتاب فتح العرب لمصر إلى أن المقوقس بطريرك مصر الرومانى المدنى من قبل القسطنطينية أسلم سرا ، فقد جاء فى الصحفتين ٢٦٦ — ٢٦٧ من كتابه :

« وهذا يدل على أن الذين دخلوا فى الإسلام لم يكونوا كلهم من القبط ، فإن بعض من أسلم من كبراء القوم كانوا من الروم ، وإنا نكاد يداخلنا الشك فى أمر المقوقس وانه قد فعل ما فعل إذ كان يؤمن سرا بدين الإسلام » !

والرأى الذى ذهب إليه الدكتور « بتلر » جاء نتيجة

لما قرره بشدة فى كتابه من أن المقوقس خان بلاده بتسليم مصر إلى العرب من غير كبير قتال !

والذى نستطيع أن نقوله هو أن المقوقس كان من أول الأمر ذا علاقة طيبة بالإسلام ، وقد بدأها بإكرام الرسول الذى أرسله إليه النبي ﷺ فى السنة السادسة من الهجرة ليدعوه إلى الإسلام ، وإرسال هدية فاخرة إلى صاحب الرسالة من بينها ثلاث جوار ، إحداهن مارية القبطية أم إبراهيم بن النبي عليه الصلاة والسلام .

٦ — مات المقوقس أثناء المهلة التى كانت محددة لجلاء الروم عن الاسكندرية .

٧ — أراد عمرو بن العاص أن يتخذ الإسكندرية عاصمة لمصر كما كانت على عهد الروم ، ولكن عمر بن الخطاب لم يرتح إلى هذا الرأى خوفا على المسلمين من الغزو البحرى ، الذى كان يتوقعه من الروم .

٨ — أقر عمرو بن العاص بعض حكام الروم الذين أسلموا على المدن التى كانوا يحكمونها فى عهد الروم .

٩ — ذكرنا فيما مضى أن القبط تعرضوا لاضطهاد فظيع من قبل الروم لحملهم على ترك مذهبهم الدينى ، واتباع المذهب

الرومى ، وكان للقبط رئيس دينى عظيم اسمه بنيامين فرّ بدينه حين علم أن الروم له بالمرصاد ، وظل مختفياً عشر سنين حتى زالت دولة الروم وجاءت دولة العرب فحكى قصتَه أحدُ القبط لعمرو بن العاص ، واقترح عليه أن يؤمّنه ، فسارع عمرو إلى قبول هذا الاقتراح ، وأصدر المنشور الآتى :

« أينما كان بطريق القبط بنيامين ، نعده الحماية والأمان وعهد الله ، فليأت البطريق إلى هاهنا فى أمان واطمئنان ليلىَ أمر ديانته ويرعى أهل ملته » .

وما كاد بنيامين يسمع بهذا الأمان حتى خرج من مخبئه ، وجاء إلى عمرو فأحسن استقباله وجعله أميرا على قومه ، وجعل له ولاية أمر دينهم !

وقد فرح القبط بذلك فرحا شديدا . وعدوا يوم رجوع بنيامين إليهم من أعيادهم الكبرى !

فتح برقة وطرابلس :

أسرع عمرو بن العاص إثر استقرار الأمور بمصر إلى برقة ففتحها من غير عناء ، وفرض على اهلها الجزية ، ثم سار إلى طرابلس وكانت مدينة محصنة وبها جيش كبير من الروم. وظل

الحصار قائماً بضعة اسابيع ، إلى ان عرف القائد العربى الفطن أن المدينة غير محصنة من جهة البحر. فأرسل جماعة من المجاهدين اشتبكت مع الروم بين أسوار المدينة والبحر ، وتغلبت عليهم فسارع المدافعون عن المدينة إلى الفرار ونزلوا إلى المراكب ليهربوا ، ولما راى الحراس مافعله الجيش هربوا بدورهم فدخل عمرو بجيشه المدينة من غير كبير عناء !

وبعد أن اقر النظام بطرابلس عاد إلى مصر .

ثورة الإسكندرية :

ظل عمرو بن العاص واليا على مصر طوال خلافة عمر ابن الخطاب وصدرا من خلافة عثمان بن عفان ، يقدره بعض المؤرخين بثلاث سنين أو أربع ، وحدث فى سنة ٢٥من الهجرة أن رأى بقيةالروم[1] بالاسكندرية أن حاميتها العربية قليلة العدد، إذ كانت ألف رجل ، فكتبوا إلى ملك الروم بذلك وزينوا له غزو مصر ومنّوه الأباطيل ، وكان لا يزال يحس ألم الطعنة التى تلقاها بخروج مصر من ملكه ، فجهز أسطولا ضخما قوامه

---

[1] (١) سمح العرب لكثير من الروم غير المحاربين بالبقاء فى الإسكندرية بعد فتحها .

ثلثمائة سفينة مملوءة بالجنود والذخائر ، وسيره إلى الإسكندرية ، فلم تستطع الحامية الصغيرة بالمدينة أن تقاومه طويلا ، وعلى ذلك تم استيلاء القائد الرومى «منويل» على الإسكندرية .

وكان عمرو بن العاص بالحجاز . فلما بلغه الأمر عاد إلى مصر سريعا ، وأقام بالفسطاط يعد العدة لملاقاة الروم .

أما الجيش الرومى فإنه بعد الاستيلاء على الإسكندرية بطش بالأهلين من القبط بطشا شديداً،وجردهم من أموالهم وأملاكهم ثم سار فيهم هذه السيرة عند مغادرته الاسكندرية إلى الريف فى طريقه إلى الفسطاط .

وكان هناك رأيان لدى العرب : أولهما أن يسير عمرو إلى الروم ، وثانيهما أن ينتظر حتى يسيروا إليه وقد آثر الرأى الثانى وإن كان قد لام نفسه فيما بعد ، لأنه لم يكن يقدر نكاية الروم بالقبط على النحو الذى فعلوه .

وبعد أن أتم عمرو استعداده خرج بجيشه لملاقاة الروم ، فوافقهم عند مدينة نقيوس[1] والتقى الجيشان فى معركة شديدة ، انتهت بهزيمة الروم هزيمة منكرة. وقد سارعت فلولهم إلى الاسكندرية فتحصنت بها .

---

(١) تقدم وصف موقع مدينة نقيوس فى هذه الترجمة .

نصر من الله :

ومن الوقائع العظيمة التي حدثت فى هذه المعركة وعجلت بهزيمة الروم أن بطلا ضخما من ابطالهم، برز بين الصفين،وطلب المبارزة ، فلبي نداءه مجاهد عربى من أهل اليمن اسمه حومل ، وكان ضامر الجسم خفيف الوزن ، فأخذ يصاول العلج ويجاوله ثم التحم به فرفعه العلج من فوق سرجه ، فانتهز انشغاله بذلك واستل خنجرا كان فى منطقته وطعنه فى عنقه طعنة مميتة فخر صريعا ، وكبر المسلمون إثر ذلك وحملوا على الروم حملة صادقة فولوا الأدبار .

وسار عمرو إلى الإسكندرية حتى بلغها ، فوجد أسوارها منيعة فأسف لأنه لم يهدمها من قبل ، وحلف لئن كتب له النصر ليهدمنها حتى يسويها بالأرض[1] ، ثم ضرب الحصار على المدينة ، وفتحها بعد ذلك عَنوة بواسطة معاونة بعض أهلها ممن كانوا يكرهون الروم ويحبون العرب ، فلما دخلها أعمل السيف فى الروم حتى أفناهم ، ولم تنج منهم إلا فلولٍ ضئيلة ركبت البحر وسارعت عائدة إلى بلادها .

---

(١) بر عمرو بيمينه بعد النصر

وقد عوض عمرو بن العاص القبط مما أصابهم من كيد الروم، وخاصة أنهم كانوا عونا كبيرا له أثناء رحلته من الفسطاط إلى الاسكندرية ، فكانوا يقيمون الجسور ويمدون الجيش بالطعام والأخبار .

عزل عمرو عن مصر :

بعد أن انتهت ثورة الإسكندرية ، واستتب الأمر من جديد فى مصر للعرب، عزل عثمان بن عفان عمرا عن مصر وولى عليها عبدالله بن سعد بن أبى سرح .

وقد عاد عمرو واليا على مصر مرة أخرى فى عهد معاوية ابن أبى سفيان ، وظل واليا عليها حتى مات سنة ثلاث واربعين هجرية ، وله من العمر حوالى تسعون عاما .



خالد بن الوليد

سيف الله

كانت قريش فى الجاهلية توزع الوظائف العامة بها من اجتماعية وسياسية وحربية على بطونها ، وكانت وظيفة القبة والأعنة [1] فى بنى مخزوم ، ويليها خالد بن الوليد وراثة عن أبيه الوليد بن المغيرة ، وقد اقتضته هذه الوظيفة ان يتمرس بفنون الحرب ، ويتدرب على أساليبها ، حتى يستطيع القيام بالمهمة التى عهد إليه بها على أكمل وجه واتمه ، ثم اعانه استعداده الفطرى للقيام بدور المحارب ، بل القائد على التبريز فى وظيفته ، ولولا ذلك لما كان للوظيفة فى ذاتها شأن يذكر ، ولما كان هناك مجال لظهور الأعمال الحربية العجيبة التى لاتصدر إلا عن عبقرية نادرة ونبوغ عظيم .

ومما يزكى موهبة العبقرية الحربية فى خالد ان البيئة القومية التى نشأ فيها ، وهى بيئة قريش ، لم تكن حربية ، فقد كانت قريش قليلة الحروب إذ كان العرب فى الجاهلية

(١) القبة : خيمة تضرب ويجمع فيها كل ما يجهز به الجيش من زاد وعتاد ، والأعنة : هى قيادة الفرسان فى الجيش .

يجلّونها ويعظمونها لقيامها على البيت الحرام ، واستقبالها إياهم بالسّقاية والرّفادة [1] أثناء نزولهم عليها فى موسم الحج .

وآخر حرب شهدتها قريشٌ قبل الإسلام هى حرب الفِجَار الرابع [2] ، وقد شهدها النبيُّ ﷺ وكانت سنّه خمسَ عشرةَ سنة ، وكان ينبّل [3] على أعمامه ، وكان خالد بن الوليد لمَّا يولد أو هو على التحقيق فى سنىّ طفولته الأولى !

وعلى ذلك يُعدّ كل ما بَهَر به خالد عالَمَ زمانه بل العالم كله حتى اليوم ـ من خطط حربية بارعة ، وأعمال عسكرية فائقة ـ من وحىِ عبقريته الخاصة ، ونِتاج فكره المتوهج بالذكاء والإشراق !

---

(١) السقاية : الموضع يتخذ لسقى الناس ، والرفادة ، ما كانت قريش تخرجه من أموالها وتعين به المنقطعين من الحجاج .

(٢) سميت هذه الحرب بالفجار لأن العرب فجروا إذ أقاموها فى شهر من الأشهر الحرم .

(٣) فسّر ابن إسحاق هذا التعبير بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرد على أعمامه نبل عدوهم إذا رموهم بها .

إسلام خالد :

أسلم خالد فى السنة الثامنة من الهجرة ، وقد أسلم بعد اقتناع فقد شاهد أمر الإسلام يشتدّ وينتشر ، وأمر قريشٍ ينكمش وينحسر ، وكان النبيُّ ﷺ أثناء عُمْرة القضاء فى العام السابع الهجرى .

قال للوليد بن الوليد شقيق خالد : « أين خالد » ؟

فقال الوليد : يأتى الله به !

فقال الرسولُ الكريم : « ما مثل خالد من جَهِل الإسلام ، ولو كان جعل نكايتَه وجِدَّه مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ولقدّمناه على غيره » .

فكتب الوليد إلى أخيه بما تحدث به الرسول الكريم فى شأنه ، وختم كتابه بقوله : فاستدرك يا أخى ما فاتك ، فقد فاتتك مواطن صالحة !

وقد كان لهذا الكتاب وقع عظيم فى نفس خالد . فقضى على البقية الباقية من تردده ، واستقر عزمه على الإسلام !

الهجرة :

وخرج خالد من مكة مهاجرا إلى المدينة ، ومعه عثمان بن طلحة

احد وجهاء بنى عبد الدار ، فلما كانا بالطريق العام لقيهما عمرو بن العاص ، فسألهما إلى أين ؟ فقال خالد : لقد وضح الأمر ، وإن محمداً لنبيّ :

فقال عمرو : لقد اتفقنا . فما جئت إلا لأسلم !

وسار الثلاثة حتى بلغوا ضاحيةَ المدينة ، فنزلوا ليصلحوا من أمرهم ، وعلم ـ بقدومهم ليسلموا ـ أهلُ المدينة ، ففرح النبيّ ﷺ بهم ، وركض الوليدُ يرحّب بأخيه خالد ومن معه ، ويقول لهم عجّلوا فإن الرسول ﷺ ينتظركم .

قال خالد : فأسرعنا المشى حتى أبصرت رسول الله ﷺ ينظر إلىّ مبتسما ، وما زال كذلك حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فردّ علىّ السلام بوجه طَلْق ، فقلت : أشهد ان لا إله إلا الله وانك رسول الله .

فقال :

« الحمد لله الذى هداك ، لقد كنت أرى لك عقلا رجوتُ أن لا يُسلمَك إلا إلى خير » .

فقال خالد : يارسول الله ، ادع الله أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك . فقال :

« الإسلام يجب [1] ما كان قبله » .

ثم تقدم عمرو بن العاص وطلحة فأسلما .

ذو الخلق العظيم :

وكان النبي ﷺ فى ذروة المثل العليا فى كل شىء وخاصة فيما يتعلق بسياسة أصحابه ، وكان من ابرز خصائص هذه السياسة إهمال تاريخهم العدائى للإسلام حتى كأنه لم يكن ، وقد كان خالدُ حين طلب إلى الرسول الكريم أن يدعو الله ليغفرَ له المواطنَ التى شهدها على الإسلام يحس ثقلا كبيراً على ضميره بما كان منه ، ولا سيما فى واقعة أحد ، فقد كان أشد قريش نكاية بالمسلمين ، ولكن النبي ﷺ طيب خاطره بأن الإسلام يقطع سلسلة الحوادث ، ويبتدىء سلسلة جديدة لا صلة لها بما قبلها ، وهكذا لم تمض بضعة أشهر على إسلام خالد حتى سماه النبي ﷺ : سيف الله .

سيف الله :

فى السنة السادسة من الهجرة أرسل النبي ﷺ الحارث

---

(١) يجب : يقطع .

ابن عمير الأزدى بكتاب إلى امير بصرى يدعوه فيه إلى الإسلام، فلما بلغ قرية مؤته (١) قابله شرحبيل بن عمرو الغسانى أحدُ أمراء قيصر على عرب الشام، ولما علم بمهمته قتله. ولم يُقتل رسولٌ للنبي قبله فحزن لمقتله حزنا شديدا!

وبعد سنتين من هذا الحادث جهز النبي ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مجاهد لتأديب الغسانى الغادر وقومه، وجعل على رأسه زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب فإن قتل، فعبد الله بن رُواحة، وكان خالد بن الوليد احد أجناد هذا الجيش.

ولما وصل الجيش إلى مؤتة وجد العرب المتنصرة وهى المجاورة للشام، قد نذروا به فتجمعوا للقائه، وراسلوا ملك الروم، فبعث إليهم جيشاً ضخما، وتآزر الفريقان على قتال المسلمين.

مشاورة:

أما المسلمون فقد هالتهم كثرة العدو، فتشاوروا: هل يناجزونه أو يطاولونه ويرسلوا إلى النبي ﷺ يستشيروه

(١) قرية على مشارف الشام.

ويطلبوا إليه أن يمدهم بجيش آخر ، وقد تغلب الرأى الأول فناجزوا العدو ، ولم يكن هناك أى تكافؤ فى العدد أو فى الظروف ، إذ كانت نسبة عددهم إليه واحدا إلى عشرين على الأقل ، وكان العدو ببلاده تصله الأمداد كل ساعة ، ومن أجل ذلك قتل الأمراء الثلاثة واحدا إثر واحد .

ودفع المسلمون اللواء إلى ثابت بن أقرم الأنصارى فأخذه وأعطاه إلى خالد بن الوليد[1] ، فقال خالد :

لا آخذه ، أنت أحق به ، لك سن ، وقد شهدت بدرا .

قال ثابت : خذه أيها الرجل فأنت أعلم بالحرب منّى ، والله ما أخذته إلا لك ، ثم قال للناس : هل اصطلحتم على خالد ؟ قالوا : نعم !

خالد يرفع اللواء :

فأخذ خالد اللواء وحارب حربا لم يحارب مثلها فى حياته حتى اندقت فى يده تسعة أسياف[2] !

(١) تقدم هذا الوصف فى ترجمة زيد بن حارثة ولكن سياق الترجمة لخالد اقتضى إعادته ملخصا .

(٢) قال خالد بن الوليد يتحدث عن هذه الواقعة فيما بعد : لقد اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ولم تصبر معي إلا صفيحة يمانية (أى سيف يمنى).

ومكث خالد سبعة أيام يحارب الروم ومن معهم من المتنصرة وهو فى كل يوم يعيد تعبئة الجيش على نظام جديد يوهم الروم أنه تلقى إمدادا جديدة ، ويتراجع به إلى الصحراء فى نظام ليظن العدو أنه يستدرجه إلى حربها، حتى انصرف الروم ومن معهم، وعاد خالد ببقية الجيش إلى المدينة ، ولولا ما بذله من براعة وشجاعة لما عاد احد سالما .

سيف الله :

وقد أخبر النبي ﷺ أصحابه بما حدث ، فقال ، وعيناه تذرفان الدموع : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبدالله بن رَوَاحة فأصيب، ثم أخذ الراية خالدُ بن الوليد . نعم عبد الله واخو العشيرة وسيف من سيوف الله ، سلّه الله على الكفار والمنافقين ، من غير إمرة حتى فتح الله عليهم » .

أرسل النبي ﷺ خالدا فى حياته الشريفة رئيسا على بعض السرايا وداعية إلى اليمن ، وكان أحد اصحاب السرايات فى فتح مكة وهادما لصنم العزى أحد أصنام العرب المقدسة فهدمها وهو ينشد :

يا عزّ كفرانَك اليوم لا سبحانَك
إنى رايتُ اللهَ قد اهَانك

موقفه يوم حنين :

وكان على مقدمة الجيش يوم حنين فثبت حين كانت الجولة الأولى على المسلمين ، وقاتل قتالا شديدا وأصيب ببعض جراحات نافذة ، فلما انتصر المسلمون ، ذهب إلى رَحْله واستند إليه متألما من جراحه !

ولما بلغ النبيّ ﷺ بلاؤه وجراحُه ، سار فى الجيش وهو يقول : « من يدلّنى على رحل خالد » ، فلما بلغه ألفاه على الحال التي ذكرناها آنفا فَنَفَثَ على جراحه فأبراه الله منها على الفور ، ونهض سليما معافى !

بطل حروب الردة :

لما تُوفى رسول الله ﷺ ، ارتدّ معظم العرب ومنعوا الزكاة ، وتألّبوا على المسلمين ، وغزت جماعات منهم ضواحىَ المدينة ، وادّعى النبوة طُليحة الأسدى ، ومُسَيْلمة الكذاب ، وسَجاح التميمية ، والأسود العنسى ، واضطربت الجزيرة العربية

بالفتن والشقاق ، واشتد الأمر على المسلمين حتى اقترح عمر ابن الخطاب على ابى بكر أن يُصانعَ ما نعى الزكاة حتى يفرُغَ إلى المتنبئين والمرتدين ثم يعودَ إليهم ، ولكن أبا بكر غضب لله غضبا شديدا ، وأبى إلا أن يقاتل الجميع ، وقال قولتَه المعروفة ، وهى أنهم لو منعوه عِقالا كانوا يعطونه للنبى ﷺ لحاربهم عليه !

ونظر أبو بكر فيمن حوله من المسلمين فاصطفى منهم احدَ عشرَ رجلاً عقد لكل منهم لواء ، وسيره إلى جهة من جهات الفتنة .

وكان أظهر أصحاب الألوية والرجل الذى القى ابو بكر عليه الثقل الأكبر لهذه الفتنة ، وجعل تعويله عليه فى إخماد اكثر نواحيها اضطراما هو خالد بن الوليد ، فقد كلفه القيام بأمر الكذابين طُليْحة ومُسيلِمةِ .

طليحة بن خويلد الأسدى :

أسلم طُليحة بن خُوَيلد الأسدى فى وفد من قومه ، ولكنه ارتدّ وادعى النبوة قبيل وفاة النبى ﷺ . فالتفت حوله قبيلته بنو أسد ، وشايعه عُيَينة بن حِصْن الفَزَارى رئيس غطفان،

وكان رجلا ضعيف العقل فاسدَ التدبير ، أسلم وارتدّ أكثر من مرة ، فلما انشأ طُليحة كِذْبته الكبرى فادعى النبوة انحاز إليه كراهيةً للإسلام ، وتعاسة على قريش أن تذهب بمجد العرب فى الجاهلية والإسلام وحدها ، وقال : والله لإن نتبع نبيا من خلفائنا[1] خير من أن نتبع نبيًّا من قريش، وقد مات محمد وبقى طليحة !

وسارع إلى طليحة آخرون ممن يركبهم الطمع فى مثل هذه الأحوال ، وغيرهم ممنّ ينعتون بأنهم أتباع كل ناعق حتى كثر سواده ، وانتشر أمره ، فلما عقد الخليفة اللواء لخالد أمره ان يبدأ به ، لأن بنى أسد وبنى غطفان ومن لف لفهما كانوا ينزلون قريبا من المدينة . وكان عُيينة بن حصن قد حاول غزوها فعلا !

موقعة بزاخة[2] :

سار خالد إلى حيث اجتمع جيش طليحة ببزاخة ، وكان من بركات الله أن قبيلة طيء انضمت إليه ، وأعانته بعدد كبير من

---

(١) كان بين غطفان وأسد حلف فى الجاهلية .

(٢) اسم موضع فى بنى أسد .

مجاهديها ، وكذلك انضم إليه كثير من المؤمنين الصادقين الذين ثبتوا على إسلامهم من القبائل الأخرى .

وهاجم جيش خالد بنى اسد وحلفاءها هجوما شديدا . وكان طليحة مُتَلَفِّفاً فى كِساء له بفناء بيت من شَعَر له ينتظر الوحى ، بينما رحا المعركة تطحن قومه طحنا !

طليحة ينتظر الوحى :

فلما عضّت الحرب بنابها بنى فَزَارة سارع رئيسها عُيَيْنَة إلى طليحة فقال : هل جاءك جبريل بعد ؟! قال : لا ! فرجع إلى المعركة ، فلما حمى وطيسها كرّ على طُليحة ، فقال : هل جاءك جبريل لا ابا لك ؟! فقال : لا ! . قال : حتى متى ! قد والله بلغ منا ؟

ثم رجع إلى المعركة فقاتل إلى ان راى الخذلان فى قومه وبشائر النصر تلوح على جيش المسلمين ، فركض إلى طليحة ، فقال : هل جاءك جبريل ؟ قال : نعم ! قال : فماذا قال لك ؟ قال : إن لك رحاً كرحاه ، وحديثاً لا تنساه !

فقال عيينة متهكما : أظن ان قد علم الله أن سيكون حديث لا تنساه ! . يا بنى فَزَارة . هكذا فانصرفوا ، فهذا الرجل

والله كذاب ، ثم لوى عنان جواده وفرّ هاربا .

فلما انصرف عُيينة بقومه ، ذهب بنو أسد إلى طُلَيحة ، يقولون : ماذا تأمرنا ؟ وكان طليحة قد أعدّ فرسا له وبعيرا لامرأته ، فركب الفرس وأجلس المرأة على البعير . وقال :

من استطاع منكم أن يصنعَ هكذا فليفعلْ ، وانهزم جمعه على الأثر وتمكن منهم المسلمون .

ووقع عُيينة بن حصن فى يد المسلمين ، فأوثقه خالد وأرسله إلى ابى بكر . فجعل غلمان المدينة ينخسونه بالجريد ويقولون : أىْ عدوّ الله ، أكفرت بعد إيمانك ؟

فيقول : والله ما كنت آمنت بالله قط ؟

وهذا الرجل هو الذى وصفه النبىّ ﷺ بأنه الأحمق المطاع ، وقد قبل أبو بكر إسلامه ، وأطلق سراحه .

أما طُلَيحة . فقد عاد إلى الإسلام واختبأ طوال حياة أبى بكر فى بنى كلب فلما استُخلف عمر التحق بالمجاهدين فى فارس ، وأبلى فى المعارك بلاء حسنا ، وجاهد الفرس جهادا عظيما وقتل فى معركة نهاوند شهيدا .

ولما فرّ طلُيحة عاودَ بنو أسد الإسلام ، فقبل خالد منهم

ذلك ، إذ لم يكن أحب إليه وإلى الخليفة من أن يعود العرب إلى دينهم القويم !

وكتب خالد إلى أبى بكر بالفتح فردّ عليه يقول :

« ليزدك ما أنعم الله به عليك خيرا ، واتق الله فى أمرك فإن الله مع الذين اتّقوا والذين هم مُحسنون ، جد فى أمر الله ولا تنيَنّ ، ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به غيره » !

خالد فى مالك :

كان مالك بن نويرة أحد زعماء بنى تميم ، وكان ممن جال فى الفتنة ومنع الزكاة ، وصانع سجاح ، ولكنه حين جلت سجاح عن بلاده وانتصر خالد بن الوليد على طليحة ومن معه ارعوى ففرق جيشه ، وقال يحدّث قومه : يا بنى يربوع ، إنا كنا قد عصينا أمراءنا ، إذ دعونا إلى هذا الدين وبطأنا الناس عنه فلم نفلح ولم ننجح ، وإنى قد نظرت فى هذا الأمر فوجدته يتأتى لهم بغير سياسة ، فإياكم ومناوأة قوم صُنِع لهم فتفرقوا إلى دياركم وأدخلوا فى هذا الأمر .

وجاء خالد بجيشه إلى البطَاح (اسم ماء لبنى يربوع)

وهو موطن مالك فلم يجد به احدا ، فارسل سرايا لتغزو أحياء بني يربوع قوم مالك ، وأمرها ألا تبطش إلا بمن لا أذان لهم . وجاءت إحدى هذه السرايا بمالك بن نويرة وجماعة معه ، واختلف أفرادها فى مالك وصحبه ، فقوم يقولون إنهم سمعوا آذاناً ، وآخرون ينكرون ، فأمر خالد بحبسهم ، وكان الوقت شتاء ، والليلة باردة جدا ، فأمر منادياً فنادى : أدفئوا أسراكم ! وكانت هذه الكلمة فى لغة كنانة تعنى : اقتلوهم ! فقتلوهم . وسمع خالد الضجيج ، فخرج وقد فرغوا منهم . وسأل عن سبب قتلهم فذكروا التأويل الذى أسلفناه . فقال : إذا أراد الله امرا أصابه !

وكان من الممكن أن يمرّ هذا الحادث على علاته من غير حرج شديد لخالد ، لولا أنه خطب امرأة مالك ليتزوجها ، فجعل من نفسه غرضا لقالة السوء بهذا السبب . وكان أشد الناس تحاملاً عليه عمر بن الخطاب ، فطلب من ابى بكر عزله ، فأبى ! وقال : لا يا عمر !. ما كنت لأشيم[1] سيفاً سلّه الله على الكافرين ، هل لكم عليه اكثر من أنه اجتهد فأخطأ ؟ !

ثم أرسل أبو بكر إلى خالد : ان اقدم علىّ ، فقدم وادلى

(١) أشيم : أغمد .

بحجته فصدقه وعذره ، ولكنة عنّفه فى مسألة التزويج ، وأمره بالعودة إلى مكانه من الجيش .

إلى مسيلمة الكذاب :

بعد أن انتهى ابو بكر من النظر فى مسألة مالك ابن نويرة مع خالد ، أمره بالتوجه إلى كذاب بنى حنيفة ، وضمّ إليه المهاجرين والأنصار ، وكتب إلى بعض أمراء الأجناد أن يلحقوا به حتى يتعاونوا جميعا على التخلص من ذلك الكذاب الأشر .

وكذاب اليمامة اسمه مُسَيلمة بن ثمامة بن كبير من بنى حنيفة وكان من المعمّرين ، حتى لقد كان يقال إنه كان معروفا قبل ولادة عبد الله بن عبد المطلب والد النبى ﷺ ، وقدر عمره حين قتل بمائة وخمسين سنة . وكان يسمى نفسه الرحمن .

وجاء مُسيلمة مع وفد بنى حنيفة إلى النبى ﷺ فأسلم ، وكان بيد الرسول الكريم عَسِيب[1] من سعف النخل ، فسأله مسلمية أن يجعلَ له الأمر من بعده فأبى عليه ذلك ، وقال : « لو سألتنى هذا العَسِيب ما أعطيتكه » .

---

(١) العسيب : جريدة النخل .

ولما رجع مُسَيْلمة إلى موطنه ارتد ، وادعى النبوة وجاء قومَه بسجع مثل سجع الكهان ، وأخذ يأتيهم بأمور من الشعوذة ، فالتفوا حوله طمعا ان يكون لهم مجد كمجد قريش . وقد زادهم افتتانا بصاحبهم أن رجلا منهم اسمه الرّحّال ابن عُنْفُوة ، كان قد أسلم وتفقه فى الدين ، فأغواه مُسيلمة حتى شهد له أن محمدا ﷺ أشركه فى الأمر ، فنزلت هذه الشهادة على قلوبهم بردا وسلاما .

وكان مسيلمة يعتزّ بهذه الشهادة الكاذبة ، إذ كان يوهم البسطاء بها أنه نبيّ مرسل بشهادة محمد نفسه ولذلك كان ينادى فى اذانه أن محمدا رسول الله ، وأن مسيلمة رسول الله ، ويقول : « لقريش نصف الأرض ولبنى حنيفة نصفها » .

ولما مات النبى ﷺ وارتدت الجزيرة العربية وظهر مُسيلمة ، والتفت حوله بنو حنيفة ، وانحاز إليه كثير من شُذّاذ الأعراب حتى أصبح فى أكثر من أربعين ألف مقاتل . وكانت بلاد بنى حنيفة محصنة ذات منعة شديدة ، وهم أنفسهم أهل قتال وشراسة ، وأولو بأس شديد . ومن أجل ذلك يقول المؤرخون جميعاً إن المسلمين لم يقاتلوا قبل موقعة اليمامة قتالا

أعنف ، ولا قابلوا اناسا أشرس ممـا امتحنوا به من ذلك فى هذه المعركة .

ويـكفى للتدليل على صحة ما نقول : إن عدد الصحابة الذين استشهدوا فى هذه الواقعة ١٢٠٠ شهيد ، منهم أكثر من ٣٠٠ من المهاجرين والأنصار .

وكانت المعركة من العنف إلى حد أن بنى حنيفة أزاحت فى إحدى كراتها المسلمين عن أماكنهم واكتسحوا سرادق خالد ابن الوليد نفسه . فبرز خالد بين الصفين ، وانتحى ، وطلب المبارزة ، ولم يبرز إليه أحد إلا قتله ، ولـكنه كان يريد مسيلمة فناداه باسمه وحوله فرسان أشداء يحيطون به من كل جانب ، وأراد خالد أن يستدرجه ليصيب منه غفلة ، فيقتله ، ومن اجل ذلك أوهمه أنه يريد التفاهم معه على المناصفة التى اختارها بينه وبين قريش فقال له : إن قبلنا النصف فأى الأنصاف تعطينا ؟ وأخذ مسيلمة يفـكر فانتهزها خالد وهجم عليه ، ولـكنه ولى مدبرا ، وكان وحشى[1] الحبشى (قاتل حمزة بن عبد المطلب

(١) أسلم وحشى وقبل النبى صلى الله عليه وسلم إسلامه وطلب إليه أن لايساكنه فى بلد . ثم التحق بالمجاهدين ولما قتل مسيلمة قال أرجو أن تـكون هذه بتلك .

فى واقعة أحد) له بالمرصاد فرماه بحربته المشهورة فنفذت فى بطنه ، وضربه أحد الأنصار بسيفه فاجهز عليه ؟.

رجل فدائى شجاع :

وتراجعت بنو حنيفة فدخلت حديقة ذات سور منيع ، فقال البَـرَاء بن مالك الأنصارى : أيها المسلمون ، احملونى على الجدار حتى تطرحونى عليه ، فأبوا أن يلقوا به إلى التهلكة فأقسم عليهم ففعلوا ـ وكان فارسا عظيما ـ فلما نزل فى الحديقة قاتل المشركين حتى زحزحهم عن الباب وفتحه ودخل المسلمون على الأثر ، واشتد القتال وحمى الوطيس ، وتخاذل بنو حنيفة إثر سماعهم بمقتل مسيلمة فانهزموا هزيمة شنعاء ، وبلغ قتلاهم فى هذه المعركة أكثر من عشرين ألف قتيل[1] .

خدعة أريب :

قبيل موقعة اليمامة أسرت خيل لخالد مُجَّاعة بن مرارة سيد بنى حنيفة ومعه اربعون رجلا ، فأمر خالد بضرب اعناقهم فقال له آخر رجل قُدِّم ليُضرب عنقهُ : أيها الرجل إن

---

(١) الطبرى ، الجزء الثانى ، ص : ٥١٦ .

كنت تريد بهذه القرية (يقصد قرية بنى حنيفة) خيراً أو شراً فاستبق هذا الرجل (أى مُجّاعة) ، فاستبقاه خالد مكتوفا فى سرادقه .

فلما هزمت بنو حنيفة قصدت فُلولُهم إلى الحصن فتحصنوا به ، فقال مُجّاعة لخالد : هلم أصالحك على قومى ، فأملى خالد عليه شروط الصلح وهى الاستيلاء على الأموال كلها من ذهب وفضة والسلاح ، وسبى نصف مافى الحصن . فقال مُجّاعة : أذهب فأفاوضهم فأذن له خالد بذلك .

وذهب مُجّاعة وهو يعلم أن ليس بالحصن عدد يذكر من المقاتلين ، فأمر النساء بلبس الحديد ووضع المغافر[1] على رؤوسهن ، وأمرهن أن يتراءين للمسلمين من بعد . فنظر خالد ومن معه إلى خلق عظيم مجلل بالحديد فهالهم ذلك .

ورجع مُجّاعة فقال إن القوم لم يرضوا بالشروط التى عرضتها . ولكن إن شئت قبلت ربع السبى فقط . فقبل خالد نظرا لما كانت عليه حال المسلمين من الإجهاد وما أثخنوا به من الجراحات .

---

(١) جمع مغفر ، وهو غطاء الرأس الحديدى فى الحرب .

ولما أبْـرِمتْ شروط الصلح فتح مُـجـّاعة الحصن ، ودخله المسلمون فلم يجدوا به عددا يذكر من المحاربين وعلموا بالحيلة التي دخلت عليهم ، فقال خالد لمُـجّاعة : ويحك . خدعتنى ! .. فقال : قومى . ولم أستطع إلا ماصنعت ! ..

وأمضى خالد الصلح وأغضى عن فعلة مجاعة وحملها على بر الرجل بقومه .

خالد فى العراق :

اقام خالد باليمامة زمناً يُـجِـمّ جيشه ويرسل سراياه إلى القبائل المجاورة تتعهدها وتأخذ صدقاتها ، وفى اوائل السنة الثانية عشرة من الهجرة أرسل إليه أبو بكر يؤمّـره على من بالعراق من رؤساء الأجناد ، ويطلب إليه أن يدخلها من أسفلها قريبا من المكان التى بنيت عليه البصرة فيما بعد . فأرسل خالد إلى أولئك الرؤساء أن يوافوه فى زمان عيّـنه بالمكان الذى حدده الخليفة ، ثم دلف إلى العراق ومعه ألفان من الجند بعد أن ارفضّ عنه من لم يرد أن يصحبه فى وجهته الجديدة ، كما تقدم إليه أبو بكر فى هذا الأمر ، وقال له ولِـعياض بن غَـنْـم أحد

أمراء الأجناد — واذنا لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحا بمنكاره » .

وأخذ خالد يضم إليه المجاهدين منذ مسيره من اليمامة إلى العراق فحشر منهم معه ثمانية آلاف ، وبذلك أصبح جيشه عشرة آلاف مجاهد ، ولما قدم إليه أمراء الأجناد الأربعة الذين كانوا قبله بالعراق أصبح عدد الجيش كله ثمانية عشر ألفاً !

واقعة كاظمة :

ولما علم الفرس بمقدم خالد وجيشه إلى العراق . وجهوا إليه قائداً خبيثاً اسمه هرمز ، وكان معروفا عند العرب أنه أشد الفرس عداوة لهم ، وأقبحهم جوارا حتى ضربوا به المثل فقالوا : أخبث من هرمز !

وكان اللقاء بكاظمة وقد سبق هرمز العرب إليها ، ونزل على الماء ، فلما جاء خالد ، وعرف ذلك لم يباله ، وقال : انزلوا ثم جالدوهم على الماء فلعمرى ليصيرن الماء إلى أصبر الفريقين وأكرم الجندين !

مؤامرة على خالد :

وعبأ هرمز جيشه ، وقرن الجنود بالسلاسل لكيلا يفر

احدهم : كل عشرة فى سلسلة واحدة وجعل الفيل على المقدمة ، ثم انفتقت طبيعته الخبيثة عن مكيدة غادرة دبرها لخالد ، فاتفق مع كوكبة من خيرة فرسانه على أنه سيبارز خالدا فإذا التحم معه بادرت هذه الكوكبة إليه فقتلته !

وخرج هرمز بين الصفين فطلب خالدا إلى المبارزة — وكان هذا الأمر أشهى الأمور إلى خالد وأحبها عنده — فخرج إليه مبادرا وجاءه بما لم يحتسبه ذلك أنه التحم به وحضنه وشرع يقتله ، وفى هذه اللحظة هجمت الكوكبة المُعدّة للغدر على خالد ورأى القَعْقَاع بن عمرو احد فرسان العرب الأمجاد غدر الفرس ، وخروجهم على قوانين القتال ، فهجم ومعه نفر من أصحابه ، ليواجهوا جماعة الفرس ، ولكن خالدا كان فى شغل عن هذا كله فلم يترك هرمزا حتى قتله قبل أن يصل إليه الغادرون !

وعلى إثر ذلك هجم خالد والجيش العربى على الفرس هجمة صادقة ، فهزموهم شر هزيمة ، وكان قتلهم بالجملة بسبب قيدهم بالسلاسل واستحالة الفرار عليهم فقد كانت السلسلة الواحدة تزن حمل بعير !

نصر سامي :

يقول المؤرخ الكبير الإمام محمد بن جعفر الطبرى : « ان خالدا لقى أول ما لقى من الفرس بالكواظم ، ثم نزل الفرات فلم يلق كيدا وتبجبج[1] بشاطىء دجلة ، ولم يلق بعد هرمز احدا إلا كانت الواقعة الآخرة أعظم من التى قبلها » .

قابل قائد الفرس الكبير قارن بالمذار فهزم جيشه وقتله ، وبلغ عدد القتلى من الفرس فى هذه الواقعة ثلاثين ألفا غير من غرق ، ولم يفلت من الجيش إلا عراة وأشباه العراة !

وقابل القائد الفارسى « الأندر زعز » بالولجة ، ونصب له كمينين داهما الفرس اثناء المعركة فانهزموا ، ومضى قائدهم هائما على وجهه حتى مات عطشا ؟

وقابل جيش جابان باليّس ، وكانوا قد نصبوا الموائد ، فلما رأوا العرب استهانوا بهم ، وتظاهروا بأن ليس لهم من الشأن ما يعجلهم عن تناول طعامهم . وقالوا نأكل اولا ثم نقاتلهم بعد . فهجم عليهم خالد بجيشه ، وحارب الفرس ، والحقد يملأ صدورهم على العرب ، ولكن الله نصر العرب

(١) تبجبج بالمكان : تمكن منه .

عليهم ، فقتلوا منهم عشرات الألوف ، ثم اكلوا طعامهم بعد أن فرغوا من قتالهم .

وسار خالد يفتتح سواد العراق ويهزم كل جيش يلقاه ، وحاصر الحيرة حتى افتتحها ، ومازال هذا شأنه حتى استخلص للعرب سواد العراق كله الواقع شرق الفرات .

خالد يحج سرا :

وحدث إثر واقعة الفراض ، وقد قتل فيها من الفرس مائة ألف،أن أمر الجيش بالمسير إلى الحيرة ، واوهم جنوده انه سائر خلفهم ، ثم خرج حاجا وتعسف الطرق وسابق الزمن حتى حج ورجع فلحق بمؤخرة الجيش قبل أن تبلغ الحيرة .

وقد علم ابو بكر بحج خالد فعتب عليه لتركه الجيش بغير إذنه ، وكتب إليه يأمره بالمسير إلى الشام لنجدة جيوش المسلمين باليرموك ويقول له :

«وإياك أن تعودَ لمثل ما فعلت ، فإنه لم يُشجِ[1] الجموعَ من الناس بعون الله شجيُك ، ولم ينزع الشَّجِي من الناس نزعك،

(١) شجاه : حزنه وطرّبه كأشجاه ، فهما ضد ، وأشجاه : قهره وغلبه ، والشجو : الحاجة (القاموس المحيط) .

فليُهنك ابا سليمان النيّة والحظوة ، فاتمْم يتمم الله لك ، ولا يدخلك عُجب فتخذل ، وإياك أن تُدِلّ بعمل فإن الله له المنّ وهو ولى الجزاء .

خالد فى الشام :

كان أبو بكر الصديق شديد الإعجاب بخالد بن الوليد حسن الرأى جدا فى كفايته الحربية ، ومن أجل ذلك عهد إليه ـ كما قدمنا ـ بحرب الكذابين طليحة ومسيلمة ، وسيره بعد فراغه منهما إلى العراق ، فكسب كل المعارك التى خاضها ، وهزم كل القواد الذين قابلهم ، وقتل أكثرهم ، وهرب سائرُهم ، وأرسل المغانم إلى المدينة حتى بهرها بكثرتها ونَفَاستها ! وقال ابو بكر مبتهجا ومباهيا بخالد :

يامعشر قريش،عدا أسدُكم على الأسد فغلبه على خراذيله(١) أعقمت النساء أن يلدن مثل خالد !

ولما ارسل امراء الأجناد بالشام إلى أبى بكر يخبرونه بتجمع جيوش الروم عليهم باليرموك ، ويذكرون كثرة عددهم

(١) خرذل اللحم : قطع أعضاءه ، وخرذل : لغة فى خردل (القاموس المحيط) والأسد الثانى فى كلام أبى بكر : كناية عن فارس .

ويطلبون أن يرسل الأمداد إليهم ، قال : والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

ثم كتب إلى خالد يأمره بالسير إلى الشام لنجدة جيوشها ـ على نحو ما أسلفنا من ذلك ـ فاستخلف خالد المثنى بن حارثة الشيبانى على العراق ، وأخذ معه نصف الجيش ، واخترق الصحراء الفاصلة بين العراق والشام فى خمس ليال ، فحقق بذلك ما يشبه المعجزة ، وجاء بعمل حربى لا نظير له فى التاريخ ، ولما بلغ الشام أخذ يفتح البلاد التى يمر عليها عنوة أو صلحا ، وكانت شهرته الحربية قد سبقته إلى تلك البلاد ، فلم يكن يلقى مقاومة تذكر .

قائد معركة اليرموك :

ولما بلغ اليرموك وهو مكان تجمع جيوش المسلمين والروم ، درس الموقف ، فلم يرتح إلى حال المسلمين ، ذلك أنه ألفى كلَّ أميرٍ مستقلاً برياسة جيشه ، ووجد الروم جيشا واحدا يقوده رجل واحد ، فأهمه ذلك . وقال يخاطب أمراء الأجناد وهم أبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان :

« إن هذا يوم من ايام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم،فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة على تساند[1] وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى ، وإن من وراءكم[2] لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الراى من واليكم ومحبته !

قالوا : فهات ، فما الرأى ؟ .

قال : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر ، ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم ، إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله ! فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان[3] لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه إن دانوا له ، هلموا فإن هؤلاء

---

(١) على تساند وانتشار . التساند هنا معناه : أن كل أمير من أمراء الأجناد كان مستقلا عن غيره فى إدارة جيشه ، وخالد هنا يدعو الى توحيد القيادة .

(٢) يقصد بهذه العبارة الخليفة أبا بكر .

(٣) يشير خالد بهذه العبارة إلى أن كل أمير كان معينا على جهة من جهات الشام .

وقد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردّهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها .

فهلموا فلنتعاور[1] الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غدا ، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعونى اليكم اليوم . . . فأمرّوه .

وبادر خالد فعبأ جيش المسلمين تعبئة لم ير العرب مثلها لا فى الإسلام ولا فى الجاهلية ، ذلك أنه عمد إلى تقسيم الجيش كراديس[2] كل كردوس ألف رجل وجعل على كل واحد منها رجلاً شديد البأس ، بارع الرأى فى أمر الحرب .

وكان عدد جيش المسلمين فى أكثر تقدير ٤٠ ألفا ، بينما كان عدد جيش الروم يزيد على مائتى ألف .

وهنا موضع نكتة طريفة تلك هى : ان رجلا من المسلمين قال : ما أكثر الروم وأقلّ المسلمين ! فسمعه خالد ، فقال : « ما اقلّ الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر

---

(١) فلنتعاور : فلنتبادل .

(٢) كراديس : كردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة (القاموس المحيط) .

وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال . . . والله لوددت أن الأشقر براء من توجيه[1] ، وأنهم أضعفوا فى العدد » .

مفاجأة عجيبة :

وبينما المسلمون والروم متصافون للقتال ، وقد أخذ بعض الفرسان من الجانبين فى الطراد ، إذ قدم البريد من المدينة فأحاط الناس بحامله وسألوه ما الخبر فقال. خيراً. أمداد تجيئكم ، ثم ذهب إلى خالد وأسرّ إليه موتَ أبى بكر واستخلاف عمر. فأخذ خالد الكتاب ولم يفتحه بل جعله فى كنانته[2] ذلك أنه خشى أن يحدث تخاذلٌ فى صفوف الناس إذا علموا بموت الخليفة .

قائد فارسى يسلم فى الميدان :

وخرج جرجة أحد أبطال الروم وقوادهم بين الصفين ، وطلب مبارزة خالد بن الوليد فسارع خالد إليه وأقام أبا عبيدة مكانه ، فلما دنا منه قال جرجة : هل لك أن يؤمن أحدنا الآخر حتى أسألك وتجيبنى عن بعض الأمور ؟ فوافق خالد على هذا الاقتراح .

---

(١) الأشقر : اسم فرس خالد ، وتوجيه : تعبه من الإجهاد .

(٢) الكنانة : جعبة السهام

فقال جرجة : يا خالد أصدقنى ولا تكذبنى فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع ، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟

قال خالد : لا !

قال جرجة : فبم سميت سيف الله ؟

قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا فنفرنا عنه ، ونأينا عنه جميعا ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه فكنتُ فيمن كذبه وباعده وقاتله . ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به ، فتابعناه ، فقال : أنت سيفٌ من سيوف الله سله على المشركين ودعا لى بالنصر ، فسميتُ سيف الله بذلك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين !

قال جرجة : صدقتنى ، فأخبرنى إلام تدعونى ؟

قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله وان محمدا عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله .

قال جرجة : فمن لم يجبكم ؟

قال : فالجزية ونمنعهم !

قال : فإن لم يعطها ؟ !

قال : نؤذنه بحرب ثم نقاتله !

قال جرجة : فما منزلة الذى يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم ؟!

قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا . وأولنا وآخرنا !

قال جرجة - وقد قلب ترسه ومال مع خالد - : علمنى الإسلام فأخذه خالد إلى فسطاطه ، وأمر له بماء ليتطهر به ثم لقنه الشهادتين ، وخرج يقاتل الروم مع خالد حتى استشهد فى ذلك اليوم .

انتصر المسلمون على الروم فى واقعة اليرموك انتصارا ساحقا ، وأبادوهم إبادة كاملة ، حتى قدر المؤرخون قتلى الروم بمائة وخمسين ، وبعد النصر سلم خالد أبا عبيدة بن الجراح كتاب عمر وحدث بينهما ما ذكرناه قبلا فى سيرة أبى عبيدة .

جندى بسيط :

استأنف خالد الجهاد فى جيش أبى عبيدة جنديا بسيطا ، وقد تقدمت بعض وقائعه أثناء ترجمة أبى عبيدة ، وكيف كان يجله ويحترمه ويستعين به فلا حاجة إلى تكرارها .

ولما مات ابو عبيدة انضم خالد إلى المجاهدين فى جيش عياض

ابن غنم بالشام فلما مات عياض انعزل بحمص فاقام بها حتى توفاه الله .

وقال خالد وهو يحتضر : لقيت كذا وكذا زحفا وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم وها أنا ذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت العير[1] . فلا نامت أعين الجبناء ! ثم قال :

« وما من عملى شىء أرجى عندى بعد التوحيد من ليلة بتها وأنا متترس ، والسماء تهلنى ننتظر الصبح حتى نغير على الكفار . إذا أنا مت فانظروا إلى سلاحى وترسى فاجعلوه عدة فى سبيل الله .

استقبل عمر قوما من الحجاج فقال : ممن القوم ؟ قالوا من اليمن ممن نزل حمص ويوم رحلنا منها مات خالد بن الوليد . فاسترجع عمر مرارا ، ونكس رأسه ، وأكثر الترحم عليه . وقال :

كان والله شداداً لنحر العدو ميمون النقيبة .

فقال على بن أبى طالب : فلم عزلته ؟

قال : لبذله المال لأهل الشرف وذوى اللسان !

---

(١) العير : الحمار .

قال : فكنت عزلته عن المال وتتركه على الجند !

قال : لم يكن ليرضى !

قال : فهلا بلوته ؟ فسكت عمر !

ولما جاء خبر موت خالد المدينة امتنع نساء بنى مخروم عن بكائه خوفا من عمر . فقال :

ما على آل الوليد أن يسفحن على خالد من دموعهن مالم يكن نقعا أو لقلقة [1] .

مات خالد سنة ٢١ هجرية .

بين عمر وخالد :

أكثر الكاتبون من الكلام على ما كان بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد من تباعد . ولعل القراء ، قد أحسوا ما يشبه العتاب الشديد فى عبارات على بن أبى طالب التىأوردناها آنفا ، بشأن عزل عمر خالدا عن قيادة الجيش ، وأدركوا من سكوت عمر عنه ما يمكن أن يوصف بأنه كان يتمنى أنه لم يقدم على ما أقدم عليه من ذلك .

وقد وردت على لسان عمر عبارات أخر تنم عن هذه الأمنية ،

(١) النقع : رفع التراب على الرءوس ، واللقلقة : الصراخ .

مثل قوله يعقب على تدبير حربى عظيم اقدم عليه خالد بعد عزله : « رحم الله أبا بكر كان أعلم بالرجال منى » ، ومثل أسفه ، حين تبين بعد موت خالد أنه مات فقيرا ، على اتهامه بجمع المال أو سوء تدبيره ، ولكن كل هذا لا ينفى أنه كان هناك تضارب بين طبيعتى هذين الرجلين العظيمين ، فلو لم يعزل عمر خالدا عن قيادة الجيوش للأسباب التى ارتكن إليها فى ذلك ، لعزله لأسباب أخرى ، يمليها عليه تعارض الطوابع واختلاف النوازع .

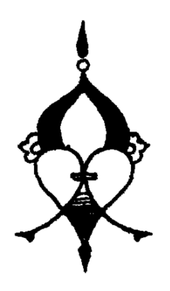
كان عمر حاكما عادلا مستبدا برأيه متعصبا لوسائله وكان قد اعتنق رأيا فى خالد أيام أبى بكر ، فلما واتته الفرصة أمضاه .

ولم تكن سياسة عمر مع خالد وقفا عليه خاصة ، بل عمت جميع كبراء الصحابة وأصحاب الجاه منهم ، فإذا استثنينا عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف فإنا لا نجد واحدا من وجوه الصحابة سلم من الاحتكاك بطبيعة عمر أو نجا من دِرّته . على أن هذا الاستثناء الذى أنشأناه ليس تاما فى الواقع ، إذ لو كان كذلك، وكانت ثقة عمر بهذين الصحابيين الجليلين كاملة لاستخلف أحدهما ، أما وأنه لم يفعل بل جعل الأمر دائرا بين ستة من الصحابة فقد حق ما قررناه !

ومهما يكن من شىء فإن عمر كان يصدر فى كل ما يحكمه

من امر او ينقضه من تدبير عن نية صادقة ، وتنزه لا يرقى إليه الشك . وحكمة بالغة ، إن خفيت أسرارها على بعض الناس لقنها آخرون ، وإن تأخر اليوم عن إظهار مزاياها تكفل الغد بذلك ما فى ذلك شك ولا ريب . ولعل ما تمخضت عنه السنون التى تلت حكمه من فتن هوجاء كان أعظم تبرير لسياسته بشأن إعفاء كبار الصحابة و نظرائهم من قواد الجيوش من ولاية وظائف الدولة المهمة أو مداومة البقاء بها زمنا طويلا !

رحم الله عمر وخالدا لقد كان كل واحد منهما فى بابه آية من آيات الله الكبرى . ومفخرة للعرب والإسلام على مر الأزمان وتعاقب الدهور .



أسامة بن زيد
حِب الرسول

أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وابن مولاه ، وهما الاثنين كانا من محبة الرسول الكريم وعطفه فى الذّروة العليا ، حتى أطلق على كل واحدٍ منهما حبّ رسول الله ، وقد تقدم فى ترجمة أبيه ما يشبع هذه المسألة بيانا وتفصيلا !

وكان الرسول الكريم دائبَ الذّكر لمقتل زيد بن حارثة فى غزوة مؤته ، شديد الحرص على الإدالة(١) ممن قتلوه ، ومن أجل ذلك اعتزم تسيير جيش لتحقيق هذا الغرض ، وكان هذا الجيش آخر تدبير حربىّ له قبل وفاته .

غزو الروم :

ففى اخريات صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة ـ وذلك قبل وفاة الرسول الكريم بأسبوعين تقريبا ـ امر المسلمين بالتهيؤ لغزو الروم وألف جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، ودعا

---

(١) بمعنى أخذ الثأر

أسامة بن زيد وعقد له لواء هذا الجيش ، وكانت سنه حوالى عشرين عاما ، وقال له :

«سر إلى موضع قتل أبيك[1] فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش . فاغزُ صباحا أهل أبنى ، وأسرع السير لتسبق الأخبار . فإن أظفرك الله عليهم فأقل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء ، وقدّم العيون والطلائع معك » .

وكان هذا التوجيه يوم الاثنين ، فلما كان يوم الأربعاء بدأ بالرسول ﷺ مرضه فحمّ وصدع ، ولكنه فى صبيحة يوم الخميس تحامل على نفسه فخرج وسلم اللواء بيده إلى أسامة وقال له : أغزبا سم الله . وفى سبيل الله . وقاتل من كفر بالله » .

فخرج أسامة بالجيش وفيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وأضرابهم من الصحابة وعسكر خارج المدينة .

عتاب :

وتكلم الناس ، فقالوا يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين والأنصار ، فبلغ النبي ﷺ مقالهم فغضب غضباً شديداً،

(١) قتل زيد بن حارثة فى قرية مؤتة وهى على مشارف الشام .

وخرج وقد عصب على راسه عصابة وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد ايها الناس . فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة . ولئن طعنتم فى تأميرى أسامة لقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبله . وأيم الله إن كان لخليقاً بالإمارة ، وإن ابنه من بعده لخليق بالإمارة . وإن كان لمن احب الناس إلىّ ، وإنهما مظنة لكل خير . فاستوصوا به خيرا فإنه من خياركم » .

ثم نزل الرسول الكريم فدخل بيته ، وجاء المسلمون من رجال جيش أسامة ليودعوه . ثم ثقل عليه المرض فجعل يقول : « أرسلوا جيش أسامة » واستثنى منه أبا بكر ليصلى بالناس .

وداع ودعاء :

فلما كان يوم الأحد الموافق الحادى عشر من ربيع الأول دخل أسامة على النبى ﷺ ليودعه ـ وكان المرض قد اشتد عليه ـ فطأطأ أسامة رأسه فقبله وهو لايستطيع الكلام ، فجعل ﷺ يرفع يديه إلى السماء ، ثم يضعهما على أسامة ،. وفهم أسامة أنه يدعو له بالخير .

وفاة الرسول الكريم:

وفى يوم الاثنين الموافق الثانى عشر من ربيع الأول أمر أسامة الجيش بالرحيل فأرسلت إليه أمه أم أيمن حاضنة النبي ﷺ تقول : لاترحل فإن النبي يموت فأقبل ومعه عمر وأبو عبيدة إلى منزل الرسول الكريم ، وماهى إلا ساعات حتى لحق بالرفيق الأعلى ، فرجع رجال الجيش إلى المدينة ، ورجع بريدة حامل اللواء إلى منزل الرسول فغرز اللواء بفنائه .

ولما شاع موت الرسول ﷺ بين العرب ، انتقض العرب ، فكفر كثيرون ، وتوسط آخرون الأمر فقالوا: نقبل الإسلام ونأبى الزكاة واستفحل أمر الكذابين من مدعى النبوة. وتجمهر الأعراب فى أماكن شتى منها ماهو قريب من المدينة معتزمين غزوها . وصار المسلمون الثابتون على عقيدتهم مثل الغنم فى الليلة الشاتية .

محاولات

وتحت تأثير هذه الامتحانات الشديدة تحدث بعض كبار الصحابة إلى أبى بكر فى امر جيش اسامة ، وقالوا : كيف يتوجه هذا الجيش إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة ؟

فغضب غضبا شديدا وقال : والله لأن تخطفنى الطير أحبّ إلى من أن أردّ جيشاً وجّهه رسول الله ﷺ أو أحل لواء عقده .

سفارة عمر :

ومن جهة أخرى كان أسامة نفسه متحرجا من المضى فى مهمته فى مثل هذه الأحوال فقال لعمر : ارجع إلى الخليفة فاستأذنه أن اعود بالناس ، فإن معى وجوه الصحابة ولا آمن عليه وعلى المسلمين أن يتخطفهم المشركون . وقالت الأنصار المصاحبون للجيش لعمر : فإن أبى الخليفة العدول عن رأيه فأبلغه منا السلام واطلب إليه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة .

وجاء عمر إلى أبى بكر فأنهى إليه رسالة أسامة فأبى،فذكر له ماقاله الأنصار فاشتد غضبه وأمسك بلحية عمر ، وقال :

«ثكلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب ، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أنزعه ؟ ! »

فخرج عمر إلى الناس ثائرا وقال : «ثكلتكم أمهاتكم مالقيت اليوم بسببكم من خليفة رسول الله خيرا ! »

ورأى ابو بكر أن يستاذن أسامة فى استبقاء عمر معه ليعاونه على أمره ففعل .

الجيش يتحرك :

وفى أول شهر ربيع الآخر تحرك جيش أسامة وجاء أبو بكر يودعه وأسامة راكب وأبو بكر راجل وعبد الرحمن ابن عوف يقود راحلة أبى بكر . فقال أسامة : ياخليفة رسول الله إما أن تركب وإما أن أنزل . فقال والله لست بنازل ولست براكب ، ثم أوصاه فقال :

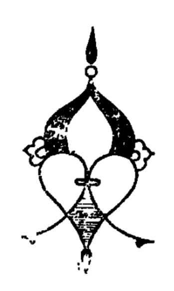
أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك .

وسار أسامة بالجيش حتى بلغ منازل قبيلة أبنى وهم القوم الذين قتلوا أباه ـ فأغار عليهم وهزمهم شر هزيمة وقتل قاتل أبيه وأسر منهم خلقا كثيرا وملأ يديه من المغانم ثم عاد إلى المدينة سريعا ، وقدم بين يديه بشيرا إلى أبى بكر يخبره أن الجيش قد أفلح فى مهمته ، وأنه فى الطريق إلى المدينة .

وقد استغرقت مهمة أسامة حوالى ستين يوما .

وقد حمد الناس فيما بعد لأبى بكر حسن تدبيره فى إرسال جيش أسامة إلى غرضه ، إذ كان لذلك من الأثر ماتجاوز المهمة

الأصلية بمراحل ، فقد ارعوى الأعراب الذين كانوا ينوون مهاجمة المدينة وقالوا : لو أن بالقوم قلة لما أخرجوا هذا الجيش الكبير من بين ظهرانيهم فى مثل ما هم فيه من الأحوال ، وثبت آخرون على الإسلام. وسارع بعض مانعى الزكاة إلى إرسالها إلى المدينة تحت تأثير منطق القوة ولم يكن له مظهر أقوى ولا أبرز من خروج هذا الجيش إلى مهمته .



المثنى بن حارثة الشيبانى

أسلم المثنى بن حارثة الشيبانى فى السنة التاسعة من الهجرة ، وكان أحد أفراد بنى شيبان الذين حضروا إلى المدينة وبايعوا النبى ﷺ .

أمرنى على قومى !

ولما استخلف أبو بكر قدم إليه المثنى وقال : يا خليفة رسول الله ، إن فى قومى إسلاما كثيرا فأمرنى عليهم حتى أجاهد أعداء الله من فارس ، وأكفيك ناحيتى ، فعقد له أبو بكر لواء على قومه ، وكانت منازل بنى شيبان فى حدود الصحراء مما يلى سواد العراق .

ورجع المثنى إلى قومه فجمعهم ودعاهم إلى الجهاد ، فاستجابوا له ، فأخذ يغير بهم على أطراف السواد وأسفل الفرات ، وهو فى كل غارة يروّع الفرس ويقتل بعضهم ويصيب مغنماً ، حتى أثار الاضطراب بين أهل السواد ، ونشر الرعب فى نفوسهم .

ولما ولى أبو بكر خالد بن الوليد حرب العراق ضم إليه المثنى بن حارثة ، وكتب إليه خالد يدعوه لمقابلته بالأبلة ،

وكتب بمثل هذا إلى سائر أمراء الجند الذين كانوا بالعراق .

مع خالد بن الوليد :

وأصبح المثنى منذ اجتماعه بخالد بمثابة ذراعه اليمنى فى جميع الأعمال الحربية : يقوم معه فى المعارك الكبرى ، وينتدبه خالد لينوب عنه فى أكثر المهام الحربية خطرا ، وأحوجها إلى الفطنة والدهاء ، ويجعله على مقدمة الجيش فى السفر ، ويركن إلى رأيه دائما وهو من هو فى الحرص والحذر !

وفى السنة الثالثة عشرة من الهجرة كتب أمراء الأجناد بالشام إلى أبى بكر يخبرونه بتجمع جيوش الروم فى اليرموك ، ويطلبون منه النجدة ، فأرسل إلى خالد يأمره بالمسير إلى الشام لنجدة المسلمين ، على أن يستخلف المثنى على من هناك من الجنود بالعراق .

واقعة بابل :

وعلم المثنى أن الفرس قد سيروا إليه جيشا ضخما بإمارة هرمز جاذويه ، ومع الجيش فيل ضخم قد درب على الحرب ، فخرج من الحيرة ، وضم إليه الكتائب التى كانت متفرقة فى الثغور والقرى .

وكتب شهر براز ملك الفرس الجديد إلى المثنى :

« من شهر براز إلى المثنى ، إنى قد بعثت إليك جندا من وحش أهل فارس ، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ، ولست أقاتلك إلا بهم ! »

فأجابه المثني :

« من المثنى إلى شهر براز ، إنما أنت أحد رجلين، إما باغ ، فذلك شر لك وخيرٌ لنا ، وإما كاذب ، فأعظم الكذابين عقوبة ، وفضيحة عند الله والناس والملوك . وأما الذى يدلنا عليه الرأى ، فإنكم إنما اضطررتم إليهم ، فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير !! »

ولما اطلعت بطانة كسرى على رد المثنى جزعوا من سقطته ، وقالوا له : جرَّأت عدونا علينا ، فإذا كتبت فى مثل هذا المقام فاستشر .

هزيمة الفرس :

والتقى المثنى بجيش هرمز جاذويه بعُدوَة الصراة الدنيا على الطريق الأول ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ورأى المثنى عظم نكاية الفيل بخيل المسلمين لشدة نفورها منه ، وما يترتب على

ذلك من خلل فى الصفوف ، وتفويت الفرص على المجاهدين ، فعمد مع جماعة اختارهم ، إلى الفيل فقلوه ، وعندئذ خسر الفرس عامل الكسب الذى كان بأيديهم وحمل المسلمون عليهم حملة صادقة فأزاحوهم عن أماكنهم وغلبوهم على أمرهم ، وهزموهم هزيمة شنعاء ، فولوا الأدبار ، وركب المسلمون أكتافهم يقتلونهم كيف يشاءون !

قرار خطير :

كان ابو بكر حين ارتدت العرب إثر وفاة النبي ﷺ قد اتخذ قرارا خطيرا جدًّا ، ألا وهو حرمان الذين عادوا إلى الإسلام بعد الردة من الجهاد فى سبيل الله ، ترفعاً عن الاستعانة بمن كفر بالله على جهاد أعدائه ، وكان عدد الذين ينطبق عليهم هذا القرار من سكان الجزيرة العربية يبلغ عشرات الألوف من الرجال ، وكان المثنى بن حارثة أحد من أحس مبلغ الخسارة التي تتعرض لها القوة العربية ما دام هذا القرار ساريا ، وبخاصة أن العرب قد افتتحوا ميادين حربية خارج جزيرتهم وهم يواجهون دولا غنية بالناس ، يزيد عدد الدولة منها كالفرس والروم على عدد سكان الجزيرة العربية أضعافا مضاعفة ،

فكيف يستقيم الأمر وأكثر من نصف العرب القادرين على حمل السلاح محروم من الجهاد ؟!

استولت هذه الفكرة على المثنى ، فسافر إلى المدينة يعرضها على أبي بكر ، وليستأذنه فى الاستعانة بمن قد ظهرت توبته من أهل الردة ، وليخبره أنه لم يخلف وراءه أحداً أنشط إلى قتال فارس وحربها منهم .

اسمع يا عمر !

وبلغ المثنى المدينة ، وأبو بكر فى مرض الموت ، فاستدعى عمر بن الخطاب وقال :

اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به ، إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فإن أنا مت فلا تُمسين حتى تندبُ الناس مع المثنى ، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس معه ، ولا يشغلنكم مصيبةٌ وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم ، وقد رأيتنى متوفىً رسول الله ﷺ ، وما صنعت ، ولم يصب الخلق بمثله !

وتوفى أبو بكر إثر ذلك ، وكان أول ما بدأ به عمر انه ندب الناس مع المثنى قبل صلاة الفجر من هذه الليلة نفسها .

يخطب الناس بالمدينة :

ولما أصبح جاء الناس يبايعونه فعاد إلى انتدابهم لجهاد فارس مع المثنّى ، وانتهز المثنّى هذه الفرصة فخطب الناس فقال: أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجد فإنا قد تبحبحنا[1] ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد ، وشاطرناهم ونلنا منهم ، واجترأ من قبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها .

أبو عبيدة بن مسعود :

وكان أول من استجاب لدعوة عمر أبو عبيدة بن مسعود الثقفى وتتابع الأنصار والمهاجرون وغيرُهم من العرب يلبون دعوة الجهاد . فعقد عمر اللواء عليهم لأبى عبيدة ، وجعل المثنى تابعاً له ، وأمره بالعودة إلى جيشه لينتظر أبا عبيدة .

نجاح المثنى فى مهمته :

وأخذ عمر برأى المثنى بن حارثة فى مسألة العائدين إلى الإسلام من المرتدين ، فأذن لهم بالجهاد ، وكان المجاهدون بالشام والعراق قد فازوا بإحدى الحسنيين : إما الشهادة

---

(١) تبحبح فى المكان : تمكن . القاموس المحيط .

وإما الثراء ، ومن اجل ذلك سارع التائبون إلى الجهاد، وأصبحوا مدداً كبيراً للجيوش العربية ، وسنداً عظيما لها !

موقعة النمارق :

قدم أبو عبيدة الحيرة بعد شهر من مقـدم المثنى ، وكان الفرس قد نشطوا من جديد فأرسلوا جيشاً كبيراً بقيادة جابان ، فخرج إليه أبو عبيدة والمثنى ، والتقى الجيشان بالنمارق ، فاقتتلوا قتالا شديداً انتهى بهزيمة الفرس وأسر جابان ، أسره عربى بسيط وأمنه على نفسه نظير فدية عرضها عليه جابان ، واشترط عليه أن يشهد على أمانه قائد الجيش العربى ، فلما جاء آسره به إلى أبى عبيدة عرفه بعض الحاضرين وقال : إنه قائد الفرس الأكبر فى هذه المعركة وصدقه كثير من الشهود ، ولكن أبا عبيدة أمضى أمان الجندى العربى ، وأبى أن يُخلّ به ، وقال : المسلمون فى التوادّ والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزمهم كلهم .

واشتبك أبو عبيدة مع الفرس فى وقائع أخرى وكان له النصر عليهم ، إلى أن جاءت معركة الجسر التى استشهد فيها وخبرها بالإيجاز هو :

معركة الجسر :

غضب الفرس لتتابع هزائم جيوشهم وفرار قوادهم ، فعمدوا إلى أشد رجالهم بأساً فجمعوهم فى جيش ضخم وأمروا عليهم أمهر قوادهم وأخبث رؤسائهم وهو بهمن جاذويه ، وعقدوا له لواء كسرى نفسه ، وزودوا جيشه بعدد كبير من الفيلة ، وسار الجيش الفارسى حتى بلغ الموضع الذى عسكر فيه أبو عبيدة على شاطىء الفرات الشرقى ، وأرسل إلى أبى عبيدء إما أن تعبر إلينا وأنت آمنٌ حتى يعبر الجيشُ كله وإما أن نعبر إليك على هذا الشرط ؟!

قضاء الله :

وأشار خاصة أبى عبيدة عليه ألاّ يعبر بالجيش وأن يدع الفرس يعبرون . ولكنه لأمر قضاه الله ، أصر على أن يعبر هو محتجاً بأنه لا ينبغى للفرس أن يكونوا أجرأ على الموت منا .

وعبر أبو عبيدة والجيش والتحموا فى معركة عنيفة مع الفرس ، لعبت فيها الفيلة دوراً خطيراً جدًّا ، ولما رأى أبو عبيدة ذلك سأل عن مقتل الفيلة ، فقيل له : مقتلها فى خرطومها ، فعمد إلى الفيل الكبير وضرب خرطومه بالسيف

فهجم عليه الفيل وضربه برجله ثم اتكأ بها عليه حتى فاضت روحه.

ووقع الخلل فى صفوف المسلمين إثر ذلك ، وتمكن الفرس منهم فاستشهد أربعة آلاف مجاهد ، وتمزق الجيش ، ولولا موقف المثنى وتضحيته العظمى لكانت المصيبة أضعاف ما حدث .

وبيان ذلك أن أحد المسلمين تصرف بجهالة إثر مقتل أبى عبيدة ، ذلك انه لما راى اختلال صفوف المسلمين عمد إلى الجسر فقطعه حتى لا يجتازوه إلى الشاطىء الآخر ، فقصد إليه المثنى وضربه وأعاد وضع الجسر ونادى فى المسلمين ايها الناس، أنا دونكم فاعبروا الجسر على هينتكم[1] ولا تدهشوا. فإنا لن نزايل مكاننا حتى نراكم قد عبرتم إلى الجانب الآخر .

وكان هذا التدبير الحازم الحكيم هو الذى حمى المسلمين من الإبادة الكاملة .

وأرسل المثنى بالخبر إلى عمر بن الخطاب فاشتد عليه الأمر وحزن لوفاة أبى عبيدة وقال : يرحم الله أبا عبيدة،لوكان انحاز إلى لكنت له فئة . يشير عمر بذلك إلى قوله تعالى :

« وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا

(١) على هينتكم : أى على مهل وطمأنينة .

إلى فِئَةٍ ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[1] » .

وفاة الله :

علم الفرس يوم معركة الجسر أن ثورة عارمة حدثت بالمدائن بسبب اختلاف الحكام على الرياسة ، فسارع القائد الأكبر بهمن ومن معه مرتدين إلى المدائن لينصر حزبه على الأحزاب الأخرى ، وكان هذا هو السبب الذى منع الفرس من عبور النهر واقتفاء أثر المسلمين .

قتل جابان :

وعلم المثنى أن جابان خرج فى عدد معه ليقطع طريق الرجعة على المسلمين . ولم يكن يعلم بارتداد بهمن إلى المدائن ، فخف إليه فى تجريدة خفيفة وفرق جمعه وأسره ، ثم أمر بضرب عنقه ، وهكذا لم تغن عنه الخديعة التى اصطنعها يوم النمارق ، وعهد القراء بها حديثا .

---

(١) سورة الأنفال ، آية ١٦ .

واقعة البويب :

على أثر واقعة الجسر كتب المثنى إلى جميع قواد الجيوش من المسلمين بفارس أن ينضموا إليه ، وضرب لهم موعدا موضع البويب فتلاقوا هناك ، وكان الفرس قد أجمعوا كلتهم على ملاحقة العرب وإخراجهم من ديارهم ، فألفوا جيشا كبيراً وجعلوا على رأسه القائد مهران فسار إليهم حتى حازاهم على شاطىء الفرات وقال لهم : إما أن تعبروا أو نعبر ، فأرسل إليه المثنى : اعبروا أنتم فعبروا واصطفوا ، ثم عبأ المثنى جيشه تعبئة قوية ، وكان الوقت شهر رمضان ، فأمر الجيش بالإفطار ليكونوا أقوى على عدوهم .

وطاف المثنى على الجيش يتفقد نظامه ويقف على الرايات راية راية ، يحضهم على الصبر ويهزهم بأحسن ما فيهم ، ويقول لكل صاحب راية : إننى لأرجو أن لايؤتى العرب من قبلكم، وأنصفهم فى القول والفعل ، وخلط الناس فى المكروه والمحبوب. ثم قال : إنى مكبر ثلاثاً فتهيئوا، ثم احملوا مع الرابعة . فلما كبر اول تكبيرة أعجلهم أهل فارس واشتبكوا فلم يكن هناك وقت للباقى .

عرب قبل كل شيء :

وكان بعض العرب من نصارى بنى تغلب و بنى النمر قد جاءوا ليشهدوا المعركة ، فلما حمى القتال قاتلوا مع إخوانهم العرب حمية وحفاظا ، وقال المثنى لأحدهم واسمه أنس بن هلال : ياأنس ، إنك امرؤ عربى وإن لم تكن على ديننا ، فإذا رأيتنى قد حملت على مهران فاحمل معى أنت ومن معك ، ثم حمل المثنى على مهران وهو فى قلب الجيش الفارسى فأزاله عن مكانته حتى خلط القلب بالميمنة ، وقتل فتى من التغلبيين النصارى الذين كانوا يحمون ظهر المثنى مهران قائد الفرس وصاح : قتلت مهران أنا الغلام التغلبي !..

وهزمت الفرس ومضت علي وجهها لاتلوى على شيء وأرادوا عبور الجسر فسبقهم المثنى إليه وقطعه فأخذت خيلهم تجول يمينا ويسارا والمسلمون فى إثرها يقتلون الفرس قتلا جماً حتى ملأت جثثهم أرض المعركة وماجاورها من فراغ . وقد قدرها المحصون بمائة ألف قتيل .

وفاة المثنى :

على أثر تعيين يزدجرد بن كسرى ملكا على الفرس التفت

فارس كلها حوله ، وطالبته أن يخلصها من العرب فنشط لذلك وعمد إلى تجييش الجيوش واختيار القواد الأكفاء ، وأرسل إلى أهل السواد يأمرهم بالانتقاض على العرب واستئناف ولائهم له فسارعوا إلى تلبية ندائه ، وعلى ذلك اضطربت البلاد وتحرج مركز المسلمين . فكتب المثنى بذلك إلى عمر بن الخطاب وطلب رأيه ورده وجاءه رد عمر مشيرا بالانسحاب من داخل السواد والمقام على حدود الصحراء فى انتظار النجدة التى سيرسلها إليه.

وكان ماسبق أن عرفه القراء فى أول هذا الكتاب فى ترجمة سعد بن أبى وقاص من تعيينه أميرا على الجند بالعراق .

ولم يستطع المثنى الحضور إلى سعد ، إذ أنه كان يشكو من جراحه التى أصيب بها فى معركة الجسر . وقد مات متأثرا بها عقب ذلك .

وكان المثنى أشبه الناس بخالد بن الوليد فى اكتمال ملكة الحرب عنده ، وتمتعه بأفضل مزاياها من الشجاعة وسرعة الخاطر ، وحدة الذكاء ، وانتهاز الفرص ، ومباغتة العدو ، والاستهانة بالحياة ، وطلب الاستشهاد فى سبيل الله ، ولم يلق ربه إلا بعد أن دوى اسمه فى فارس وأصبح مثار فزع فيها ومصدر اضطراب لها . رحمه الله وأرضاه .

المكتبة الثقافية

٩

أعلام الصحابة

أولو الرأى

محمد خالد

وزارة
الثقافة والإرشاد القومى
الاقليم الجنوبى
الإدارة العامة للثقافة

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا العظيم : محمد بن عبد الله وعلى آل بيته الكرام وصحابته العظام ، وعلينا وعلى جميع المسلمين إلى يوم الدين .

أما بعد : فإن من أسمى مراتب الثقافة العربية وأعظمها شأناً ونفعاً دراسة المبرّزين من رجال الصحابة ، وعرض جوانب موجهة من سيرهم وأعمالهم لتكون ماثلة أمام جمهور الأمة العربية فى زماننا هذا ، يرى فيها بكثرة وعِظَم، ما يحاول أن يجده نادرا فى القراءات الأجنبية من سمو روحى وهدى فكرى وكمال إنسانى ؛ فقد كان صحابة الرسول العربى الأمين من الطراز الأول فى ذلك كله ؛ ويزيدون عليه بما ازدانوا به من بساطة وتواضع وجنوح دائم إلى الأخذ بأسلوب الفطرة ، والبعد عن التكلف والتعقيد .

لقد تخرج هؤلاء الأعلام الأجلاء فى المدرسة الفكرية

العظيمة التى أنشأها الرسول الكريم ، وجعل أصول الفكر الإسلامى مادتها ، ومذاهب الرأى المحمدى عنصرها ، وتعهد بنفسه تلاميذها ، وعنى بهم جميعاً على وجه عام ثم التفت إلى كل واحد منهم على حدة ينمى مواهبه الخاصة ، ويذكى استعداده الذاتى ، حتى أصبح كل واحد منهم رأساً فى مذهبه وعلماً على اتجاهه ، ثم أصبحوا جميعاً من بعده معلمى هذه الأمة وأساتذتها الفضلاء ، فنقلوا إليها تعاليم الرسول العظيم ، ونشروا آراءه ، ولم يكتفوا بذلك بل ضربوا لها الأمثال الجيدة بأعمالهم وسيرهم فى الحياة ، فما شئت أن تراه من مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ، وصور السمو الذاتى والإعراض عن زهرة الحياة الدنيا ، والاستمساك بأهداب المثل العليا فإنك تجده شائعاً فيهم غالباً عليهم .

وسيظهر القراء أثناء استمتاعهم بفصول هذه الدراسة ، على أسلوب التعليم والتثقيف الذى كان الرسول العظيم يسلكه فى سبيل تخريج تلاميذه الأمجاد ، وكيف كان رائده فى ذلك الحب والعطف والإيحاء وضرب المثل بنفسه على الزهد فى الدنيا ، والتجرد من جميع مظاهر التعالى ، وإيثار معالى الأمور ، والتنزه عن سفاسفها .

ولا غرو أن يكون هذا شأن الرسول مع أصحابه إذ كان هو الرسول الأعظم الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه والذى وصفه فى كتابه الكريم أكرم وصف وأجله فقال : « وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »[1].

ولاَ عَجَبَ أن يكون الصحابة على ما أسلفنا من سمو ذاتى وعلوّ خلق، وهم يعاصرون النبوة قوية مشرقة ، والهدى الإنسانى فى أكمل صوره ، يتنزل به الوحى صباح مساء ، والرسول الكريم يتولى توجيههم بعناية المعلم الحكيم ورفق الوالد الرحيم .

وقد عُنى الكتَّاب فى القديم والحديث بدراسة أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فألف الأقدمون من العلماء موسوعات ضخمة فى تراجمهم ، ولكنهم صرفوا عُظم عنايتهم فى تحقيق الصحبة ، وحجتهم المقبولة جداً فى ذلك أن الصحابة هم رواة الأحاديث النبوية وهى مناط التشريع ومصدر الفقه والأحكام ، فمن الحكمة البالغة إثبات معاصرتهم للرسول الكريم واجتماعهم به ليصح ما نقلوه عنه ، أما التواريخ الخاصة بهم فقد أجملوها ووقفوا عند رءوس موضوعاتها ، وقد تكفل رجال التاريخ بإبراز هذه الناحية ، وتوسعوا فيها ما شاءوا .

(١) سورة القلم الآية الرابعة .

أما الكتاب المعاصرون فإنهم أفردوا كبار الصحابة بدراسات خاصة انتظمت إلى ذكر الوقائع ،تحليلا لها وتعليقاعليها ولكنهم — كما أسلفنا — وقفوا عند المشهورين كالخلفاء الراشدين ومن إليهم من كبار القادة وأصحاب الفتوحات ، وتركوا من عدا أولئك وهؤلاء مع أن من بينهم أفراداً مبرّزين فى نواحى الفكر ومذاهب الرأى .

وقد أردنا أن نقوم بمحاولة - نرجو أن يصاحبها التوفيق - فى هذا الموضوع فأوردنا فى هذه الرسالة تراجم لطائفة من الصحابة تجمع بين المشهورين ومن كان من حقهم أن يشهروا ، ناظرين فى ذلك إلى طبيعة هذه السلسلة الثقافية التى تصدرها إدارة الثقافة بوزارة الثقافة والإرشاد تحت عنوان « المكتبة الثقافية » من التيسير والإيجاز فى إيراد الأفكار وعرض الآراء .

وتجمع التعاريف التى أنشأناها لرجال الرأى من الصحابة بين عنصرين : عنصر النصوص ، وعنصر الرأى والتعليق . فأما العنصر الأول فقد نقلناه بأمانة عن مظانّه من كتب السنة والسيرة والتاريخ ، وعمدنا إلى إثبات المصدر الذى نقلنا عنه حين تكون فى النص غرابة أو تَبِعة تقتضى الإسناد .

وأما العنصر الثانى ، وهو عنصر الرأى والتعليق فإنه من باب

الاجتهاد الخاص ، لا تقليد فيه ولا اقتباس ، إنما هو وليد قراءة مستفيضة واستقراء للحوادث واستنتاج منطق يتسم بحسن الظن ،والتجرد من الهوى والبعد عن التعصب .

وقد حرصت هذه الرسالة كذلك على أمرين : أولهما الأخذ بمنتهى الحيطة ، والحـــذر عندما يتصل الكلام فى ترجمة أحد الصحابة بموضوع الفتنة التى نشبت آخر خلافة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين واستمرت فى خلافة على بن أبى طالب إلى أن اجتمعت كلمة المسلمين فى عهد معاوية بن أبى سفيان .

وقد اخترنا هذا المذهب تمشياً مع مبدأ أهل السنة الذى يقول بإحسان الظن بجميع رجال الصحابة إذكانوا كلهم مجتهدين، رائدهم صالح الدين وخير الجماعة ، والمجتهد يخطئ ويصيب ، وهو مأجور فى كلتا الحالين .

وأما الأمر الثانى الذى حرصنا عليه فهو قصر الأحاديث النبوية التى رويناها للمترجم لهم على ماكان خاصا بالنواحى الخلقية والاجتماعية ، وترك الأحاديث الخاصة بالتشريع ، لعدم ملاءمة المقام لها ، وتوقياً مما قد تحدثه من جدل ليس هذا مكانه .

وتعرض هذه الرسالة لألوان من الفكر مختلفة ، واتجاهات للرأى منوعة ، يذهب بعضها مذهب السياسة ، ومثله الخلفاء

الراشدون الأربعة، ومعاوية بن أبي سفيان.

ويتجه بعضها اتجاه العلم ومثله معاذ بن جبل، وعبد الله ابن مسعود، وأبو هريرة.

وينحى طرف منها منحى الذكاء والدهاء ومثله عمرو ابن العاص، والمغيرة بن شعبة، وعدى بن حاتم الطائى.

ويؤثر أحد جوانبها عرض صور للرجولية الكاملة، والفدائية المطلقة، ومثله السعدان: سعد بن عبادة رئيس الخزرج، وسعد بن معاذ رئيس الأوس.

وهناك لون خاص من الفكر الإسلامى مثله الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى، وتفرد به حتى أصبح علما عليه، ولم يكن له شريك فيه. وهذا اللون قريب جدا من التفكير المعاصر الذى يعبر عنه بالاشتراكية، وقد سبق به أبو ذر جميع المفكرين، وأخلص له، ولم تأخذه فى نشره لومة لائم، ولا أسكتته عن الجهر به غضبة ذى سلطان.

هذا ما أردنا التقدم به أمام هذه الرسالة والله ولى التوفيق.

الصحفى: محمد خالد

أبو بكر الصديق

لحكمة سامية يعلمها الله عز وجل ، ولأمر جلل كانت المشيئة الإلهية قد قضت به فى الأزل ـ نشأت قبل النبوة رابطة وثيقة من المودة بين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى وعبد الله بن أبى قحافة أبى بكر الصديق ـ القرشى ثم التيمى . فكانا صديقين متلازمين ، وصاحبين لا يفترقان إلا لضرورة من عمل أو سفر .

وكان أبو بكر فى الجاهلية يعمل فى التجارة على غرار معظم أهل مكة إذ كانت التجارة مهنتهم الغالبة ، ولكنه كان يتفوق على كثير من أهل مهنته بالصدق والأمانة ودماثة الخلق وصفاء النفس ، وغير ذلك من الصفات الطيبة التى تلاقت فى شخصه ، وكونت منه رجلا عظيما وإنسانا كريما .

وقد بلغ من كرامته على قريش أنها عهدت إليه بأمر من أمورها الجليلة وهو ولاية الحمالات أو الديات ، وكان من حديث هذه الولاية أن العرب قد مضوا فى عاداتهم الحميدة متعاونين على أداء ديات قتلاهم، عملا على حفظ السلام ودفع الحروب ، فكان الرجل الذى لزمه دم يلجأ إلى قومه ليعاونوه على دفع الدية ،

ولما كان الأمر كثير الحدوث استلزم قيام هيئة أو شخص ، يتلق بالنيابة عن الجماعة المطالب التي ترد من هذا النوع ، ويستجيب إليها إذا رأى فيها طابع الجد والاستقامة . وكان أبو بكر الصديق هو رجل الحمالات فى قريش فى العهد السابق على النبوة ، لا يراجع فيما يقضى به ، ولا ينازع فيما يحكم فيه .

وكان أبو بكر الصديق عالماً بأنساب العرب ، محيطاً بتاريخ قريش خاصة والعرب عامة ، وله إلى ذلك إلمام مستفيض بآدابها وأشعارها ، وكان ذلك مما يكمل شخصيته ، ويزيد الناس حبًّا فيه ، والتفافاً حوله . فكان مجلسه ، وكانت أسماره ملتقى أهل الظَّرف من شباب قريش وفتيانها الناهضين . وقد كانت لهذه الخصوصية آثارها الحميدة فى نجاح الدعوة التى قام بها فى صفوف هؤلاء الفتيان ، حين راح يدعو إلى الإسلام كما سنفصله فيما يلى .

قال صاحب السيرة الحلبية . « ... كان أبو بكر رضى الله عنه صدراً معظما فى قريش ، على سعة من المال وكرم الأخلاق، من رؤساء قريش، ومحط مشورتهم. وكان من أعف الناس، مُكَرَّماً ، رئيساً سخيًّا ، يبذل المال ، محببا فى قومه حسن المجالسة ، وكان من أعلم الناس بتعبير الرؤيا ، ومن ثم قال ابن سيرين وهو

المقدَّم فى هذا العلم اتفاقا : كان أبو بكر أعبر هذه الأمة بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم »[1] .

***

كان أبو بكر أول الرجال إسلاماً ، وأسرعهم استجابة إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن يتوقع منه غير ذلك ، وهو الرجل الوحيد الذى عرف النبي صلى الله عليه وسلم حقّ المعرفة قبل الرسالة ، ووقف من خصائص النبوة ومعالم الرسالة على ما لم يقف عليه غيره من ذلك ، وحسبه من الشرف فى هذا المقام شهادة الرسول الكريم له ، فقد جاء فى الأثر الشريف قوله :

« ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كَبْوَة إلا ما كان من أبى بكر » .

وجاء فى أثر آخر :

« ما كلمت أحداً فى الإسلام إلا أَبى علىّ وراجعنى فى الكلام إلا ابن أبى قحافة ، فإنى لم أكلمه فى شىء إلا قبله واستقام عليه » .

ولهذا ؛ ولما كان من تصديقه النبي صلى الله عليه وسلم حين جهر بأمر الإسراء ، سماه الصديق .

ومنذ شرح الله صدر أبى بكر للإسلام أخذ يدعو إليه خاصة

---

(١) الجزء الأول ص ٢٦١ طبعة مصطفى البابى الحلبى .

إخوانه ، وصفوة أهل وده ، فأسلم على يديه رهط كبير من عظماء الإسلام منهم : عثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة ابن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجراح .

وقد روعت قريش من شدة تأثير أبي بكر فى فتيانها ، ورأت مبلغ الخطر الذى يتهددها من جراء سلطانه على من حوله ، فاختصته بمزيد من اضطهادها ، وغالت فى العدوان عليه حتى وطئوه بالنعال ، وأخذ عتبة[1] بن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفتين على وجهه حتى أدماه ، وسارع بنو تيم رهط أبي بكر إلى استنقاذه منهم وهو بين الحياة والموت ، وأقسموا بالله لئن مات ليقتلون به عتبة !

ولما حصر مشركو قريش النبي صلى الله عليه وسلم وبنى هاشم فى شعب أبي طالب ، واشتدت الحال بالمسلمين أذن الرسول الكريم لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فخرج أبو بكر مهاجراً إليها ، فلما بلغ بَرْكَ الغِماد[2] لقيه ابن الدَّغِنَّة سيِّدَ القارَّة[3]

(١) عتبة بن ربيعة الأموى : كان من طواغيت قريش وقد قتل يوم بدر .

(٢) برك الغماد : موضع وراء مكة بخمسة أميال .

(٣) القارة أكمة سوداء نزل عندها جماعة من العرب فسموا بها ، وكانوا مشهورين بجودة التصويب فى رمى النبال .

فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال : أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض فأعبد ربى ! .

قال ابن الدغنة : إن مثلك يا أبا بكر لايخرج ، وأنا لك جار ، فارجع فاعبد ربك ببلدك ! .

ورجع أبو بكر ومعه ابن الدغنة فأعلن أشراف قريش أن أبا بكر فى جواره . فقالوا له : مره فليعبد ربه فى داره ، ولا يؤذنا بذلك ، ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ! .

فذكر ابن الدغنة ذلك لأبى بكر فرجع إلى داره ، وأخذ يعبد الله فيها ، ثم ابتنى مسجداً بفنائها ، فكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، وكان رجلا بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، فكانت نساء قريش وشبانها يزدحمون عليه ويصغون فى إعجاب إلى قراءته ، وعلمت قريش بذلك فهرعت إلى ابن الدغنة ، وآذنوه بخروج أبى بكر على عهد الجوار ، وخيروه بين أن يلزمه بالاعتكاف فى بيته أو استرداد جواره ! .

ومضى ابن الدغنة إلى أبى بكر ، وأخبره بما تفرضه قريش عليه ، وقال : فإما أن ترجع إلى العبادة داخل بيتك ، وإما أن

ترجع إلى ذمّتى ؛ فإنى لا أحب أن تسمع العـــرب أنى أخفِرتُ (١) .

فقال أبو بكر : فإنى أرد عليك جوارك ، وأرضى بجوار الله تعالى ، وكان معنى هذا أن يعود من جديد بنفس مطمئنة إلى مقارفة طغيان قريش وتحمل أذاها . وقد كان !.

وهكذا كان سلم أبي بكر وحربه دعوة خالصة للدين ، وحثًّا ملحًّا على الدخول فى الإسلام ، والخروج على عبادة الأوثان والأصنام ، ولو شئنا المضى فى سرد تاريخه فى هذه الناحية لأتينا من ذلك بالعجب العجاب ، ولكنا نكتفى بهذا القدر الذى أوردناه ، ونكل من يريد التوسع فى هذه المرحلة من حياته إلى كتب السير والتاريخ .



(١) أخفرت : أى اعتدى على من هو فى خفارتى وجوارى .

الهجرة إلى المدينة

كان من أهم الأحداث فى تاريخ أبى بكر الصديق هجرته إلى المدينة مصاحباً للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولقد كان هذا الحدث التاريخى العظيم فى حاجة ماسة إلى رجل يدبر أمره ، ويرتب شئونه ، ويتم ذلك كله فى حرص شديد وحذر عظيم ، إذ كانت قريش قد وقفت على تحالف الرسول الكريم مع الأنصار فى يثرب ، وتوقعت خروجه إليهم ، ورأت فيهم حليفاً شديد البأس قوى المراس ، ومن أجل ذلك شددت الرقابة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أجمعت أمرها على قتله ، وقررت أن تشترك كل عشيرة من عشائرها بفتى جلد ، فى العدوان عليه ؛ حتى يتفرق دمه فى العشائر ، ويعجز بنو هاشم عن مواجهة عشائر قريش جمعاء ! . .

وبينما كانت قريش تعد العدة لهذا الغدر الرهيب ، كان أبو بكر يتخذ الأهبة للهجرة ، فيشترى رواحل السفر ، ويكترى الدليل الذى يقود الرحلة ، ويجند فى ذلك أبناءه ومواليه ، وكان النصر حليفه والنجاح رائده . فقد حظى برفقة الرسول الكريم ، وخرجا معا ليلة التبييت إلى غار جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال ، ثم

خرجا منه بعد أن استكانت قريش إلى العجز عن العثور عليهما والفشل فى اللحوق بهما ...

قال أبو بكر : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ونحن فى الغار : لو أن أحدهم ينظر إلى قدميه لأبصرنا تحتهما ! فقال :

« ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟! » .

* * *

ابتدأت المرحلة الوسطى من تاريخ أبي بكر باستيطان المدينة وتطورت معها وسائله فى الدعوة إلى الإسلام . لقد كان فى مكة يدعو إليه خائفا يترقب ، تحيط به وسائل الكيد والغدر ، وتهدده أسباب الهلاك والدمار فى كل خطوة من خطواته ، وفى كل مرة من غدواته وروحاته ، أما فى المدينة فقد حف به الإخوان ، والتف به الأمان ، وأصبح بين أناس هو أعز عليهم من أنفسهم ، وأكرم عليهم من بنيهم ؛ أولئك هم أنصار الله ونبيه العظام ، وأبناء الأوس والخزرج الكرام . .

أصبح أبو بكر فى هذه المرحلة من الرسول صلى الله عليه وسلم بمنزلة الوزير الأول: يستشيره فى كل أمر ، ويعرض عليه كل تدبير ، وينتدبه لمهام الشئون ، ويحيل عليه كبريات المسائل ، وكان عمر بن الخطاب بمثابة الوزير الثانى . وندر أن يرد اسم

أبى بكر على لسان النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن من شئون الدين أو الدنيا إلا وردِفه اسم عمر بن الخطاب . .

وشهد أبو بكر مع النبى صلى الله عليه وسلم جميع غزواته التى خرج إليها بنفسه لم يتخلف عن واحدة منها ، وشهد بعضاً مما لم يشهده الرسول الكريم . وكان مكانه فى جميع الغزوات لصق الرسول الكريم ، على رأس جماعة من كبار المهاجرين والأنصار يلتفون حوله ، ويؤلفون من أنفسهم درعاً لوقايته .

وكما تطوع أبو بكر بنفسه فى سبيل الله يعرّضها للمكاره ، ويزج بها فى الخطوب ، لم يبخل بشىء من ماله فى هذه السبيل ، بل أنفق جميع ما كان يملكه فيها ! لقد جاء الإسلام وهو صاحب أربعين ألف درهم أقرضها جميعاً لله طيبة نفسه ، مطمئناً فؤاده . ولقد كان لنبيه مثل هذا الاطمئنان وتلك الطيبة . فقد ذكرت كتب السيرة أن أبا بكر لما هاجر مع النبى صلى الله عليه وسلم ، جاء أبوه الشيخ أبو قحافة وهو ضرير يتفقد أحفاده - وكان لا يزال على الشرك - فرثى لهم لأن أباهم أخذ ماله وتركهم فقراء . فذهبت أسماء ابنة أبى بكر - وهى صبية دون العشرين - ولفت عدداً من الحجارة على هيئة الدنانير فى خرقة ، ووضعتها فى كوّة مرتفعة ؛ ثم جاءت إلى جدها تبشره بأن أباها لم يأخذ

ماله معه بل تركه لعياله ، وأخذته ووضعت يده على الخرقة ، فتحسسها واطمأن بذلك فؤاده ! .

وكانت الوجوه التى أنفق أبو بكر ماله فيها كثيرة مختلفة ، وهى تتلاقى جميعاً فيما اصطلح على تسميته بسبيل الله . فقد بدأت بشرائه المستضعفين من الأرقاء الذين أسلموا وتعرضوا لعذاب الحريق من طواغيت قريش، وكان عددهم سبعة ، منهم : بلال بن رباح وعامر بن فهيرة، واستمرت بعدذلك فى معونة فقراء المسلمين وتجهيز الغزاة وإقراء الضيوف وما إلى ذلك من المكارم والمبرات ، وكان أعظمها على الإطلاق خروجه من ماله كله مرة أخرى لتجهيز غزوة العسرة أو غزوة تبوك فى السنة التاسعة من الهجرة .

ولقد تمدح النبى صلى الله عليه وسلم بسخاوة نفس أبى بكر فقال :

« إن من أمن الناس علىّ فى صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام . لا تبقينّ فى المسجد خوخة إلا خوخة أبى بكر [1] » .

---

(١) الخوخة باب صغير داخل باب كبير، وكان الصحابة يصنعون هذه الخوخات فى بيوتهم المطلة على المسجد ليدخلوا منها . وقد كان حديث الرسول الكريم هذا فى مرضه الذى مات فيه .

وكان الرسول الكريم يحب أبا بكر حباً جماً ، ولا يدخر وسعاً فى تبجيله وتكريمه ، ولا يدع مجالا للشك فى خصوصيته به وتقديمه إياه ، وكيف وهو صاحبه الأول وحبيبه المفضل .

سأل عمرو بن العاص النبي الكريم : من أحب الناس إليك ؟ فقال : « عائشة » ! فقال عمرو : أريد من الرجال ! فقال : « أبوها »[1]

وروى البخارى الحديث الآتى عن أبى الدرداء ، قال :

كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« أما صاحبكم فقد غامر[2] »

وجاء أبو بكر فسلم ، وقال يخاطب الرسول الكريم :

إنى كان بينى وبين ابن الخطاب شىء فأسرعت إليه[3] ، ثم ندمت فسألته أن يغفر لى فأبى على ، فأقبلت إليك ! .

---

(١) الجزء الخامس من البخارى باب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) أى بذل نفسه فى سبيل الله من أول الأمر وفاز بما أراد.

(٣) أسرعت إليه : أى أسأت إليه .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يغفر الله لك يا أبا بكر » (قالها ثلاثاً).

ثم إن عمر بن الخطاب ندم ، فأتى منزل أبي بكر ، فسأل : أثمّ أبو بكر ؟ فقالوا : لا ، فأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسلم فجعل وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتمعّر[1] حتى أشفق أبو بكر ، فجثا على ركبتيه ، وقال : يارسول الله . والله أنا كنت أظلم ! (قالها مرتين) فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« إن الله بعثني إليكم ، فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدق ! وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركو لي صاحبي » (قالها مرتين) فما أوذي أبو بكر بعدها !.

وكان أبو بكر أشبه الناس خلقاً بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ينزع إلى الرحمة ، ويجنح إلى الرفق ، ويؤثر الحسنى ، وقد تمثلت هذه الصفات على خير وجه في مسألة أسرى واقعة بدر ، وهل يقتلون أو يفتدون ؟ فقد جاء رأي أبي بكر فيها مطابقاً لما تجيش به نفسه من الابقاء على الروابط الاجتماعية الطيبة ، إذ أشار باستبقائهم واستراح إلى رأيه جمهور الصحابة ، وأشار عمر باستئصالهم ،

---

(١) يتمعر ، يتغير .

ووافقه على ذلك رجلان أو أكثر قليلا ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بالرأى الأول . ولكن الله عاتبه فى ذلك فيما بعد .

ولما كانت هذه الواقعة عظيمة الدلالة فى شرح نفسية أبى بكر ، كبيرة القيمة فى تصوير عواطفه وأحاسيسه ، فقد آثرنا نشرها على وجه التفصيل .

استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس فى الأسارى يوم بدر فقال : « إن الله قد مكنكم منهم » .

فقام عمر بن الخطاب ، فقال : يارسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي صلى الله علية وسلم ، وقال :

« يا أيها الناس إن الله قد مكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس » .

فقام عمر ، فقال : يارسول الله اضرب أعناقهم.

فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عاد فكرر ما قاله قبلا ، فقام أبو بكر فقال :

يارسول الله ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم ، أرى أن تستبقيهم ، وتأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لنا عضداً ! . .

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت من غير أن يقطع برأى فى الموضوع ؛ ثم خرج بعد قليل ، فقال :

« إن الله ليلين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدن قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة ! . مثلك يا أبا بكر فى الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة ، ومثلك فى الأنبياء مثل إبراهيم حيث يقول : فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم »[1] . ومثلك يا عمر فى الملائكة مثل جبريل ، نزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى ، ومثلك فى الأنبياء مثل نوح إذ قال :

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »[2]

ثم قضى الرسول الكريم باستبقاء الأسرى وقبول الفداء منهم ، وبعد ذلك نزل الوحى بتفضيل الرأى الآخر ؛ يقول الله عز وجل :

« ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ،

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٦ .

(٢) سورة نوح الآية ٢٦ .

تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم »[1]

وقد بين الله عز وجل فى الآيات التالية لهذه الآية كيف أنه قد غفر للمؤمنين هذا التدبير ، وأحل لهم مال الأسرى فقال : « فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً »[2]



(١) سورة الأنفال آية ٦٧ .

(٢) سورة الأنفال آية ٦٩ .

خليفة رسول الله

لم يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم نص صريح في استخلاف أبي بكر من بعده ، ولكنه رشّحه لهذا المنصب الجليل بطائفة من الأمور التي تقتضي إسناد الرياسة إلى صاحبها ، منها :

١ — إسناد وظيفة الصلاة بالناس إليه أثناء مرضه الذى انتهى بوفاته ، وإصراره على ذلك حين استعانت السيدة عائشة بنت أبي بكر بالسيدة حفصة بنت عمر — وهما من أمهات المؤمنين — على أن تنحى أباها عن هذا المنصب ، وتقدم عمر له وقوله لهما : « إنكن صواحب يوسف عليه الصلاة والسلام ، مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

وكانت حجة عائشة فى تنحية أبيها عن هذا المنصب قائمة على اجتهادها الخاص فقد صح لديها أن المسلمين سيتشاءمون بكل من يقوم مقام النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرادت أن تجنب أباها ذلك.

٢ — تقديم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر على جميع الصحابة فى كل عمل مهم ولا سيما تكليفه إياه أن يحج بالناس فى السنة التاسعة من الهجرة حين لم يكن هو على رأسه .

٣ — جاءت امرأة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن شىء ، فأمرها أن ترجع إليه فى العام المقبل . فقالت يارسول الله أرأيت إن جئت فلم أجدك . (تعنى الموت) فقال : « إن لم تجدينى فائتى أبا بكر » .

٤ — إقتناع جمهور الصحابة بأولوية أبى بكر وقدم سابقته، وتوافر جميع الشرائط لرياسته ، ومن أجل ذلك لم تلبث الزوبعة التى أثارها بعض الأنصار بسقيفة بنى ساعدة حول منصب الخلافة أن تكشفت عن التفاف يكاد يكون تامًّا حول أبى بكر ، وتعاون صادق معه فيما واجهه الإسلام من خطوب جسام عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

تطور عظيم فى شخصية أبى بكر :

كان تسليم جماعة المسلمين بإمامة أبى بكر قائماً على سابقته فى الإسلام وتقديم الرسول الكريم له ومحبتـــه إياه ، كما بينا من قبل ، ولكن لم يكن يخطر ببال كثير من الصحابة أنهم حين بايعوا أبا بكر بالخلافة قد بايعوا الرجل الوحيد الذى تؤهله مواهبه لمواجهة الحوادث الجسام التى ستثور فى وجهه منذ اليوم الأول لولايته الأمر . بل هى كانت قد سبقت هذا التاريخ

بيضعة أيام . ذلك أنه ما كاد خبر مرض الرسول الكريم ينتشر فى الجزيرة العربية حتى هب المتنبئون ، وانتقض معظم القبائل ومنع أكثرها الزكاة ! .

وقد انضافت إلى هذه الحوادث مهمة شاقة تتعارض طبيعتها مع منطق الحوادث ، لكن أبا بكر صمد لها، وأضافها كذلك على ما يحمله عاتقه من أعباء ، وكان التوفيق حليفه .

وبيان ذلك أن النبى صلى الله علية وسلم كان قد أعد جيشاً كبيراً أثناء مرضه الأخير جند فيه معظم كبراء الصحابة كأبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص ، وحشد فيه خلاصة جنود المسلمين ، وجعل على رأسه أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره بالسير إلى المكان الذى قتل فيه أبوه وجعفر بن أبى طالب وعبدالله بن رواحة فى غزوة مؤتة على حدود فلسطين سنة ثمان من الهجرة ؛ لينتقم لشهداء المسلمين ، ويؤدب الجناة الآثمين .

كان هذا الجيش قد أكمل استعداده وتهيأ للسفر ، ولكن اشتداد المرض بالرسول الكريم حمل أسامة على الانتظار . فلما اختار الله رسوله إلى جواره ، وجاءت أخبار الفتن التى ملأت أرجاء الجزيرة . أصبح من الصعوبة بمكان سفر هذا الجيش ؛ إذ أن ذلك يخلى يد الخليفة من صفوة جنوده الذين يمكن توجيههم

لمحاربة الفتن الثائرة ، ذلك إلى أنه يجرد المدينة نفسها من حامية تدافع عنها ، وقد كانت الإشاعات قد استفاضت بأن بعض القبائل تعد العدة لغزوها !.

فى هذه الفترة العصيبة ارتأى كبار الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب إرجاء خروج جيش أسامة ، وعرضوا رأيهم على أبى بكر ، فغضب غضباً شديداً ، واستنكر أن يبدأ عمله بتعطيل جيش كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر بتسييره ، وقال : والله لو تخطفتنى الذئاب والكلاب لم أردَّ قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعاد كبار الصحابة يقترحون على أبى بكر أن يغير رياسة الجيش فيستبدل بأسامة بن زيد أحد ذوى الأسنان والتجربة من الصحابة . وكان أسامة لمَّا يبلغ العشرين من عمره . ولكن أبا بكر أبى أن يسمع لأحد فى هذا الموضوع وقال : أيستعمله النبى صلى الله عليه وسلم وأنزعه ؟! ولكنه استأذن أسامة فى استبقاء عمر بن الخطاب معه .

ولما سار أسامة بالجيش ودعه أبو بكر ، وسار إلى جانبه ماشياً ساعة من الزمن يوصيه، فقَال أسامة : إما أن تركب يا أمير المؤمنين ، وإما أن أنزل . فقال : لستُ براكب ولستَ بنازل !..

ومضى أسامة والجيش إلى الجهة التى وجهها، وحقق الغرض الذى سار من أجله، فروّع المشركين، وقتل قاتل أبيه، وأسر وغنم وعاد مسرعا!

وقد كان تدبير أبى بكر بشأن مسير جيش أسامة آية من آيات الحكمة والبراعة، وفاتحة أمجاد عظيمة هيأها الله للإسلام على يديه، فقد كان لمسير هذا الجيش من الأثر فى ترويع نفوس المرتدين من العرب أكثر مما لو كان لم يبرح المدينة، ذلك أن المعنى البارز لمسيره أن قوة المسلمين كبيرة جدًّا، بحيث لا يؤثر فيها خروج هذا الجيش، وهذا ما فهمه المرتدون وأجفل منه أعداء الله ورسوله، وتحدثت به الجزيرة العربية كلها.



العزيمة الكبرى

لم يشهد التاريخ عزيمة اجتمع لها ما شاءته من القوة والتصميم مثل ما كان من ذلك لأبى بكر حين قام بالأمر وسط فتن ثائرة ونفوس فائرة، وارتداد من العرب عن الدين الحنيف، وتواطؤ يكاد يكون إجماعاً على ترك ركن من أركان الإسلام وهو الزكاة. وقد كان هناك رأى ظفر بقدر لا بأس به من التأييد وهو أن يغمض الصديق طرفه عن ما نعِى الزكاة، ولو لأجل مسمى، حتى يسوى حساب المتنبئين والمرتدين، ثم ينقلب إلى الباخلين بأموالهم على الصالح العام. ولكن أبا بكر مضى لطيَّتِه فى تحقيق مثله العليا، ورفض أنصاف الحلول، وأعلن فى دوى وجلجلة أنه سيحارب ولو من أجل عقال كان يدفعه صاحبه للنبى صلى الله عليه وسلم ومنعه إياه!

وبلغت عزيمته الكبرى قمتها حين أعلن أنه سيقود الجيش بنفسه ليواجه أعداء الإسلام، ولكن كبار الصحابة أقنعوه بأن الخير فى أن يبقى بالمدينة، يوجه الجيوش ويدبر الأمور.

وعلى ذلك جيّش الخليفة الجيوش، وأمَّر عليها الأمراء، وسيرها إلى الجهات الأكثر خطراً والأقرب إلى المدينة مكاناً،

وقد برز من بين أمراء الجند قائد عظيم هو سيف الله خالد ابن الوليد ، فقد تحمل العبء الأكبر من حروب الردة ، وتأديب القبائل المانعة للزكاة ، ثم أبلى البلاء الذى لا نظير له فى معركة بنى حنيفة ومسيلمة الكذاب ! [1] .

أمر عجيب

لقد كان من أعجب الأمور إن لم يكن من خوارقها أن أبابكر الصديق أمكنه أن يتغلب على أعداء الإسلام من العرب على الرغم من أن جيوشهم كانت أضعاف جيشه ، وعتادهم أكثر من عتاده، ومواقعهم أقوى تحصيناً من مواقع جيوشه فى عام واحد أو أكثر قليلا ! .

بل هناك ما هو أعجب وأغرب ألا وهو أن هذ الرجل الهادئ الوديع قد انقلب إلى ما يشبه الصواعق تمحق كل مايقابلها ، والتيارات العنيفة تجرف كل ما يعترضها ، لقد اكتسح مدُّه مسيلمة الكذاب ، وطليحة بن خويلد ، وسجاح

---

(١) أدعي مسيلمة الكذاب النبوة قبيل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، والتف حوله قومه وكانوا كثيرى العدد . وقد انتصر عليهم خالد بن الوليد وقتل كذابهم (انظر مطولات التاريخ) .

ومن وراء هذه الأسماء من قبائل وأذناب ، ولم يقف عند هذا الحد ليستريح ويريح جيوشه بل قذف بها إلى دولتى الدنيا على ذلك العهد - وهما الفرس والروم - تدك معاقلهما ، وتنتهك أراضيهما ، وتتوغل فيها ، تتقدمها الإرهاصات ، وتحيط بها الانتصارات ، ويحف بها المجد من كل جانب .

لقد كانت خلافة أبي بكر أقل من ثلاثة أعوام . ولكن ما أنجزه فيها من الأعمال الجسام كان من شأنه أن يستغرق عشرات الأعوام ، ولكن الله بارك فيه وعليه ، وجعل أيامه شواهد خالدة على قوة العزيمة ، ومضاء الهمة والإقدام .

ومن آيات الترفع الروحى التى اتسم بها أبو بكر أنه أبى على العائدين إلى الإسلام بعد ارتداد أن يساهموا فى حرب الروم والفرس ، وكأنه آثر أن يمهلهم مـــدة يتذوقون فيها حلاوة الإيمان من جديد ، أو أراد أن يعرفهم بأن الدعوة ماضية إلى وجهتها من غيرهم ، ومهما يكن من شىء فإن هؤلاء الناس لم يشتركوا فى الجهاد إلا على عهد عمر بن الخطاب .

مكثت خلافة أبي بكر ستتين وثلاثة أشهر تقريباً ، وتوفى وهو ابن ثلاثة وستين عاما .

عمر بن الخطاب

يبهر الدارس لسيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمر باهر حقًّا ذلك هو : كيف تسنى لهذا الرجل الناشىء فى حضانة الجاهلية ، المنتمى إلى بيئة اجتماعية لم تمسها ثقافة ولا هذبتها حضارة — أن يبلغ ما بلغ فى مجال السياسة والتدبير من تفوق مبرز بل نبوغ معجز !.

إن هذا الرجل الذى جاء بالعجائب فى سياسته ، لم ينشأ فى بيت ملك ، ولا ورث تقاليد بيئة سياسية ، فكيف تهيأ له أن ينشىء دولة من الطراز الأول فى النظم والإحكام واستقرار الأمور وسداد التوجيه ؟ ! . .

إنها الفطرة السليمة لاقت فى كنف النبوة مجالا صالحاً فترعرعت ، وإنه الفهم الذكى لتعاليم الإسلام ومبادئه القويمة ؟ ! ومعهما نور من الله يضىء له طريقه ، وقبس من حكمته يشرح صدره لمحاسن الأمور ، ويجنبه مساوئها .

ومهما يكن من شىء فإن سيرة هذا الرجل الفذ لم تتكرر من بعده فى شخص حاكم أو أمير ، وغاية من يرضى الناس عنه أن يشبهوه به وكفاه فخراً بذلك !.

فى ساعة من ساعات التجلى الإلهى ، وفى أشد أوقات الدعوة الإسلامية حرجاً وأعظمها شقوة وعناء ، اتجه النبى صلى الله عليه وسلم إلى ربه الأعلى ، ودعاه أن يعز الإسلام بأحد العمرين عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام (أبى جهل) ، وكانا كلاهما من أشد قريش عداء للإسلام ، وكراهية للرسول الكريم ، وقد شاءت الإرادة الإلهية أن تجعل هـــذا المجد من نصيب عمر ابن الخطاب ، فأسلم وكان الرجل الذى أعز الله به الإسلام ، وجعل على يديه ـ فيما بعد ـ إرساء قواعد دولته ، ونشر لوائها فى أعظم بقاع الأرض حضارة وعمراناً !.

كان إسلام عمر فتحاً مبيناً للإسلام ، ونصراً عظيما لدولته ، ولسنا نجد شهادة على ما نقول أعظم من شهادة الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود حيث يقول : « إن إسلام عمر بن الخطاب كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصرا ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه ».

أسلم عمر حين كان النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين ـــ وهم يزيدون قليلا على الأربعين ـــ مستخفين فى دار الأرقم ، فلم يرضه هذا التخفى ، وأشار على الرسول الكريم

من هذا المخبأ ، وسار المسلمون صفـًّا واحداً على رأسه حمزة ابن عبد المطلب وفى مؤخرته عمر بن الخطاب . ونظرة قريش إلى هذا الحدث الكبير ، ولم تستطع أن تحرك ساكناً ! .

وهاجر جميع الصحابة من مكة إلى المدينة خفية ، ولكن عمر أعلن قريشاً بزمن هجرته ومكانها ، وقال : من أراد أن تشكله أمه فليقابلنى هناك ! .

ولازم عمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وحفظ عنه ، وتأثر به وجاهد معه ، وصحبه فى جميع الغزوات وكان منه بالمنزلة التى تلى منزلة أبى بكر الصديق ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك — فى شىء من التفصيل والبيان — أثناء ترجمة أبى بكر ! .

وكان الرسول الكريم يأنس إلى رأيه فى كثير من المسائل ويعجبه حزمه ، ويغضى عن الشدة التى تجرفه إلى التطرف فى بعض الأحيان ! .

وقد نزل الوحى برأى عمر فى بعض مسائل التشريع ، منها مسألة أسرى بدر[1] ، ومنها مسألة الحجاب وتحريم الخمر .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « رأيتنى فى المنام ، والناس

---

(١) تراجع هذه المسألة فى سيرة أبى بكر .

يعرضون على ، وعليها قمص منها إلى كذا ومنها إلى كذا من أبدانهم ، ومر على عمر بن الخطاب يجر قميصه » ! . فقيل : يا رسول الله ، ما أوّلت ذلك ؟ قال « الدين » ! .

وكان عمر رجلا غيوراً جداً ، وقد جاء فى هذا الشأن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « دخلت الجنة[1] فرأيت فيها قصراً ، وسمعت فيه ضوضاة ، فقلت : « لمن هذا » فقالوا لرجل من قريش فظننت أنى أنا هو ! فقلت : من هو ؟ فقيل : عمر بن الخطاب ، فلولا غيرتك يا أبا حفص لدخلته ! » .

فبكى عمر ، وقال : أعليك أغار يارسول الله ؟ !

لما استخلف أبو بكر اتخذ من عمر مستشاره الأول فى مهام الأمور ، ثم وكل إليه وظيفة القضاء ، وقال له : اقض بين الناس فإنى فى شغل ، فكان عمر أول قاض معين فى الإسلام .

ولما أحس أبو بكر دنو أجله ، اختار أن يعين خليفته من بعده حتى يجنب المسلمين ما عساه أن يحدث من اضطراب وكان عزمه معقوداً على استخلاف عمر ، ولكنه أراد أن يستأنس برأى

---

(١) بالاستئناس إلى الحديث السابق يمكن أن يلحق هذا الحديث بحديث الرؤيا المنامية .

بعض كبار الصحابة ، فاستدعى عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما ، واستفتاهم فى أصلح الرجال لولاية الأمر من بعده فأجمعوا على عمر بن الخطاب ، وعلى ذلك كتب عهده باستخلافه، وأمضى الصحابة رأيه بالإجماع .

أمير المؤمنين :

كان الناس ينادون أبا بكر بقولهم : ياخليفة رسول الله ، فلما ولى عمر نادوه أولا : ياخليفة خليفة رسول الله على استكراه ، لما فى هذا اللقب من تكرار ، وقد تكفلت الصدفة بحل هذا الإشكال ، ذلك أنه حدث أن سمع بعض الصحابة آخر يقول : سأذهب إلى أمير المؤمنين (يعنى عمر) فذهب إلى الخليفة واقترح عليه هذا اللقب فأجازه ، ومن ثم أصبح يلقب به هو ومن جاء بعده من الخلفاء ! .

* * *

ولى عمر الخلافة وقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، إذ تجاوزت الجزيرة العربية كلها ، وامتدت إلى مساحات واسعة من الشام والعراق ، وكان أهم ما يشغل باله من الناحية السياسية إقرار النظام الداخلى للدولة ودعم قوتها المعنوية وبيان أن كل قوة عداها

سواء أكانت لشخص أم لهيئة إنما هي مستمدة منها متفرعة عليها !.

وكان الحافز الذي وجه عمر هذا التوجيه، هو ما رآه إثر وفاة الرسول الكريم من حادث السقيفة(1) وما استنتجه من أنه ما لم يسد المبدأ الذي أسلفنا وصفه فإن من المحتمل أن تتخذ السابقة إلى الإسلام. أو القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضعاً ينتهي بتصدع بنيان الدولة وقيام الفتن والاضطرابات !.

قد نكون أفلحنا في وصف الفكرة التي هيمنت على عمر سني خلافته، وقد يجد بعض الناس أنها لا تزال في حاجة إلى مزيد من البيان، ومن أجل ذلك نقول لهؤلاء المستزيدين: إن عمر كان يخشى أن يصيب الدولة الإسلامية في عهده ما أصابها آخر خلافة عثمان بن عفان وأيام خلافة علي بن أبي طالب، فكأنه كان يرى بظهر الغيب الخطوب التي يمكن أن تحدث إذا لم تسد المبادئ، وتتوارى الشخصيات، ومن أجل ذلك حرص من أول الأمر كل الحرص على دعم الدولة وتمكين سيادتها، ووضع الشخصيات الكبرى وراء ستار يحجبها عن الأنظار؛ ولا تظهر إلا بمقدار !.

---

(1) حادث السقيفة هو اجتماع الأنصار اثر وفاة الرسول لترشيح سعد ابن عبادة خليفة، وقد أشرنا إلى ذلك في ترجمة أبي بكر.

وكان أول قرار تنفيذى اتخذه عمر لهذا المبدأ الخطير هو عزل كبار قادة الجيوش الذين طارت شهرتهم كل مطار مثل خالد ابن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، والمثنى بن حارثة الشيبانى ؛ وقد علل ذلك بأنه خاف أن يفتتن الناس بهم فيظنوا أنهم ينتصرون بهم لا بالله .

وهذا التعليل يطابق ما ذكرناه آنفا من حرصه على سيادة المبدأ وإغفال الأشخاص . وهو كذلك لا ينفى مظنة افتتنان الأشخاص بأنفسهم ، وتجاوزهم حدود الإعجاب الصامت إلى مجال العمل الدافع ! .

واتخذ عمر بشأن كبار الصحابة نظاماً هو أشبه بنظام « تحديد الإقامة » المعروف حديثاً فقد كانوا لا يبرحون المدينة إلا بإذن منه ، وبشرط أن يكون هناك سبب يقتضى الخروج كالحج أو العمرة وما إلى ذلك ! .

وقد غالى عمر فى تطبيق مبدئه حتى أخل فى بعض الأحيان بناموس الكرامة ، ومن ذلك ما رواه المؤرخون . من أن سعد بن أبي وقاص جاء إلى مجلس عمر وكان عنده خلق كثير حضروا ليأخذوا أنصبتهم من مال عام فدلف سعد يتخطى الناس إلى عمر فضربه بالدِّرَّة ، وقال : إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله

فى الأرض ، فأجبت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك ! .

وقد انتهت هذه الواقعة بنكتة طريفة تلك هى أن سعدا رأى نفسه معتدى عليه من غير جريرة ، فتهيأ للالتجاء إلى الله . وخشى عمر أن يدعو عليه ، وكان مستجاب الدعوة ، فناوله الدِّرة وقال له . اقتص لنفسك ، أى ولا تدع الله على ، فرضى سعد وغفرها له !

واشتدت هيبة عمر فى الناس حتى خافه الصغار واتقاه الكبار ، وراحت مهابته تلاحق رجال الدولة فى كل مكان . وكان كل واحد منهم يحسب حساب الخليفة فى كل عمل يقارفه حتى كأنه على رأسه ، ومن آيات الله الكبرى أن المسلمين قد قبلوا هذه السياسة الحازمة من غير برم أو كراهية . ذلك أنهم كانوا موقنين بأن خليفتهم يخشى الله فيهم ، ولا يقدم على ظلم أحد من الرعية ، ولا يتخذ من سلطانه سبباً للاستعلاء عليهم ، أو إيثار نفسه أو أى واحد من قرابته بخير دونهم !

وكان من محاسن عمر التى لم تتهيأ لأحد من بعده أنه أخذ يزداد تقشفاً كلما كثرت نعم الله على المسلمين . فكان يلبس الثياب المرقعة ، ولا يتخذ إلا قيصاً واحدا يضطر إلى الاحتجاب عن الناس عند ما يغتسل ! .

وحدث مرة أن أرسل إليه أحد الأمراء قاشاً فوزعه على الصحابة بالتساوى ، ولم يكن نصيب الفرد يكفى لعمل ثوب كامل منه ، ولكن أحد المسلمين شاهد عمر بعد ذلك وهو يلبس ثوباً كاملا من هذا القماش فاحتجَّ عليه ، فهتف عمر بابنه عبد الله ، وقال : أجب ياعبد الله ، فوقف وأخبر المحتج أنه تنازل لأبيه عن نصيبه من هذا القماش وبذلك تهيأ له أن يتم ثوبه منه ! .

وهكذا كان المسلمون سعداء بعمر ، يستقبلون تدابيره الشديدة بالرضى والقبول ؛ لأنهم مؤمنون بصدقه موقنون بعدله وأنه لا يريد من الملك شيئاً لنفسه أو لقرابته . وهكذا استقر الأمر وساد النظام ، ومضت أمور الدولة على خير مايرام ، وذهبت الدعوة الإسلامية كل مذهب ، وكان الفضل فى كثير من الفتوحات وإقبال الناس على الدين لما شهر عن عمر نفسه ـ عند أهل العراق والشام الأصليين ـ من العدل والزهد والاستقامة . لقد كان عمر لا يفتأ يذكر ولاة المسلمين فى الأمصار التى فتحت عليهم بحق مواطنى هؤلاء الأمصار الأولين من غير المسلمين عليهم ووجوب رعايتهم وتمكينهم من الأسباب التى تكفل لهم حياة صالحة مطمئنة ، ولم ينس أن يؤكد هذا المعنى فى الوصية التى أوصى بها وهو يحتضر ! .

وأصر أهل بيت المقدس على أن لا يصالحوا المسلمين إلا على يد عمر فاستجاب لرغبتهم وسافر إليهم وعقد معاهدة الصلح معهم ، وما كان لهؤلاء الناس أن يشترطوا حضور عمر إليهم لولا أنهم قد سمعوا بعدله ، ورأوا أنهم سيكونون أسعد حظا وأصلح حالا إذا اتصلوا به رأساً .

* * *

لقد رأينا عمر فى صورة الحاكم الحازم الشديد فى مواطن الشدة ، ويحسن بنا أن نعرضه فى صورته الأخرى ، صورة الأب الشفيق على بنيه والراعى الرحيم لرعيته ، وهذا الجانب من نفسيته زاخر بالمثل ، غنى بالوقائع حتى أننا لو جارينا الرغبة فى سرد بعضها لما نهض بها المقام ومن أجل ذلك نكتفى بذكر واحدة منها ، وهى واقعة المجاعة التى امتحن الحجاز بها على عهده وسميت عام الرمادة[1].

احتبس المطر عن الحجاز فى السنة السابعة عشرة للهجرة ، فاحترق المرعى . وهلكت الماشية . وجاع العرب إذكان غذاؤهم قائماً على ألبانها ولحومها ، فهرعوا إلى المدينة مستغيثين بالخليفة،

---

(١) سميت عام الرمادة ؛ لأن المطر لما حبس عن الأرض احترق النبت واستحال لونه إلى لون الرماد .

وخف عمر إلى استقبالهم ، وأنزلهم بساحات المدينة ومقابرها وكل فضاء بها ، وعين طائفة من خيار المسلمين لتسجيل أسماء القادمين ، وتعيين أماكن إقامتهم والإشراف على توصيل الأطعمة إليهم .

ثم كتب إلى ولاة الأمصار ينبئهم بهذه المحنة ، ويطلب إليهم أن يمدوه بأقصى ما يستطيعون جمعه من مواد الطعام : حبوب أو دقيق أو سمن أو زيت على أن يكون من أخصر طريق وأقرب وقت مستطاع .

وراح عمر يبكى آناء الليل وأطراف النهار ، ويدعو الله أن لا يجعل هلاك أمة محمد على يديه ، ثم صلى صلاة الاستسقاء مع عامة المسلمين بالمدينة ، فاستجاب الله لهم ، وأنزل عليهم الغيث مدراراً عدة أيام متتاليات ، حتى شربت الأرض بعد عطش شديد ، وانتعش أهل الحجاز بعد امتحان ثقيل ! .

وكان عمر قد حرم السمن على نفسه وآله أثناء المجاعة ، والتزم طعام اللاجئين — كما أسلفنا — وكان هذا الطعام يطهى بالزيت وكان بطنه لا يطيقه ، فحدث مرة أن تقرقر[1] بطنه بشدة

(١) قرقرة البطن هو إحداث صوت تهوم به الأمعاء .

فقال يخاطبه : تقرقر تقرقرك ، إنه ليس لك عندنا غيره[1] حتى يحيا الناس !.

ونظر عمر عام الرّمادة إلى بطيخة فى يد بعض أطفاله . فقال : نخ ..نخ .. يابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى ! فولى الصبي هارباً وهو يبكى خوفاً من أبيه ، ولم يهدأ عمر إلا بعد أن قيل له : إن الصبي اشترى البطيخة بكف من نوى جمعه بنفسه !...

* * *

هذا هو عمر بن الخطاب فى صورتيه : صورة الشدة والحزم وصورة اللين والرحمة ، يكاد المرء يحسب من شدة تباينهما أنهما لرجلين لا لرجل واحد ، ولكنه يحس أنهما جميعاً صورة رجل تجرد عن الهوى ، وأخلص نفسه لله ، واتخذ من المسلمين جميعا أبناء له يسوسهم بالعدل والقسطاس المستقيم !.

كان من رأى عمر أن تبقى المدينة مدينة عربية خالصة ، ومن أجل ذلك حرم على الصحابة أن يجلبوا إليها رقيقهم من الأروام والأعاجم للعمل فى الصنائع أو التجارة لحساب مالكيهم ، وكانت هذه العادة شائعة بين الناس ، ولكن حدث أن كتب إليه المغيرة بن شعبة أمير الكوفة ، يستأذنه فى إرسال

---

(١) الضمير هنا راجع الى الزيت ، أى مالك عندنا غير الزيت .

غلام له ؛ ليعمل بالمدينة اسمه أبو لؤلؤة المجوسى ، وذكر أنه صاحب صناعات كثيرة فهو حداد ، نجار ، نقاش ، فأذن له بذلك .

وفرض المغيرة على غلامه جعلا شهريا استكثره ، فشكاه إلى عمر ، وطلب إليه أن يخففه ، فقال عمر : ألم أخبر أنك صاحب صناعات هى : كيت وكيت ؟ ! . . فقال الغلام : بلى ! فقال : ما خراجك بكثير فى كنه عملك ! فانصرف الغلام ساخطا ! .

وبعد أيام مر أبو لؤلؤة بعمر فاستدعاه وقال : ألم أحدَّث أنك تقول : لو أشاء لصنعت رحى تطحن بالريح ؟ .

فقال أبو لؤلؤة ساخطاً :

لأصنعن لك رحًى يتحدث بها الناس ! .

فلما ولى ، أقبل عمر على الرهط الذى كان معه وقال : أوعدنى العبد آنفاً ! ولكن لم يفطن أحد إلى ما فطن إليه ولم يعر هو نفسه الأمر اهتماماً ! .

وبعد ليال من ذلك كمن أبو لؤلؤة لعمر فى زاوية من زوايا المسجد قبيل صلاة الفجر ، وطعنه ثلاث طعنات بخنجر ذى نصلين كان معه ، ثم أخذ يطعن كل من حاول القبض عليه من المسلمين

حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة ، ثم جاء رجل من خلفه ، فلفه فى ردائه وقيد حركته ، فلما أحس أنه قد أخذ طعن نفسه ، فمات !.

أما عمر فإنه حمل إلى بيته وهو إلى الموت أقرب منه إلى الحياة ، وكان أول شيء أهمه أن يعلمه حين رد إلى نفسه هو : من الذى قتله ؟ فلما أخبر أنه أبو لؤلؤة استراح ، وقال الحمد لله الذى لم يقتلنى أحد يخاصمنى بسجدتين أمام الله !.

* * *

طلب جماعة من المسلمين إلى عمر بعد أن طعن أن يستخلف ، فقال : إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى (يعنى أبا بكر) وإن أترك فقد ترك من هو خير منى (يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم).

ثم اتخذ عمر خطة وسطاً ، لجعل الأمر من بعده لبقية النفر الذى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . وهم : عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله .

وأوصى من يقع عليـــه الاختيار — إن لم يكن

سعد بن أبي وقاص — أن يستشيره فإنه لم يعزله عن عجز أو خيانة ! .

ولم يفارق عمر حزمه حتى فى هذه الساعة ، ذلك أنه خشى أن ينشب خلاف بين النفر الذين حصر فيهم الخلافة ، فدعا أبا طلحة الأنصارى ، وقال له :

يا أبا طلحة ، كن فى خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى ، فقم على الباب بأصحابك فلا تترك أحداً يدخل عليهم ، ولا تتركهم يمضى اليوم الثالث حتى يؤمروا أحدهم . اللهم أنت خليفتى عليهم . وجاء فى بعض الروايات خول أبا طلحة قتلهم جميعاً إذا لم يتفقوا على أحدهم بعد ثلاثة أيام ! .

هذا هو آخر تدبير من تدابيره الحازمة ، صدع به وهو بين الحياة والموت ، ولم يدرك الناس مبلغ ما فيه من الحكمة والصواب إلا بعد أن دهمتهم الفتنة إثر مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ! .

ومات عمر بعد ثلاثة أيام من جراحته ، فصلى عليه صهيب الرومى، ودفن إلى جانب أبى بكر على مقربة من مدفن النبى صلى الله عليه وسلم . وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين ليلة ، وكان له من العمر ثلاث وستون سنة ! .

عثمان بن عفّان

لو كان فى الإمكان الاقتصار فى ترجمة عثمان بن عفان على الصدر منها — أى منذ إسلامه حتى قبيل استخلافه — لما كانت هناك شخصية من الصحابة تضارعها فى تهافت الفكر عليها ، وانطلاق القلم فى تدوين مآثرها ، نقول ذلك لا لأن ختامها وهو وقت استخلافه كان فيه ما يغير الرأى فى عظم هذه الشخصية وجلالها ، بل لاستفظاع ما كان هناك من ظلم غاشم ، وعدوان آثم على حبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوج ابنتيه: رقية وأم كلثوم ، وعلم هذه الأمة على الأدب الجم والحياء العظيم ، والبذل فى سبيل الله من غير حد وبلا منّ أو تقاض على أى وجه من الوجوه !.

كان عثمان بن عفان ممن زين الله بهم الصحابة ، وأكمل به مجموعتهم ، كان خيراً كله ، عظيما إلى أقصى حدود العظم ، وحسبك شهادة فيه قول النبى صلى الله عليه وسلم إثر وفاة السيدة أم كلثوم ابنته وزوج عثمان الثانية — « لو كان عندى غيرهما لزوجته منها »[1] ، واستشارة أبى بكر إياه فى استخلاف عمر ، واختياره

(١) إشارة إلى أنه كان زوج رقية ابنة الرسول كذلك .

بالذات ليكتب وصيته بذلك ، ومبايعة أهل الشورى له من غير خلاف بعد أن اختاره نقيبهم عبد الرحمن بن عوف لهذا المنصب الجليل ! .

* * *

أسلم عثمان بن عفان فى الفوج الأول من المسلمين ، وكان ممن هداهم الله إلى الإسلام على يد أبى بكر الصديق ، وعلى الرغم من توسطه بيت بنى أمية تعرض لأذى قريش وعدوانها مما اضطره إلى الهجرة إلى الحبشة مستصحباً معه زوجه رقية ، وكان أول المسلمين هجرة إليها ، ثم هاجر إلى المدينة كذلك حين أذن للمسلمين بالهجرة إليها .

وكان فى مركز الصدارة دائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يلى عمر ، ويجىء هو وعلى بن طالب فى صف واحد ، يتقدم عليه حيناً بحسب سنه، ويسبقه على حيناً بسبب كفايته التى لا تضارعها كفاية فى العلم والحرب ! .

وتتميز سيرة عثمان فى الرسول الكريم بمكرمة كبرى وموقف عظيم ، فأما المكرمة الكبرى فهى سخاؤه بماله فى سبيل الله ، وسنذكر مثلين على ذلك أولهما :

كان رجل يهودى بالمدينة يملك بئراً عذبة الماء تسمى رومة

ويغلى ثمن مائها على الصحابة ، فشكوا منه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « من يشترى رومة فيجعلها للسلمين، يضرب بدلوه فى دلائهم ، وله بها مشرب فى الجنة ؟!» .

فأتى عثمان اليهودى يساومه فى شرائها فأبى أن يبيعها كلها ، فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم ، فجعله للسلمين واتفق معه على أن تكون البئر يوماً له ويوماً لليهودى ، فكان المسلمون إذا جاء يوم عثمان يستقون ما يكفيهم من الماء يومين . فلما رأى اليهودى ذلك قال : أفسدت على ركيتى[1] ، فاشتر النصف الآخر ، فاشتراه عثمان بثمانية آلاف درهم ، وأطلقها كلها للمسلمين !.

أما المثل الثانى فقد كان عند غزوة تبوك ، وهى المسماة بغزوة العسرة ، وكانت فى السنة التاسعة من الهجرة وكان المسلمون فى ضيق شديد وعسرة بالغة . يريدون أن يجاهدوا فى سبيل الله ولكن تحول بينهم وبين رغبتهم قلة ما بأيديهم من الأموال ، وعجزهم عن شراء حمولة السفر من جمل أو فرس ، وفى هذا المقام يقول الله عزّ وجلّ فى كتابه الكريم :

« ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد

---

(١) الركية ، هى البئر .

ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون »[1]

وقد بادر كبار المسلمين ببذل أموالهم فى سبيل الله ، وكان عثمان من أيسرهم حالا ، فجهز هذا الجيش بتسعمائة بعير وخمسين فرساً ! .

أما الموقف العظيم الذى ميزناه آنفاً على غيره فى سيرة عثمان فهو موقفه فى غزوة الحديبية ، وخلاصته أنه لما تحرج الموقف بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش حين أراد الطواف بالبيت ومنعوه ، اتجه رأيه الشريف إلى إرسال أحد وجهاء الصحابة ليشرح لهم وجهة نظره لهم ، ويقنعهم أنه إنما يريد الطواف بالبيت ولا يريد حرباً أو قتالا ، فعرض الأمر على عمر بن الخطاب ، فذكر أن ليس له من بنى عدى — رهطه بمكة — من يستطيع حمايته ، ذلك إلى أنه مشهور بغلظته على قريش ، ثم أشار بانتداب عثمان بن عفان لهذه المهمة فقبل الرسول الكريم مشورته ، ورشح عثمان لها فقبلها من غير تردد .

ثم أشيع بعد ذهاب عثمان إلى قريش أنهم قتلوه ، فدعا الرسول

---

(١) سورة التوبة آية ٩٢

صلى الله عليه وسلم الصحابة إلى بيعة الرضوان ، وكان شعارها الفتح أو الشهادة ، وهى البيعة التى يقول الله عز وجل فى شأنها :

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما »(١) .

وبايع النبي صلى الله عليه وسلم عن عثمان فوضع يده اليمنى على يده اليسرى ، وقال : « اللهم إن هـذه عن عثمان فإنه فى حاجتك وحاجة رسولك »(٢)



---

(١) سورة الفتح الآيتان : ١٨ و ١٩ .

(٢) نتيجة هذه الواقعة معروفة ، فقد ظهر أن عثمان حي يرزق وتراجعت قريش وعقدت معاهدة الحديبية .

ثالث الخلفاء الراشدين

تركنا القراء فى آخر ترجمة الخليفة الثانى عمر بن الخطاب عند وصيته بشأن من يلى الأمر من بعـــده، وهى تتلخص فى حصر الموضوع فى بقية النفر الذين مات النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وهم : عثمان بن عفان ، وعلى ابن أبى طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وطليحة بن عبيد الله ، وقد اجتمع هؤلاء النفر بعد وفاة عمر ، وأنابوا عبد الرحمن بن عوف فى اختيار من يراه الأصلح من بينهم ، فاختار عثمان بن عفان وبايعه بالخلافة وبايعه الآخرون إثر ذلك ا .

قال عبد الله بن مسعود حين بويع عثمان بالخلافة : « بايعنا خيرنا ولم نأل »[1] .

وقال على بن أبى طالب : « كان عثمان أوصلنا للرحم ، وكان من الذين آمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين » .

* * *

مضت السنون الأولى عن خلافة عثمان ، والأمور تجرى

---

(١) ولم نأل : أى لم نقصر فى اختيار الأصلح .

فى سننها المستقيم ، والفتوحات الإسلامية تنتشر وتتلاحق فى كل ناحية من النواحى ، والأمـــوال تتدفق على المدينة ، والناس فى خير عميم وعز مقيم .

قال ابن سيرين : كثر المال فى زمن عثمان حتى بيعت جارية بوزنها [1] ، وفرس بمائة ألف درهم ، ونخلة بألف درهم ! . .

وقال الحسن البصرى : شهدت منادياً ينادى (أى فى زمن عثمان) :

يا أيها الناس اغدوا على أعطياتكم فيغدون ، ويأخذونها وافرة . يا أيها الناس ، اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافية . حتى والله سمعته أذناى يقول : اغدوا على كسواتكم فيأخذون الحلل ، واغدوا على السمن والعسل ، أرزاق دارة وخير كثير، وذات بين حسن ، ما على الأرض مؤمن إلا يوده ، وينصره ويألفـــه » .

هذا وصف دقيق لعهد عثمان على لسان عرف بالصدق والتحنث الشديد ، وكان من الممكن أن تدوم هذه الحال ، وتزداد طيباً ونفعاً ، لولا أن داخل الفساد بعض النفوس فأبطرها ، وأغراها بهذا الخليفة السمح الكريم .

---

(١) أى دراهم .

ومن الواجب تقريره أن الناقمين على عثمان كانوا من أهل الأمصار وجلهم إن يكن كلهم من حديثي الإسلام ، ولم يكن بينهم أحد من كبار الصحابة إنما كانوا شراذم من شذاذ القبائل وجفاة الأعراب ، مشت بينهم الرسـل وتلاقت أهواؤهم على الفتنة فاتفقوا على التجمع بالمدينة شراذم مسلحة أبرزها من أهل الكوفة والبصرة ومصر ، وقد عسكروا خارج المدينة ، وطلبوا من الخليفة أن يستقيل محتجين بأنه خالف سنة الشيخين أبي بكر وعمر ، وأساء السيرة فى الحكم وغلب الهوى على العقل والحكمة! .

وكان أكثر ما يأخذونه عليه إيثاره ذوى قرابته بمناصب الدولة على فساد فيهم ، وبعد عن الاستقامة عرف عن بعضهم ، وكان من الممكن تلافى هذه المآخذ ، فقد كان الخليفة يستمع إلى النصيحة ، ويعمل بها إذا صدرت عن إخلاص ؛ ولم يكن القصد منها العنت والإحراج ، ولكن رؤساء الفتنة لم يكن الإصلاح رائدهم ، بل كانوا قد بيتوا أمراً واعتزموا تنفيذه ! .

وقد حاصر المارقون الخليفة فى داره ، ومنعوه من الصلاة فى المسجد ، وحرموه من الماء العذب ، وهو الذى أحله بماله للمسلمين كما ذكرنا ذلك آنفا ، ثم تهددوا كبار الصحابة مثل : على والزبير ، وطلحة بالشر إذا نصروه ؛ فأرسل كل واحد منهم

ابنه أو قريبه ليلازم الخليفة فى داره ويمنعه من الأذى ، ولكن عثمان أبى أن يستل أحد سيفه للدفاع عنه توقياً للفتنة ، ومنعاً لاستفاضة الشر ![1]

قال أبو هريرة : إنى لمحصور مع عثمان رضى الله عنه فى الدار فرمى رجل منا ، فقلت يا أمير المؤمنين ، الآن طاب الضِّراب ، قتلوا منا رجلا ! فقال :

عزمت عليك يا أبا هريرة إلا رميت سيفك . فإنما تراد نفسى ، وسأقى المؤمنين بنفسى ! .

قال أبو هريرة : فرميت سيفى لا أدرى أين هو حتى الساعة!.

وهكذا آثر الخليفة أن يموت شهيداً على أن يقسم جماعة المسلمين ، ويفتت وحدتهم ، ولو لم يكن له من المآثر إلا هذه المأثرة لكفاه بها فخراً وتمجيداً !

وقد طالت مدة الحصار حتى جاوزت الشهرين ، ثم أرجف بعض المرجفين بأن معاوية بن أبى سفيان والى الشام أرسل جيشاً لنصرة الخليفة فكان ذلك حافزاً للمارقين على التعجيل بقتله الخليفة ، فتسوروا الدار ، وقتلوه وهو يتلو القرآن الكريم .

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ج ٣ ص ١٠٤٦ طبعة مكتبة نهضة مصر.

قال أبو جعفر الأنصارى[1] : لما قتل عثمان خرجت أشتد حتى دخلت المسجد فإذا رجل جالس عليه عمامة سوداء . فقال : ويحك ! ما وراءك ؟ قلت : قد والله فرغ من الرجل ! فقال : تبا لكم آخر الدهر ، فنظرت فإذا هو على بن أبى طالب !

قتل عثمان بن عفان وهو فوق الثمانين من عمره ، وكانت خلافته اثنتى عشرة سنة إلا ثمانية أيام .



(١) الاستيعاب لابن عبد البر ج ثالث ص ١٠٤٤ طبعة مكتبة نهضة مصر .

عليّ بن أبي طالب

كثيرة ما قرأت عن علي بن أبي طالب للأقدمين والمعاصرين لم أجد وصفاً أصدق فى تصويره من قول أحد معاصريه يخاطب صديقاً له : أتدرى ما مثل على فى هذه الأمة ؟ إن مثله مثل عيسى بن مريم ، أحبه قوم حتى هلكوا فى حبه ، وأبغضه قوم حتى هلكوا فى بغضه ! . .

وقد كانت البادرة الفكرية التى ومضت فى ذهنى إثر اطلاعى على هذا التصوير لأول مرة هى توجيه العذر لمن أفرط فى حب على . فقد كان أهل ذلك وزيادة ، أما من أبغضه فقد عجزت حيلتى عن التماس شبهة من رأى لأعذاره ، إذ كانت سوابقه فى نصرة الإسلام ، وتبريزه الشامخ فى مذاهب الفكر ومناهج العلم كل ذلك كفيل بحمايته من البغضاء مهما كانت ضئيلة ، ولكن فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور[1]

قال يحي بن معين[2] : من قال أبو بكر وعمر وعثمان وعلى

---

(١) اقتباس من الآية الكريمة رقم ٤٦ من سورة الحج .

(٢) يحيى بن معين من كبار التابعين .

رضيِ الله عنهم ، وعرف لعلى سابقته وفضله ، فهو صاحب سنة ، ومن قال أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وعرف لعثمان سابقته ، فهو صاحب سنة . فذكر له أحد جلسائه هؤلاء الذين يقولون : أبو بكر وعمر وعثمان ويسكتون ، فتكلم فيهم بكلام غليظ ! .

وليس هناك شك فى أن كل من يدرس سيرة على بن أبى طالب بقلب سلم يجد نفسه من شيعته على الرغم منه ، وليس من الحتم أن يغالى فى التشيع له حتى المروق فإن الإسلام يعصمه من ذلك . وعلىّ نفسه يقول — وهو خليفة — : « من فضلنى على أبى بكر جلدته » وهو بهذا التقرير الخطير يقطع السبيل على كل من يركب هواه ، ويفترى عليه الكذب والبهتان ! .

* * *

أسلم على وهو صبى فى نحو العاشرة من عمره ، وكان منذ طفولته فى كفالة النبى صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن الرسول الكريم أراد التخفيف عن عمه أبى طالب نظراً لكثرة عياله ، وما يتكبده من مغارم الرياسة فى بنى هاشم ، فاقترح عليه أن يضم علياً إليه فقبل . وعلى هذا نشأ على فى رعايته الشريفة ، وتشرب منذ الصغر أدبه ومناهجه فى الحياة ! .

وبدَهى — والشأن هكذا أن يكون علىّ أول الناس استجابة

لدعوة الرسول . ولكن حداثة سنه حالت بينه وبين المشاركة في نشر الدعوة فى أعوامها الأولى . ولكنه عوض ذلك ببداية ضخمة لولم يتفق له غيرها فى حياته كلها لكفته مجداً وفخاراً !..

* * *

لما أعيت قريشاً الحيل فى محاربة الدعوة الإسلامية وعلموا بتحالفه مع الأنصار ، أدركوا مبلغ ماهم معرضون له من الخطر ، إذ كانوا على علم ببراعة الأوس والخزرج فى القتال ، وعراقتهم فى ممارسة الحروب ، فاجتمعوا بدار الندوة ، وقرروا أن لامخرج لهم من هذا المأزق إلا بقتل محمد بن عبد الله ، ولكى يعجزوا بنى هاشم عن المطالبة بدمه اتفقوا على أن ينتخب كل بطن من بطونهم فتى شديد البأس ، على أن يتولى هؤلاء الفتيان جميعاً قتله حتى يتوزع دمه على قريش كلها ، ويجد بنو هاشم أن لا قبل لهم بحرب أهل مكة جميعا[1] ! .

وفى الليلة التى عينت لتنفيذ هذه المؤامرة ، انتهى أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبر عليًّا بها ، وطلب إليه أن يرتدى لباسه ، وينام فى فراشه ، ليوهم المتآمرين أنه — أي

---

(١) تقدم ذكر هذه الواقعة فى ترجمة أبى بكر ولكن السياق اقتضى إعادتها هنا .

النبي الكريم — فى داره وفى فراشه كعادته ، ثم انصرف مهاجراً من مكة إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق ، على ماهو معروف ! .

وقد قبل على هذه المهمة الفدائية بنفس مطمئنة . وجنان ثبت ، وكان يحس فى ذلك الوقت أنه أسعد الناس طراً بأن يقدم نفسه فداء لنبيه وحبيبه العظيم ! .

وظل المتآمرون بين آونة وأخرى يتطلعون من خلل الباب فيرون عليًّا نائماً ، وهم يحسبونه محمداً ، فيطمئنون إلى موقفهم ، وكانوا قد رأوا من الحكمة أن يؤجلوا فعلتهم إلى الهزيع الأخير من الليل ، وبينما هم على هذه الحال من التربص والانتظار إذا بأحد الناس يفاجئهم بأن محمداً قد بارح داره وهم غافلون ! .

واقتحم المتآمرون الدار وهجموا على الفراش فإذا بهم يجدون فيه على بن أبى طالب لا محمد بن عبد الله ، فيسقط فى أيديهم ، ويمنون بأشنع خيبة لاقوها فى حياتهم ، ولا يجدون منفذاً لتصريف غيظهم غير أن يشتموا عليا ويضربوه ، ويحبسوه ساعات ثم يطلقوه ! .

حامل اللواء :

لما هاجر على بن أبى طالب إلى المدينة كان قد جاوز العشرين

من عمره فاستقبل المعارك التى خاضها الرسول العظيم مع قريش والعرب جميعاً واليهود الخبثاء بعزيمة الإيمان وقوة الجنان ، وكان الله عز وجل قد أنعم عليه بقوة جسدية خارقة ، وشجاعة نفسية فائقة ، ولسنا نجد فى وصفه أصدق من الوصف الذى أورده ابن عبد البر فى كتابه « الاستيعاب »(١) قال :

« كان ربعة من الرجال إلى القصر ما هو ، أدعج العينين حسن الوجه كأنه القمـــر ليلة البدر حسناً ، ضخم البطن ، عريض المنكبين ، ششن(٢) الكفين كأن عنقه إبريق فضة ، أصلع ليس فى رأسه شعر إلا من خلفه ، كبير اللحية ، لمنكبه مشاش(٣) كمشاش السبع الضارى ، لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت إدماجاً ، إذا مشى تكفأ ، وإذا أمسك بذراع أحد أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس ، وهو إلى السمن ما هو ، شديد الساعد واليد ، وإذا مشى للحرب هرول ، ثبت الجنان ، قوى شجاع ، منصور على من لاقاه ! » .

---

(١) الاستيعاب جزء ثالث ص ١١٢٣ طبعة مكتبة نهضة مصر .
(٢) ششن الكفين : أى أن كفيه ضخمتان .
(٣) المشاش : هو رأس العظم .

وكان على حامل لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معظم غزواته ، وقد برزت موهبته الحربية لأول مرة فى غزوة بدر حين بارز شيبة بن ربيعة وقتله . وفى فتح خيبر حين سلمه الرسول اللواء بعد أن قال : « لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ،ويحبه الله ورسوله، ليس بفرار يفتح الله على يديه ، وقد تحققت الفراسة النبوية من أول يوم ، ففتح الله الحصن على المسلمين .

ولم يتخلف على عن غزوة غزاها النبى صلى الله عليه وسلم إلا غزوة تبوك ، فقد استخلفه فيها على أهله ، ولما أبدى علىّ رغبته فى الخروج معه إلى الجهاد ، طيب خاطره ، وقال له : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » .

العالم القاضى الفقيه :

أجمع الصحابة والتابعون على أن على بن أبى طالب كان رأساً فى الفقه والفتوى والقضاء . وأنهم كانوا يلجأون إليه فى حل المعضلات وبيان المشكلات ، وكان عمر بن الخطاب يقول : علىّ أقضانا ويتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن ، ويقول : لولا على لهلك عمر ! .

وقال عبدالله بن عباس : لقد أعطى على بن أبى طالب تسعة أعشار العلم ، وأيم الله لقد شاركـكم فى العشر العاشر ! .

وجاء رجل إلى عمر فسأله : من أين أعتمر ؟ ! فقال : إئت علياً فسله ! .

وقالت السيدة عائشة : من أفتاكم بصوم عاشوراء ؟ قالوا : على ! قالت : أما إنه لأعلم الناس بالسنة .

وقال عبد الله بن مسعود : أعلم أهل المدينة بالفرائض على بن أبى طالب .

وقال على بن أبى طالب : سلونى ! فو الله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتـكم ، وسلونى عن كـتاب الله ، فو الله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم فى سهل أم فى جبل ؟ ! .

وقال سعيد بن عمـــرو بن العاص لعبد الله بن عياش ابن أبى ربيعة : يا عم ، لو كان صفو الناس إلى على ! فقال : يابن أخى ، إن علياً عليه السلام ، كان له ما شئت من ضرس قاطع فى العلم ، وكان له البسطة فى العشيرة ، والقدم فى الإسلام ، والصهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والفقه فى المسألة ، والنجدة فى الحرب ، والجود فى الماعون [1] .

---

(١) جاء فى غريب القرآن لأبى بكر السجستانى أن الماعون : ما ينتفع به المسلم من أخيه كالعارية والإغاثة ونحو ذلك ، وقيل : إنه الزكاة والطاعة .

أمير المؤمنين

لما قتل عثمان بن عفان بايع كبار الصحابة علياً بالخلافة ، وكان ذلك فى شهر ذى الحجة من سنة خمس وثلاثين هجرية . وكان الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله فى طليعة المبايعين ، ثم بدا لهما فيما بعد أن يتحللا من هذه البيعة ، وخرجا ومعهما السيدة عائشة أم المؤمنين من المدينة إلى البصرة يحرضان الناس على علىّ ويتهمانه بالقعود عن نصرة عثمان بن عفان ، والتف حولهما حشد كبير من الناس !.

واضطر على إلى ملاحقتهما بجيشه ، والتقى الجمعان فى معركة مشهورة سميت معركة الجمل[1] ، وكان النصر فيها لعلى ، فلما انتهت استضاف السيدة عائشة وأرسلها إلى المدينة معززة مكرمة وفى صحبتها بعض كرائم السيدات إيناساً لها وترفيهاً عنها ! .

أما طلحة والزبير فقد قتلا بسيوف ليست لعلى ، وإنما بكيد دبره بعض المتطرفين وخبر ذلك مذكور بتفصيل فى كتب التاريخ !.

وكان معاوية بن أبى سفيان أمير الشام قد أبى بيعة علىّ

---

(١) سميت بذلك لأنها دارت حول الجمل الذى كانت تركبه السيدة عائشة .

واتهمه بدم عثمان ، فسار إليه علىّ بجيشه ، والتقى الجيشان فى معركة صِفّين ، وكانت الغلبة فيها لعلى ، ولكنها لم تكن معركة فاصلة !.

ولما رأى معاوية ضعف موقفه الحربى ، أعمل الحيلة ، فأمر جنوده أثناء معركة من المعارك برفع المصاحف على السيوف ، والمناداة بتحكيم كتاب الله فى الفتنة القائمة ، وقد فطن على إلى هذه المكيدة فحذر جيشه من التورط فيها ، ولكنهم خالفوه إذ كانوا قد ملوا القتال ، وركنوا إلى الدعة والسلامة ، ولم يسعه إلا موافقتهم على كره وبصر بالنتائج .

وانتهى الأمر باختيار أبى موسى الأشعرى (1) حكما من قبل علىّ وعمرو بن العاص من قبل معاوية ، واجتمع الحكمان ولم يكن بينهما تكافؤ ؛ فقد كان أبو موسى رجلا لا دربة له على السياسة . وكان عمرو بن العاص داهية فيها . ولذلك نصب عمرو لصاحبه شركا ، فما أسرع أن وقع فيه ! .

اقترح عمرو على أبى موسى أن يخلع كل منهما صاحبه من الخلافة ، ويترك الأمر لجماعة المسلمين ؛ لتختار من يصلح لها أمرها ، ويرد عليها جماعتها ، فخدع أبو موسى بظاهر هذا الاقتراح ، وعده حلاً صائباً ، ولم يداخله شك فى صدق نية

---

(1) أبو موسى الأشعرى من كبار الصحابة وعلمائهم .

عمرو . ومن أجل ذلك وافق عليه وأعلن خلع على بن أبي طالب من الخلافة .

ولما فرغ أبو موسى من قوله وأشهد الناس عليه ، وقف عمرو بنُ العاص ، وأعلن تثبيت معاوية فى الخلافة ، وخلع على منها ! .

وهكذا خسر على هذه المعركة السياسية ، وحاول جاهدا أن يسترد قوته الحربية فلم يستطع إلى ذلك سبيلا .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من السوء ؛ بل انضاف إليه ما هو أسوأ : ذلك أن فريقاً كبيراً من جماعة على ساءهم أن يقبل التحكيم فاتهموه فى دينه، وقالوا: حكّمت الرجال فى دين الله ، والله يقول : « إنِ الحكم إلاَّ للهِ »[1] ثم خرجوا عليه ـ وبذلك سُمُّوا الخوارج ـ وراحوا يعيثون فى الأرض فساداً ، ويغيرون على المدن والقرى ، التى تقع فى رقعة البلاد الموالية لعلى ، ويفتكون بالنساء والأطفال والشيوخ ، فخرج إليهم على ، وحاول ردهم بالحسنى إلى سواء السبيل ، فأبوا إلا القتال ، فتلاقى معهم فى موقعة « النهروان »[2] . فقتلهم ، واستأصل

---

(١) وردت هذه الجملة فى أكثر من آية منها : « إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه » ، سورة يوسف رقم ٤٠ .

(٢) النهروان اسم قرى بين واسط وبغداد من العراق .

جمهورهم ، وكان ذلك فى سنة ثمان وثلاثين من الهجرة . ثم استقر فى الكوفة ، وأخذ يحاول حث أهل العراق على استئناف الجهاد فلم يستجيبوا له ...

غدر واغتيال :

حزّ فى نفوس الخوارج ما لاقوه من هزيمة منكرة فى واقعة النهروان ، وما أصيبوا به من خسائر فادحة فى الأرواح ، ولم يجدوا منفذاً للأخذ بثأرهم غير قتل على غِيلَةً وغدْراً، فانتدبوا لذلك عبدالرحمن بن مُلْجَم . وهو رجل متعصب فاتك ، فكمن له فى المسجد ، وانتظر وقت خروجه لصلاة الفجر ، وطعنه بالسيف فى رأسه طعنة قاتلة ، وهو يقول : الحكم لله يا على ، لا لك ولا لأصحابك ! .

فقال على وقد أحس طعم الموت : فزتُ ورب الكعبة ! (يقصد أنه فاز بالشهادة) ، وشد الناس على القاتل من كل جانب حتى أخذوه . فقال على :

احبسوه ، فإن مت فاقتلوه ، ولا تمثلوا به ، وإن لم أمت فالأمر إلى فى العفو أو القصاص !

وكان العدوان على علىّ فى فجر يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة

خلت من رمضان سنة أربعين من الهجرة ، ومكث يجود بنفسه يومى الجمعة والسبت ؛ ثم فاضت روحه ليلة الأحد ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، وقد مكثت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ونصف شهر ، وقد فجع به المسلمون ، ولم يعرفوا قدره ولا مبلغ خسارتهم بفقده إلا بعد أن أخلى مكانه ، وذهب إلى ربه راضياً مرضيا !.

قال اسماعيل بن محمد الحميرى يرثى عليا بن أبى طالب :

سائل قريشاً به إن كنت ذا عَمَه ... من كان أثبتَها فى الدين أوتادا
من كان أقدم إسلاماً وأكثرَها ... علماً وأطهرَها أهلا وأولادا
من وحَّد الله إذ كانت مُكَذِّبَةً ... تدعو مع الله أوثاناً وأندادا
من كان يقدم فى الهيجاء إن نكلوا ... عنها وإن ينجلوا فى أزمة جادا
من كان أعدَلها حكماً وأبسطها ... علماً وأصدقها وعداً وإيعادا
إن يصدقوك فلن يعدوا أبا حسن ... إن أنت لم تلق للأبرار حسَّادا
إن أنت لم تلق أقواماً ذوى صَلَفٍ ... وذا عِناد لحق الله جحَّادا



معاوية بن أبي سفيان

كان أدباء الصدر الأول من الإسلام يقولون : دهاة العرب ثلاثة : معاوية بن أبى سفيان ، وعمرو ابن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وقد كان هؤلاء الدهاة الثلاثة من كبار الصحابة ، وأهل الرأى والبصر بالأمور فيهم ؛ وفى مكان الصدارة من القيادة والتوجيه بينهم ، استووا ثلاثتهم فى الإمارة وبَرَّزَ عليهم معاوية بالخلافة ، وبفضيلة أخرى قل أن تجتمع مع خلافة أو ملك ، ألا وهى الحلم الواسع الذى لا حَد له ولا نهاية . . . قال معاوية يصف نفسه فى هذا المقام : لو أن بينى وبين قريش شعرة ما قطعت !.. فلما قيل له : وكيف ذاك ! قال : إذا شدُّوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شددتها ! ولسنا نجد فى صفته خيراً مما وصف هو به نفسه .

نشأ معاوية فى بيت رياسة ، فقد كان والده أبو سفيان ابن حرب رئيسَ قريش وزعيمها قبل إسلامها ، وأسلم معاوية ووالده وأخوه يزيد عام الفتح ، وكانوا من المؤلفة قلوبهم ، وقد أجزل لهم النبى صلى الله عليه وسلم العطاء من مغانم حنين حتى أطلق لسان أبى سفيان بالشكر والثناء !.

وكان معاوية أثناء حياة النبي صلى الله عليه وسلم من كُتَّاب الوحي ، فلما سُيِّرت الجيوش نحو الشام فى خلافة أبى بكر كان أحد الجنود الغزاة فى الجيش الذى كان يرأسه أخوه يزيد ابن أبى سفيان ، وقد انتدبه أخوه لقيادة بعض الجيوش ، ففتح طائفة من البلاد ومنها مدينة قيسارية .

ولما مات أبو عبيدة بن الجراح أمير الشام على عهد عمر أمَّرَ عمر يزيد بن أبى سفيان عليها ، فمات وهو واليها . ولما حضرته الوفاة عهد إلى أخيه معاوية بشئون الولاية فأقرّ عمر هذا العهد ، وعين معاوية أميراً على الشام ، فظل فى منصبه هذا طوَال المدة الباقية من خلافة عمر ، ومدةَ خلافة عثمان كلها وهى حوالى اثنى عشر عاما .

وكان عمر بن الخطاب ـ على فرط حرصه وحذره ـ يقدّر معاوية حق قدره ، ويتجاوز له عن بعض الأمور التى لم يكن يتجاوز عن أصغر منها لغيره من الولاة ، وله معه مواقف تؤكد ذلك كل التأكيد !.

زار عمر الشام ومعاوية أمير عليها ، فاستقبله فى موكب عظيم ، فلم يسع عمر حين بدت طلائع الموكب إلا أن يقول لمن معه : هذا كسرى العرب ! .

فلما دنامنه معاوية قال له : أنت صاحب هذا الموكب ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! قال : مع ما يبلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ قال : مع ما يبلغك من ذلك ! قال : ولم تفعل هذا ؟ فقال معاويه :

نحن بأرضٍ جواسيس العدو بها كثيرة ، فيجب أن نُظهر من عز السلطانً ما نرْهبهم به : فإن أمرتنى فعلت ، وإن نهيتنى انتهيت ! .

فقال عمر : ما أسألك عن شىء إلا تركتنى فى مثل رواجب الضّرس (١) ! إن كان ما قلت حقًّا إنه لرأى أريب ، وإن كان باطلا إنه لَخدْعة أديب ! .

قال معاوية : فمرنى يا أمير المؤمنين ! .

قال عمر : لا آمرك ولا أنهاك ! .

فقال عمرو بن العاص وكان حاضر هذا الحديث : ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه ! .

فقال عمر : لحسن مصادره وموارده جشّمناه ما جشمناه (٢) !

ويظهر من هذه المحاورة أن عمر قد استسلم لمعاوية على غير

---

(١) كناية عن الحيرة .

(٢) أى كلفناه ما كلفناه .

يقين بسلامة تصرفاته من وجهة نظره هو ، ولكنه آثر النزول على رأى القائل : صاحب البيت أدرى بالذى فيه ، وليس فى تاريخ عمر أثناء خلافته موقف يشبه هذا الموقف مع الأمراء . . لقد كان عنيفاً معهم ، شديد الحرص على أن يمثلوا وجهة نظره هو لا وجهة نظرهم هم ، وذلك مما يدل على علو رأيه فى معاوية وعظم تقديره إياه . وقد يكون فى إيراد الواقعة التالية ما يؤكد المعنى الذى ذهبنا إليه :

ذُمَّ معاوية يوما عند عمر ، فقال :

دعونا من ذمّ فتى قريش ، من يَضحك فى الغضب ، ولا ينال ما عنده إلا على الرضا ، ولا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه ! .

إن الصورة التى رسم بها عمر معاوية فى هذه الأوصاف معبرة جداً ، محدّدة كل التحديد شخصية الرجل السياسى على النحو الذى ترسم عليه هذه الأيام ، بل إن أعظم الناس خيالا وأوسعهم إدراكا فى وقتنا هذا لو أراد أن يصور سياسيا ماهراً لما تهيأ له من دقة التصوير وتجسيم الرسم ما تهيأ لعمر من ذلك فى سهولة وحسن إيراد ! .

الفتنة الكبرى

لما حدثت الفتنة الكبرى إثر مقتل عثمان ، رأى معاوية أنه أولى الناس مطالبة بدمه إذ كان ابنَ عمه ووالياً على الشام من قبله. ومن أجل ذلك امتنع عن مبايعة على بن أبى طالب واعتصم بالشام.

وكان معاوية قد تمكن من الشام لسببين مهمين هما : أنه كان قد أمضى ستة عشر عاماً أميراً عليها . وأنه كان والياً محسناً إلى أهلها ، يسوسهم بالحكمة ، ويجزل لهم العطاء ، ومن أجل ذلك التفوا حوله وأطاعوه طاعة عمياء ، فلما حدث العراك بينه وبين علىّ بن أبى طالب كان أهل الشام وراءه كالبنيان المرصوص ، لا جدل ولا خلاف ، ولا مراوغة ولا اعتراض ، وكان الأمر عند علىّ على نقيض ذلك تماماً : كان أهل العراق يكثرون من جداله فى معظم ما يتخذه من التدابير ، ويخرجون على أحكامه ثم عصوه أخيراً جِهاراً صراحا ؟.

قال معاوية : أعنت على علىّ بثلاث : كان رجلا ربما أظهر سره ، وكنت كتوماً لسرى ، وكان فى أخبث جند وأشده خلافاً عليه ، وكنت فى أطوع جند وأقله خلافاً علىّ . ولما ظفر بأصحاب الجمل لم أشك أن بعض جنده سيعد ذلك وهناً فى دينه ،

ولو ظفروا به كان وهناً فى شوكة . ومع ذلك فكنت أحبَّ إلى قريش منه لأنى كنت أعطيهم وكان يمنعهم ! .

وقد أنصف معاوية عليًّا بهذا الحكم كلَّ الإنصاف ، ولم يبال فى تقريره الحقيقة فإن فى بعض ما ساقه ما يمسه من وجهة نظر المستمسكين بأسباب الكمال الروحى ، ومنحى الأخلاق الدينية ، ذلك أنه كان يصدر فى حكمه عن رجل السياسة بمفهومها المطلق ! .

أمير المؤمنين معاوية

أوردنا فى ترجمة علىّ بن أبى طالب خلاصة موجزة عن حروبه مع معاوية وإفضاء الأمر إلى قتله على يد رجل كان من جنده .

ولما قتل علىّ بايع أصحابُه الحسنَ ابنه وكان سيداً كبير النفس عظيم الهمة تسموا روحانيته على مفاتن الدنيا وأبهة الملك . ويقول المؤرخون إنه كان أحب إلى جنده من أبيه ، ولكنه أعمل رأيه فى الموقف بصفاء نفس ونور بصيرة فرأى أنه إذا استرسل فى حرب معاوية سيعرّض نفوس المسلمين للهلاك ، وكلتَهم إلى مزيد من الشقاق فراسل معاوية يفاوضه فى الصلح والتنازل عن الخلافة له ،على شرط أن يكون له الأمر من بعده ، فرحب معاوية

بهذا الاقتراح وتم الأمر على هـــذا الأساس ؛ ولـكن المنية عاجلت الحسن بن على فمات فى حياة معاوية ، وعلى ذلك استقر له أمر الخلافة سنة إحدى وأربعين هجرية ، ومكث خليفة قرابة عشرين عاما .

* * *

نحب أن نختم هذه الترجمة بالحكاية الآتية :

وفد المِسور بن مَخرَمة[1] على معاوية بعد أن خلا له وجه الخلافة فقال له : ما فعل طعنك على الأئمة يا مسور ؟ قال مسور: فقلت : دعنا من هذا وأحسِن فيما قَدِمنا له ! .

قال : والله لتكلمن بذات نفسك ! قال : فلم أدع شيئاً أعيبه عليه إلا بيَّنته له! فقال : لا أتبرأ من الذنوب ، فما لك يامسور ذنوب تخاف أن تهلك إن لم يغفرها الله لك ؟ فقلت : بلى ! قال : فما جعلك أحق أن ترجو المغفرة منى ! . فوالله لما ألى من الإصلاح بين الناس ، وإقامة الحدود ، والجهاد فى سبيل الله ، والأمور العظام التى لست أحصيها ولا تحصيها ، أكثرُ مما تلى .

---

(١) المسور بن مخرمة القرشى الزهرى من أفاضل الصحابة وعلمائهم وكانه شديدا على أهل الفتنة مستقيما صالحا ، حتى أن الخوارج أنفسهم كانوا يعظمونه

وإنى لعلى دين يقبل الله فيه الحسنات ، ويعفو عن السيئات . والله لعلى ذلك ما كنت لا أخَـيَّر بين الله وبين ما سواه إلا اخترت الله على ما سواه ! .

قال مسور : ففكرت حين قال ما قال ، فعرفت أنه خصمنى[1] عمرو بن العاص .

كان عمرو بن العاص فى الجاهلية أحد رجال قريش المعدودين وواحداً من أبنائها المبرّزين ، وقد انتدبته لمهمة سياسية بالغة الخطر عندها لعظم تعويلها عليه فى الملمات التى تحتاج إلى كياسة ودهاء . فأما هذه المهمة فهى تحريض النجاشى ملك الحبشة على طرد مهاجرى المسلمين من بلاده بعد أن استقبلهم فيها على الرحب والسعة !

وسافر عمرو ومعه رجل آخر من قريش إلى الحبشة ، وقابلا النجاشى ولجآ إلى الحيلة والكيد للمسلمين عنده ليظفرا منه بما أرادا ، ولكنه كان رجلا عظيم الخلق كبير العقل فرد كيدهما فى نحرهما وأرجعهما خائبين .

وكان من بين ما لجآ إليه من أسباب الكيد للمسلمين محاولة

---

(١) خصمنى : غلبنى فى الخصومة .

الوقيعة بين الإسلام والمسيحية ، وكان النجاشي مسيحيًّا،فما كان منه إلا أن استدعى بعض كبراء المهاجرين ، وناقشهم فى أصول الدين الإسلامى ، وقارنها بأصول المسيحية الصحيحة فلم ير فارقاً بينهما ، بل تذكر بعض المصادر الإسلامية أنه أسلم حقا .

ويقول عمرو بن العاص نفسه : إن النجاشى عاتبه على الاستمساك بالوثنية ، وقال له :

كيف يعزب عنك أمر ابن عمك ، فو الله إنه لرسول الله حقًّا ! .

فقال عمرو : أنت تقول ذلك ! .

فقال النجاشى : إى والله ، فأطعنى ! .

ويعلق عمرو على هذا الحديث بقوله : فوالله لقد وقع أمر الإسلام فى نفسى منذ ذلك اليوم !

ويعلل عمرو سبب تأخره عن الإسلام بما كان لطواغيت قريش من السيطرة على نفوس شبابها ، وكان أبوه العاصى ابن وائل منهم . فلما ذهبوا [1] وصار الأمر إلينا ، نظرنا وتدبرنا فإذا هو حق بين ، فوقع فى قلبى الإسلام .

---

(١) كان إسلام عمرو بعد وفاة أبيه .

وصحَّت عزيمة عمرو على الإسلام فى السنة الثامنة للهجرة ، فخرج من مكة مهاجراً . والتقى فى طريقه إلى المدينة بخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة ، وقد خرجا مهاجرين يطلبان الإسلام كذلك فصحبهما ، ووصلا جميعاً إلى المدينة ، ونزلوا بضاحيتها ليتهيأوا لمقابلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وشاع خبر وصولهم مسلمين ، فسر لذلك الرسول الكريم سروراً بالغاً ، وقال :

« قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » .

قال عمرو بن العاص يروى قصة إسلامه : لما بايع خالد ابن الوليد ، وعثمان بن طلحة النبي صلى الله عليه وسلم ، تقدمت فما هو والله إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفى حياء منه ، فبايعته على أن يغفر الله لى ما تقدم من ذنبى ، ولم يحضُرنى ما تأخر !.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الإسلام يَجُبُّ[1] ما كان قبله ، والهجرة تجب ما كان قبلها » .

قال عمرو : فوالله ما عَدَل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحداً من الصحابة فى أمر حرب منذ أسلمنا .

---

(١) يجب : يقطع .

ولقد كنا عند أبى بكر بهذه المنزلة . ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة ، وكان عمر على خالد كالعاتب .

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص رئيساً على الجند فى غزوة ذات السلاسل [1] ، ثم أمده بطائفة أخرى فيها أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح . ثم ولاه على عمان فظل أميراً عليها حتى لحق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى .

ولما استخلف أبو بكر عينه قائداً لأحد الجيوش الكبرى ، ووجهه نحو فلسطين ففتح كثيراً من مدنها ، ثم عينه عمر ابن الخطاب والياً على فلسطين والأردن .

وكان عمر بن الخطاب عظيم القدر له جداً ، شديد الإعجاب بعقله وذكائه ، ويؤثر عنه أنه رأى مرة رجلا يتلجلج فى حديثه، ويشرد فى أفكاره ، فقال :

خالقُ هذا وخالقُ عمرو بن العاص واحد !

وانتدب عمر بن الخطاب عمرو بن العاص لفتح مصر ففتحها الله عليه ، وعينه أميراً عليها ، فظل كذلك حتى وفاة عمر وبضع سنين من خلافة عثمان ، ثم عزل عنها ، فاستوطن فلسطين . وكان

---

(١) كانت غزوة ذات السلاسل فى السنة الثامنة من الهجرة .

ينزل إلى المدينة أحياناً ، ولا يفوته أن يعلن الخليفة برأيه فيما لا يروقه من التدابير !.

ولما قتل عثمان ونشبت الفتنة بين على ومعاوية ، راسل معاوية عمرًا فلحق به، وكان وزيره ومشيره، وقد أسلفنا فى ترجمة على ومعاوية قدراً كافيا للتدليل على ما كان لعمرو بن العاص من الأثر الشديد فى توجيه الأمور لصالح معاوية فلا داعى لتكراره هنا !.

ولما استتب الأمر لمعاوية عينه والياً على مصر حتى أدركته الوفاة بعد أربع سنين من ولايته ، وكان قد نَيَّف على التسعين من عمره ، وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعين من الهجرة !.



المغيرة بن شعبة الثقفي

أسلم أهل الطائف جميعاً في الإسلام حتى كان المغيرة بن شعبة قد طارت شهرته بين العرب فى الدهاء والذكاء ، وقد اقترن إسلامه بواحدة من أحابيله: تلك هى أنه صحب جماعة من المشركين فى سفر فقتلهم واستولى على أموالهم ، وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم مسلِماً ، وعرض عليه الأموال التى استلبها من ضحاياه ، فقبل إسلامه ، وقال :

« أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شىء »[1]

ولهذه القصة تتمة ، فقد حدث أثناء مفاوضات الصلح التى جرت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش يوم الحديبية أن جاء عروة بن مسعود الثقفى من قبل قريش مفاوضاً ، فجعل يكلم الرسول الكريم ، ويمس لحيته ، قال المغيرة بن شعبة وكان يلبس عدة الحرب ولا يبد وجهه منها — : اكفف يدك قبل أن لا تصل إليك ! .

فقال عروة : يا محمد ، من هذا ؟ ما أفظَّه وأغلظه ؟ ! .

---

(١) هامش الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى جزء ١٤ ص ١٣٥ طبعة الساسى .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة ! » .

فقال عروة : ياعدو الله ما غسلتُ عنى سوءتك إلا بالأمس ياغُدَر ! . وكان عروة يقصد من هذه الإشارة إلى أنه قد تحمل ديات الرجال الذين قتلهم المغيرة.

قال الشعبي : دهاة العرب معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو ابن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، فأما معاوية فللأناة والحلم ، وأما عمرو فللمعضلات ، وأما المغيرة فللمبادهة ، وأما زياد فللصغير والكبير ! .

وكان يقال للمغيرة : مغيرة الرأى ، وقال أحد من لازموه فى حياته : صحبت المغيرة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالمكر لخرج المغيرة من أبوابها كلها .

شهد المغيرة معركة اليمامة وفتوح الشام والعراق واليرموك وأصابه سهم أَوْدَى بعينه فيها ثم ولاه عمر البصرة ، ففتح عدة بلاد من بلاد العراق ثم عزله عنها ، وولاه الكوفة بعد ذلك .

قال رجل من قريش لعمر بن الخطاب : ألا تتزوج أم كلثوم بنت أبي بكر ، فتحفظه بعد وفاته ، وتخلفه فى أهله ؟! فقال عمر : بلى إنى لا أحب ذلك ، فاذهب إلى عائشة ، فاذكر لها ذلك ،

وعد إلى بجوابها . ومضى الرسول إلى عائشة فأخبرها بما قال عمر فأجابته إلى ما طلب وقالت حبًّا وكرامة.

ودخل عليها عقب ذلك المغيرة بن شعبة فرآها مهمومة ، فقال لها : مالك يا أم المؤمنين ؟ فأخبرته برسالة عمر ، وقالت : إن هذه جارية حَدَثة[1] وأردت لها ألين عيشاً من عمر ! .

فقال المغيرة : عليَّ أن أكفيك ! وخرج من عندها فدخل على عمر ، فقال : بالرِّفاء والبنين ، فقد بلغنى ما أتيته من صلة أبي بكر فى أهله ، وخطبتك أم كلثوم !.

فقال عمر : قد كان ذاك !

فقال المغيرة : إنك يا أمير المؤمنين رجل شديد الخلق على أهلك، وهذه صبية حديثة السن . فلاتزال تنكر عليها الشيء فتضربها، فتصيح فيغمك ذلك ، وتتألم له عائشة ، ويذكرون أبا بكر فيبكون عليه ، فتجدد لهم المصيبة مع قرب عهدها فى كل يوم .

فقال عمر — متى كنت عند عائشة ، واصدقنى ؟ ! .

فقال : كنت عندها آنفاً ! .

فقال عمر : أشهد أنهم كرهونى ، فتضمنت لهم أن تصرفنى عما طلبت ، وقد أعفيتهم !

---

(١) حدثة : حديثة السن :

ولى عمر المغيرة على البحرين ، وكان بها كثير من الأعاجم على دينهم فكرهوه وأعملوا الحيلة فى عزله ، فشكوه إلى عمر فعزله ولكنهم خافوا أن يعيده إليهم بعد أن يقف على بطلان شكواهم منه ، فجمعوا من بينهم مائة ألف درهم وأحضرها دهقانهم[1] إلى عمر ، فقال : ما هذه؟ قال : هذه أموال اختانها المغيرة فأودعها عندى !.

فدعا عمر المغيرة ، فسأله عن جليّة الأمر فقال: كذب الدهقان إنما كانت مائتى ألف ! فقال عمر : وما حملك على ذلك ؟! قال : كثرة العيال ! .

فسُقِط فى يد الدهقان ، وراح يحلف بأغلظ الأيمان أن المغيرة لم يودع عنده قليلا ولا كثيراً .

فقال عمر للمغيرة : ما حملك على هذا ؟ قال: إنه افترى علىّ فأردت أن أخزيه ! .

***

لما بويع لعلى بالخلافة جاءه المغيرة ، فقال : يا أمير المؤمنين إن عندى لك نصيحة ! قال ماهى ؟ قال : إن أردت أن يستقيم لك الأمر فاستعمل طلحة بن عبيد الله على الكوفة ، والزبير بن العوام على البصرة ، وابعث بعهد معاوية على الشام حتى تلزمه طاعتك ،

---

(١) الدهقان : بضم الدال أو كسرها مع سكون الهاء لقب رياسة عند الأعاجم .

فإذا استقرت لك الخلافة ، فأدرها كيف شئت برأيك ! .

فقال على : أما طلحة والزبير فسأرى رأيي فيهما ، وأما معاوية فلا والله لا أرانى مستعملا له ولا مستعيناً به مادام على حاله ، ولكنى أدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أبى حاكمته إلى الله ! .

فلما كان من غد جاء المغيرة عليًّا فقال : إنى فكرت فيما أشرت به عليك أمس ، فوجدته خطأ ، ووجدت رأيك أصوب ! .

فقال على : لم يخف على ما أردت . قد نصحتنى فى الأولى ، وغششتنى فى الآخرة ، ولكنى والله لا آتى أمراً أجد فيه فساداً لدينى طلباً لصلاح دنياى ! .

ثم ذهب المغيرة فاعتزل الفتنة ، ولم يناصر واحداً من الفريقين على الآخر ، حتى أجمع الناس على معاوية بعد مقتل علىّ ، فذهب إليه ، فولاه الكوفة .

* * *

كان بين المغيرة بن شعبة — وهو وال على الكوفة — وبين مَصْقَلة بن هُبَيرة الشيبانى(١) تنازع ، فضرع له المغيرة ، وتواضع فى كلامه حتى طمع فيه مصقلة ، واستعلى عليه ، فشتمه وقذفه ،

(١) هو أحد زعماء بنى شيبان .

فأشهد عليه المغيرة ، وحاكمه إلى شريح القاضى ، وأقام عليه البينة فضربه الحد ، فآلى مصقلة على نفسه أن لا يقيم ببلدة فيها المغيرة ما دام حَيًّا، وخرج إلى بنى شيبان بالبادية فنزل فيهم .

فلما مات المغيرة سنة خمسين هجرية ، عاد مصقلة إلى الكوفة فرحب به بنو شيبان المقيمون بها ، فما فرغ من التسليم عليهم حتى سألهم عن مقابر ثقيف فأرشدوه إليها ، فجعل قوم من مواليه الذين كانوا فى صحبته يلتقطون الحجارة وهم فى الطريق ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : ظننَّا أنك تريد أن ترجم قبره ، فقال : ألقوا ما فى أيديكم . ثم انطلق حتى وقف على قبرة المغيرة ، فقال :

والله لقد كنتَ فيما علمتُ نافعاً لصديقك ، صابراً لعدوك ، وما مثلك إلا كما قال مهلهل فى أخيه كُلَيْب :

إن تحت الأحجار حزماً وعزماً
وخصيما ألدَّ ذا مغلاق[1]
حيَّةً الوِجار أرْبَدَ لا ينـ ـفع منه السليمَ نفثُ الراق[2]

(١) المغلاق : اسم سهم من سهوم القداح الرابحة فى الميسر . والمعنى متجه إلى السيادة والرياسة .

(٢) الوجار : حجر الوحش والسليم هو المصاب بعض الأفاعي أطلق عليه من باب التفاؤل بشفائه ، والنفث هو النفخ وهو ما كان يفعله الراق من عض الأفاعي فينفخ مكان الجرح .

سعد بن عُبادة
رئيس الخزرج

كان سعد بن عبادة رئيس الخزرج سيداً فى قومه ، حسيباً نسيباً ، كريماسخيًّا ، ورث الكرم عن أبيه وجده ، وصار بيته عند مطلع الإسلام مضرب المثل فى الجود والعَراقة . كان جده دُليم ينادى فى يوم مُعَيَّن من كل سنة : من أراد الشحم واللحم فليأت دار دليم ، فمات دليم ، فنادى منادى عبادة بمثل ذلك . ثم مات عبادة فنادى منادى سعد بمثل ذلك . ولما مات سعد جرى ابنه قيس على عادة أبيه وأجداده . وكان يقال : إنه لم يكن فى الأوس والخزرج أربعة مطعمون متتالون فى بيت واحد إلا بيت سعد بن عبادة ! .

لقد أردنا بهذا التعريف أن نبين مكانة سعد بن عبادة فى قوم بنى الخزرج ، لنخلص من ذلك إلى بيان مبلغ الكسب الذى ظفر به الإسلام حين أسلم سعد بن عبادة ليلة العقبة [1] ، وأصبح إسلامه حافزاً لقومه جميعاً على اتباع الدين الحنيف ، ومحرضاً

---

(١) العقبة : موضع بمكة اجتمع فيه النبي صلى الله عليه وسلم بجماعة من أهل يثرب فأسلموا . ثم تحالفوا معه على نصرته وهجرته إليهم كما هو معروف.

بني الأوس على الدخول فيما دخل فيه بنو أعمامهم وأعداؤهم الألداء قبل الإسلام !.

حين تمت مبايعة الأنصار النبي صلى الله عليه وسلم، ليلة العقبة الثانية، تسامعت قريش بذلك، فهالها الأمر وكَرَبها الخطب، إذ أنها أدركت مايتهددها من خطر إذا استندت الدعوة الإسلامية إلى الأوس والخزرج وهم مَنْ هم شجاعة وإقداماً، فطلبوهم بين الحجيج فلم يظفروا بهم !.

ولكن حدث أن أهل العقبة بعثوا سعد بن عبادة والمنذر ابن عمرو إلى مكة ليبتاعا طعاما لهم، فتعرف عليهم أهل مكة، فأما المنذر بن عمرو فقد سبقهم وأفلت منهم، وأما سعدبن عبادة فإنهم أخذوه وضربوه ضرباً مبرّحاً حتى غطى الدم وجهه وثيابه فرحمه رجل من قريش ودنا منه، فقال: ويحك ! أما لك فى مكة من تستجير به ؟ فقال: لا ! إلا أن العاصي بن وائل السهمى - والد عمرو بن العاص - قد كان يقدم علينا المدينة فنكرمه ! واتفق أن مخاطبه كان من بني سهم، فصاح فى قريش: لقد ذكر ابن عمى، والله لا يصل إليه أحد منكم، فكفوا عنه، وكان اسم الرجل الذى أجاره: عدى بن قيس السهمى، وقد أسلم بعد ذلك.

ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبنى لنفسه ؛

استضافه سعد بن عبادة طوال حياته الشريفة ، فكان يرسل إليه كل يوم جفنة كبيرة من الثريد إما باللحم وإما باللبن ، وكانت هذه الجفنة تتبع النبي صلى الله عليه وسلم حيث يتنقل بين زوجاته ، بل لقد ذهب بعض المؤرخين (١) إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب المرأة ، ويصدقها ، ويَشترِط لها صفحة سعد ، تدور معه إذا دار عليها !.

وكان الرجل من المسلمين يستضيف واحداً أو اثنين من أهل الصُّفَّة ، وكان سعد بن عبادة يستضيف خمسين أو ثمانين منهم فى معظم الأيام .

. . .

لما اعتزم الرسول الكريم الخروج إلى بدر أخذ سعد بن عبادة يدور على البيوت ويندب الرجال للخروج معه ، فلدغ أثناء تجواله وحال ذلك بينه وبين شهود هذه الواقعة ، ومن أجل ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« لئن كان سعد ما شهد بدراً ، لقد كان حريصاً عليها ».

وشهد سعد بن عبادة مع النبى صلى الله عليه وسلم جميع

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي الجزء الأول ص : ١٩٨ طبعة معهد المخطوطات العربية .

مشاهده بعد بدر ، وكانت راية الأنصار معه ، وراية المجاهدين مع على بن أبى طالب .

وحدث يوم فتح مكة أن مرَّ سعد بن عبادة على أبى سفيان — وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أمر أن يمر به الجيش لتهوله عظمته — أن قال :

اليومَ يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذلَّ الله قريشاً ! .

فلما أقبل الرسول عليه الصلاة والسلام فى ركبه وحاذى أبا سفيان — وكان قد أسلم — ناداه يارسول الله ، أمرت بقتل قومك ! .

فإنه زعم سعد ومن معه حين مرّ بنا أنه قاتلنا ، ثم أعاد ما قاله سعد وعقب على ذلك بقوله : وإنى أنشدك الله فى قومك فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم ! .

فقال الرسول الكريم : لا يا أبا سفيان « اليوم يوم المرحمة اليوم أعز الله قريشاً » ثم أمر أن تنزع الراية من سعد ، وتعطى لابنه قيس ، ورأى أن اللواء لم يخرج عنه إذ صار إلى ابنه ! .

ولسعد بن عبادة موقف جليل شارك فيه سعد بن معاذ سيد الأوس ، فقد حدث حين أحاط الشر بالمسلمين من كل جانب

فى غزوة الأحزاب ، وظاهر يهود بنى قرَيْظة جيوش قريش وحلفاءها ، أن اتجه النبى صلى الله عليه وسلم إلى مفاوضة عيينة بن حصن الفَـزارى وكان تحت إمرته بضعة ألوف من الجنود فى أن ينسحب عن المدينة بجيشه على أن يعطيه ثلث تمر المدينة ، ولكنه حرص قبل عقد العهد أن يقف على رأى سعد بن عبادة رئيس الخزرج وسعد بن معاذ رئيس الأوس ، فاستدعاهما وعرض عليهما الأمر ، فقالا :

يارسول الله ، إن كنت أمرت بشىء فافعله وامض له ، وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف !.

فقال : « لم أؤمر بشىء ، ولو أمرت بشىء ماشاورتكما ، وإنما هو رأى أعرضه عليكما ! » .

فقالا : والله يارسول الله ماطمعوا بذلك منّا قطّ فى الجاهلية ، فكيف اليوم ، وقد هدانا الله بك ، وأكرمنا وأعزّنا ، والله لا نعطيهم إلا السيف !.

فَسُـرَّ بذلك الرسولُ الكريم ودعا لهما، ثم قال لعيينة بن حصن ومن معه : « ارجعوا فليس بيننا وبينكم إلا السيف ! » .

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رشح سعد بن عبادة نفسه خليفة على المسلمين ، واجتمع بنفر من الخزرج والأوس

فى سقيفة بنى ساعدة فقصد إليه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ، وتداولوا فى الأمر.

ولم يكن من الصعب إظهار أولوية أبى بكر فى هذا المقام على جميع المسلمين ، وذلك لقِدم سابقته فى الإسلام والتوجيه المستفاد من تقديم النبى صلى الله عليه وسلم له فى جميع المواطن ولا سيما إصراره على أن يخلفه فى الصلاة بالمسلمين أثناء مرضه ، ومن أجل ذلك بايع الأنصار جميعاً — ما عدا سعدَ بن عبادة — أبا بكر بالخلافة .

أما سعد بن عبادة فإنه لزم بيته ولم يَهِجه أبو بكر ، فلما استُخلف عمر ، خرج سعد إلى حوران ومات بها ،لستين ونصف مضتا من خلافة عمر.



سعد بن معاذ
رئيس الأوس

كان سعد بن معاذ رئيس الأوس عند النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة للأنصار كما كان أبو بكر عنده بالنسبة للمهاجرين ، وكان الرسول الكريم يحبه ويعظمه ويقدمه ، وكان أهلا لذلك لما فطره الله عليه من الاستقامة والمروءة والنجدة ا.

أسلم سعد بن معاذ قبل هجرة الرسول الكريم إلى المدينة ببضعة أشهر ، وكانت لإسلامه قصة طريفة تتلخص فى أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل مصعب بن عُمَير القرشى وأحد السابقين إلى الإسلام إلى المدينة قبل الهجرة ؛ ليفقّه من أسلم من أهلها فى الدين ، ويؤمهم فى الصلاة .

وبلغ سعدا ذات يوم أن مصعب بن عمير ومعه بعض مسلمى الأوس وعلى رأسهم أسيد بن حضير — وكان ابن خالة سعد — يجلسون فى بستان قريب منه يتدارسون الدين ، فأرسل إليهم أسعد بن زرارة أحد زعماء الأوس ليزجرهم عن ممارسة شئون دينهم علانية ، وينهاهم عن إغواء بنى قومه وإدخالهم فى هذا الدين الجديد ، ولكن أسعد راح إلى القوم فسمع القرآن وشرح الله

صدره للإســلام ، فرجع إلى سعد مسلماً ، وأراد أن يدخله فى الإسلام فاحتال عليه وادّعى أن جماعة من بنى حارثة قد تنادوا للهجوم على أسيد بن حضير ومن معه ، فحمى سعد حِفاظاً لابن خالته ، وأخذ ســلاحه ، ومضى نحو الجماعة ، فلم يجد حربا ولا شِجارا ، وعلم أن أسعد بن زرارة قد احتال عليه ليجىء به إلى القوم ، ويسمع حديثهم ! .

ووقف سعد على رأس أسيد بن الحضير ومن معه ، فقال : يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما بينى وبينك من القرابة . مارمت هذا منى ، أتغشانا فى دارنا بما نكره ؟! .

فابتدره مصعب بن عمير فقال : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ! .

فقال سعد : أنصفت ! ثم ركز حربته وجلس ، فقرأ مصعب عليه القرآن ، وعرض عليه الإسلام ، فاطمأنّ قلبه وانشرح صدره ، ثم قال : كيف تفعلون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين ؟ فأرشدوه إلى مدخل الإســلام من الطهور والشهادتين والصلاة ، ولم يبرح مجلسهم حتى كان مسلماً !.

ورجع سعد إلى قومه فقال :

يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟! .

قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة ! .

قال : فإن كلامكم ، رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله ، فما أمسى فى دور بنى عبد الأشهل — وهم سادة الأوس — رجل أو امرأة إلا على الإسلام ! .

وكان لسعد بن معاذ موقف ليس كمثله فى نصرة الإسلام ، وليس من المبالغة فى شيء القول بأنه لولا موقف سعد هذا لما كان أحد يعلم إلا الله ماذا سيكون مصير الدعوة الإسلامية ، ومتى تظفر بالفرصة التى تهيء لها الفوز والانتشار إذا فاتتها هذه الفرصة السانحة ! .

وقد ـ عنينا بما ذكرنا ـ موقفه يوم بدر حين خرج النبى صلى الله عليه وسلم بأصحابه ليلاحق تجارة قريش ، وتوقع أن تكون هناك حرب بينه وبينها ، وقد علم أنها خرجت لتدافع عن عيرها[1] ، لقد كانت كثرة أصحابه الذين خرجوا معه من الأنصار ، ولم يكن العهد الذى قطعه الأنصار على أنفسهم من مناصرة الرسول يلزمهم أن يحاربوا معه خارج المدينة ، فأراد أن يطمئنّ إلى موقفهم ، فشرح الأمر لأصحابه جميعاً ، وكيف أن احتمال الحرب أصبح قريباً ، ثم قال : « أشيروا على أيها الناس»

---

(١) العير : قافلة التجارة .

فوقف بعض المهاجرين ، وقال خيراً ، فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم ما قال ، وفطن سعد بن معاذ إلى قصده ، فقال : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله !.

فقال : نعم !.

فقال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فهو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا،إنا لصُبُرٌ فى الحرب صُدُق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينُك ، فسر بنا على بركة الله !.

وقد سُرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بمقالةسعد ، وقال : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين[1] ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم ! ».

ولما تواقف الفريقان وأزف القتال جاء سعد بن معاذ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتوسط صفوف المسلمين ، وقال :

---

(١) أى النصر أو الاستيلاء على تجارة قريش .

يا رسول الله ، ألا نبنى لك عرشاً تكون فيه ، ونعد لك ركائبك ، ثم نلتى عدوّنا ، فإن أعزّنا الله تعالى وظهرْنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام . يانبى الله ما نحن أشدّ لك حبًّا منهم ، ولا أطوع لك رغبة منهم فى الجهاد ونيَّة ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، إنما ظنوا أنها العير ، يمنعك الله بهم ، ويناصحونك ويجاهدون معك ! .

فقال عليه الصلاة والسلام : « أو يقضى الله خيراً من ذلك » أى النصر ، ومع ذلك أقيم العريش على أنه تدبير من تدابير الوقاية السليمة ، وكان على تلّ مرتفع يشرف على المعركة ، ووقف على بابه سعد بن معاذ ، وجماعة من صفوة المهاجرين والأنصار لحراسة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وشهد سعد بن معاذ واقعة الخندق ، ولما شاع أن يهود بنى قريظة قد حالفوا قريشاً والأحزاب أرسله النبى صلى الله عليه وسلم هو وسعد بن عبادة رئيس الخزرج ليتبينا جلية الأمر ، فأساء اليهود استقبالهما ، وتطاولوا عليهما وعلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن أجل ذلك اشتد حَنَق سعد بن معاذ عليهم لأنهم كانوا حلفاء الأوس فى الجاهلية ، وقد انتهزوا أنسوا

المواقف لعداوة المسلمين ؛ فقد كانت قريش والأحزاب تحاصر المدينة من أمام ، وجاءوا هم من خلف ، يتهددون المدينة ، ويزيدون الموقف حرجاً ، والحال تأزماً ، ولذلك اتجه سعد إلى الله عز وجل بعد أن رمى بسهم أصاب منه مقتلا فقال : اللهم لا تخرج نفسى حتى تقر عينى من بنى قريظة ، فاستمسك عِرقه ، فلم تقطر منه قطرة حتى نزلوا على حكمه بعد أن هزم الله الأحزاب، فقضى أن يُقتل رجالهم ،وتسبى نساؤهم وذراريهم !.

ثم عاد إلى مكانه الذى كان يعالج فيه من المسجد فانفتق عِرقه فمات شهيداً ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم حين مات :

« اهتز العرش لموت سعد بن معاذ ! » .

وقالت أم سعد تبكيه :

ويلُ أم سعد سعدا   حزامــة وجِــدّا

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كل باكية تكذب إلا أم سعد ثم قال لها : « ألا يرقأ(١) دمعك ، ويذهب حزنك ؟ فإن ابنك أول من ضحك الله له ، واهتز له العرش » .

كانت سن سعد عند وفاته سبعة وثلاثين عاما ، وقد توفى فى السنة الرابعة من الهجرة .

---

(١) يرقأ : يكف .

معاذ بن جبل

سيد العلماء

كان معاذ بن جبل الأنصارى الخزرجى سيد العلماء من الصحابة وواحد الدهر ظرفاً ونبلاوجوداً وسخاء، وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيهاً مقرباً محبوباً.

أسلم معاذ، وشهد العقبة شابًّـا أمرد فى حدود العشرين من سنه، ولازم الرسول الكريم وقلبه متفتح للعلم، وذهنه متشوق للمعرفة، فوهبه الله من ذلك ما طابت به نفسه، وقرت به عينه، وجعله بين الصحابة فى منزلة الأستاذ، ومكانة الإمام!.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدها فى دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضهم زيد (زيد بن ثابت) ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة».

وقال: يأتى معاذ بن جبل يوم القيامة بين يدى العلماء بِرَتْوَة[1].

ولقيه الرسول الكريم. فقال له: «إنى لأحبك فى الله» فقال. وأنا يا رسول الله أحبك فى الله. قال: «أفلا أعلمك

---

(١) الرتوة بفتح الراء وسكون التاء: رمية سهم، وقيل مسافة امتداد البصر.

كلمات تقولهن د بر كل صلاة : « رب أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .

* * *

قال معاذ : لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال لى : « كيف تقضى إن عرض قضاء » ، قلت : بما فى كتاب الله ، فإن لم يكن فيما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « فإن لم يكن فيما قضى به الرسول » ؟ قال : أجتهدُ رأيى ولا آلو[1] . فضرب صدرى ، وقال :

« الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله »

وخرج النبى صلى الله عليه وسلم يودعه ماشياً ومعاذ راكب فلما فرغ من وداعه وإيصائه قال :

« يا معاذ ! إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدى ومقامى » ، فبكى معاذ حزناً لفراق رسول الله ، فقال : « لا تبك يا معاذ ، إن البكاء من الشيطان » .

* * *

ولسفر معاذ إلى اليمن قصة رواها جابر بن عبد الله يجمل بنا أن نوردها فى ترجمته كما هى :

قال جابر : كان معاذ بن جبل من أحسن الناس وجهاً وأحسنهم

---

(١) ولا آلو : أى ولا أقصر .

خلقاً ، وأسمحهم كفاً ، فادّان ديناً كثيراً فلزمه غرماؤه حتى تغيب عنهم أياماً فى بيته ، فذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاضونه ، فأرسل إليه فحضر ومعه غرماؤه ، وقالوا يارسول الله ، خذ لنا حقنا منه ! فقال :

« رحم اللهُ من تصدق عليه » ، فتصدق عليه ناس وأبى آخرون ، فقال الرسول الكريم : اصبر لهم يا معاذ ، ثم خلعه من ماله كله ، فاقتسموه بينهم ، فأصابهم خمسة أسباع حقوقهم ، فقالوا : بعه لنا يا رسول الله ، فقال :

« خلُّوا عنه فليس لكم إليه سبيل ! » .

وانصرف معاذ إلى بيته ، فأحاط به قومه : بنوسَلَمه ، فقالوا : يا أبا عبد الرحمن لو سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أصبحت معدماً ! قال : ما كنت لأسأله !

ومكث يوماً ثم دعاه النبيصلى الله عليه وسلم ، فبعثه إلى اليمن عام الفتح قاضياً ، وقال : « لعل الله يجبرك ويؤدى عنك دينك » ثم دعا له فأكثر ! .

وظل معاذ باليمن حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم على أبى بكر ، ومعه طائفة من العبيد اشتراهم ليعملوا له . فقال له عمر ادفعهم إلى أبى بكر فتردد ، وقال : إنما بعثنى

رسول الله إلى اليمن ليجبرنى ، ثم استجاب لرأى عمر أخذا بالأحوط ودرءاً للشبهة وإن قلّت ، فأبى أبو بكر أن يقبلهم وسوّغه ماله .

ولكن حدث صبيحة اليوم التالى أن ذهب معاذ إلى المسجد فرأى عبيده يصلون ، فقال : لمن تصلون ؟ فقالوا : لله ، قال : فأنتم لله . وأعتقهم لوجه الله الكريم ! .

امتحان :

بعث عمر بن الخطاب بأربعمائة دينار إلى أبى عبيدة بن الجراح مع غلام له وقال : تلكأ قليلا فى البيت حتى تنظر ما يصنع بها !.

وذهب الغلام بالدنانير إلى أبى عبيدة ، وقال له : يقول لك أمير المؤمنين خذه ! فقال أبو عبيدة : وصله الله ورحمه ،ثم قال : تعالى يا جارية : اذهبى بهذه الدنانير السبعة إلى فلان وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها كلها إلى ذوى الحاجة من المسلمين ! .

ورجع الغلام إلى عمر فأخبره بما حدث ، فأعطاه أربعمائة دينار أخرى وقال له : اذهب بهذه إلى معاذ بن جبل ، فقال معاذ : وصله الله ، يا جارية ، اذهبى إلى بيت فلان بكذا ، ولبيت فلان بكذا ، ومضى يعدد البيوت ويعين مقادير ما يرسل إلى كل منها ! فأطلت امرأته عليه ، وقالت :

ونحن والله مساكين فاعطنا !.

وكان قد بقي ديناران من الأربعمائة فأعطاهما لها !.

ورجع الغلام إلى عمر فأخبره بما رأى وسمع ، فسر بذلك وقال : إنهم إخوة بعضهم من بعض !.

* * *

غاب رجل عن امرأته سنين ثم جاء فوجدها حاملا ، فأتى عمر بن الخطاب فهم برجمها . فقال له معاذ بن جبل : إن يك لك عليها سبيل ، فليس لك على ما فى بطنها سبيل ، فتركها ، فوضعت غلاماً قد خرجت ثناياه وهو شديد الشبه بأبيه ، فقال الرجل هذا ابنى !.

فقال عمر : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ . لولا معاذ لهلك عمر !.

وكان عمر يقول حين خرج معاذ إلى الشام مجاهداً ، لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها فى الفقه !.

* * *

ولما أصيب أبو عبيدة بن الجراح أمير الشام بطاعون عَمَوَاس[1] ، وأحس الموت استخلف معاذ بن جبل ، ولكنه أصيب كذلك بالطاعون ومات وهو دون الأربعين .

---

(١) عمواس : قرية بين الرملة وبيت المقدس .

أبو ذر الغفاري

كان أبو ذر الغفارى الصحابى الجليل أمة وحدة فى الرأى والزهد والاستمساك القوى المتين بأصول الهدى الإسلامى والسيرة المحمدية ، وقد امتد به العمر حتى أصبح إجماع إخوانه من الصحابة معقوداً على أنه الصحابى الوحيد الذى حافظ كل المحافظة على سمته الذى تركه النبى صلى الله عليه وسلم عليه : هذا السمت الذى طوّع للرسول الكريم أن يقول فيه :

« ما أقلّت الغبراء ، ولا أظلّت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبى ذر » .

وقال :

«من سرّه أن ينظر إلى تواضع عيسى بن مريم فلينظر إلى أبى ذر » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه :

« أيكم يلقانى على الحال الذى أفارق عليه ؟ » .

فقال أبو ذر : أنا يا رسول الله! .

وقد التزم أبو ذر هذا العهد طوال حياته ولم ينحرف عنه

قِيدَ أنملة ، بل لقد بالغ فى التحنث واجتهد فى التزمت حتى قال علىّ بن أبى طالب :

لم يبق أحد لا يبالى فى الله لومة لائم ، غير أبى ذر ، ولا نفسى ، ثم ضرب بيده على صدره ! .

وقال أبو ذر : إنى لأقربكم مجلساً من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، إنى سمعته يقول :

« إن أقربكم منى مجلساً من خرج من الدنيا كهيئته بما تركته عليه » .

ووالله ما منكم إلا من تشبث منها بشىء (يقصد الدنيا) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتدئ أبا ذر إذا حضر ، ويتفقده إذا غاب .

قاطع الطريق :

وليس من شك فى أننا نعالج وصف شخصية فذة ، ذلك أن هذا الرجل الذى أسلفنا وصفه كان فى الجاهلية قاطع طريق وأحد الذين يسعون فى الأرض فسادا . قال خفاف بن إيماء[1].

كان أبو ذر رجلا يصيب الطريق ، وكان شجاعا ، ينفرد

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي الجزء الثانى طبعة معهد المخطوطات العربية ص ٣٨.

وحده بقطع الطريق ، ويغير على الصرم[1] فى عماية الصبح على ظهر فرسه أو على قدميه كأنه السبع ، ويأخذ ما يريد . وسمع مقالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ يدعو مختفياً ، فأقبل يسأل عنه .

وجاء أبو ذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى قصة طويلة ذكرتها كتب السيرة ، وطلب أن يعرض عليه الإسلام فأجابه إلى ما طلب ، ثم سأله : من أنت ؟ فقال : جندب من غفار!.

قال أبو ذر : فرأيتها[2] فى وجهه الكريم ، وكان فيهم — أى فى قومه غفار — من يسرق الحاج وكنت رابع الإسلام .

ولما أسلم أبو ذر قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ارجع إلى قومك فأخبرهم ، واكتم أمرك عن أهل مكة ؛ فإنى أخشاهم عليك » .

فقال : والذى نفس بيده لأصوّتن بها بين ظهرانيهم .

وخرج أبو ذر حتى أتى المسجد الحرام ، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فثار القوم

(١) الصرم والصرمة : القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين .

(٢) فرأيتها : الضمير هنا عائد على أمارة الدهشة والعجب التى بدت على وجه الرسول حين ذكر أبو ذر أنه من غفار وهى على ما هى عليه من الفساد .

إليه وضربوه حتى ألقوه على الأرض فاقد الحراك ، فجاء العباس ابن عبد المطلب وانحنى فوقه بظهره ليحميه ، وقال ويلكم ألستم تعلمون أنه من غِفار ، وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم ، وأنقذه منهم !.

ثم عاد أبو ذر من غد إلى مثلها ، فضربوه كما فعلوا بالأمس ، وأنقذه العباس منهم كذلك ! .

ثم لحق بقومه فدعاهم إلى الإسلام ، فأسلم نصفهم ، وأجل النصف الآخر إسلامه حتى يلتقى الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه . فلما هاجر الرسول إلى المدينة رحل إليه أبو ذر فى السنة الرابعة من الهجرة ، وحين رآه عرفه ، ولكنه وهم فى اسمه ، فقال. أنت أبو نملة ؟ فقال أبو ذر : أنا أبو ذر ،فقال الرسول : نعم أبو ذر ! .

وشهد أبو ذر مع النبى صلى الله عليه وسلم مشاهدة كلها منذ مقدمه عليه ، وكانت راية غفار يوم الفتح معه ، وحدث فى غزوة تبوك أن سار مع جيش العسرة ـ كما كانت تسمى ـ فعجز بعيره عن مسايرة الركب ، فتخلف عن الجيش ، فلما رأى أن البعير لا يسعفه نزل عنه ، وحمل متاعه على ظهره ، وسار فى أثر الجيش.

وبينما المسلمون فى بعض منازلهم إذ رأوا من بعيد رجلا

فى طريقه إليهم ، فقال الرسول الكريم : « كن أبا ذر ! » .

فلما تأمل القوم القادم ـ وكان قد قرب منهم ـ قالوا : هو والله أبو ذر يارسول الله . فقال قولته المشهورة :

« يرحم الله أبا ذر ؛ يعيش وحده ، ويموت وحده ، ويُحشر وحده ! » .

***

خرج أبو ذر إلى الشام مجاهداً إثر وفاة أبى بكر ، وظل بها طوال مدة خلافة عمر ، فلما استُخلف عثمان ، أنكر أبو ذر على معاوية بن أبى سفيان أمير الشام كثيراً من مظاهر الأبهة والمغالاة فى إنفاق الأموال فى غير أبوابها ، والبعد عن المراسم التى كانت الأمور تجرى عليها أيام النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبى بكر وعمر ، فأخذ يلوم معاوية على هذا الانحراف ويجابهه بذلك . ثم يتحدث به إلى الناس ، وكانت لاتزال فيهم بقية من الاستقامة وحب الفطرة الإسلامية ، فراحوا يتحلّقون حوله ، ويسأله من كان حديث العمر أو الإسلام عما كان عليه الأمر قبلا ، فيجيبهم إلى ماسألوا بإفاضة لا تخلو من المقارنة والتعليق !

وأدرك معاوية مبلغ ما يتهدّده من الخطر من جراء حملة أبى ذرّ ، فقد كان المعجبون بمذهبه فى ازدياد مستمر ، فكتب

إلى الخليفة عثمان يشكوه ، ويقول له : إن كانت بك حاجة إلى الشام ، فاستقدم إليك أبا ذرّ .

وكان أبو ذر قد عاهد الرسول الكريم على أن يطيع خلفاءه ، فاستجاب لدعوة عثمان وقال : لو أمرنى عثمان أن أمشى على رأسى لمشيت ؛ غير أنه مع التزامه الطاعة لم يكن يسعه أن يمسك لسانه عن النقد وإنكار ما كان بدعاً فى رأيه ، وكان أكثر مايتحاشاه التحريض على الفتنة ، إنما كان يريد الإصلاح ، والعود بالأمور إلى ما كانت عليه فى العهد السابق .

ولما دخل أبو ذر على عثمان بالمدينة قال له : مرحباً وأهلا بأخى ! فقال أبو ذر : مرحباً وأهلا بأخى ، لقد أغلظت علينا فى العزيمة ، والله لو عزمت على أن أحبو لحبوت . والله ما أنا منهم يا أمير المؤمنين (يريد الخوارج) .

فقال عثمان : صدقت يا أبا ذر ، إنما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة ! قال : لا حاجة لى فى ذلك ، ائذن لى إلى الرَّبَذة[1] ! قال : نعم ، ونأمر لك بنعم من الصدقة ! قال : لا حاجة لى فى ذلك ، يكفى أبا ذر صريمَتَه[2] .

---

(١) الربذة : مكان يبعد عن المدينة ببضعة فراسخ.

(٢) أى تقدم شرح كلمة الصرمة.

وسار أبو ذر إلى الربذة فمكث بها حتى أدركته الوفاه ، وسمع وهو يحتضر امرأته تبكى فقال : مايبكيك ؟ قالت : ألا أبكى وأنت تموت بفلاة من الأرض ، وليس عندى ما أكفنك به ولا بد لى للقيام بدفنك ! .

فقال أبو ذر : أبشرى فإن النبي صلى الله عليه وسلم وعدنى أن تشهد موتى عصابة من المؤمنين ، فأبصرى الطريق ! فقالت أنى وقد ذهب الحاج ؟! قال : اذهبي وتبصرى ، وذهبت أم ذر فرأت ركباً قادماً ، فأشارت إليهم ، فوقفوا وسألوها ماخطبها وكان بينهم الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود ، فقالت : امرؤ من المسلمين يموت ، تكفنونه وتدفنونه ! قالوا : من هو ؟ قالت : أبو ذر الغفارى ! .

فبكى عبدالله بن مسعود بكاء طويلا وذكر نبوءة الرسول الكريم بشأن عيش أبى ذر وموته وحده ، ثم ذهب إليه وهو يجود بنفسه فودعه وواساه . وكانت آخر وصاة لأبى ذر رغبته فى أن يكفن بثوب امرئ منهم لم يل ولاية من أى نوع ! فقال فتى من الأنصار كان بين الركب : أنا لم أل ولاية مطلقاً وسأكفنك ياعم بثوبين من غزل ، فانفرجت أسارير أبى ذر ومات سعيداً بلقاء ربه ، وخروجه من دنياه وله الغلبة عليها ! .

عبدالله بن مسعود

أصحاب الذين أحبهم النبي صلى الله عليه وسلم كثيرون ، ولكنا نراه قد اختص عبدالله بن مسعود بخصوصية لم نرها لغيره ، وما ظنك برجل يقول الرسول الكريم في وصفه : « لو كنت مؤمّراً أحداً عن غير مشورة لأمرت عليهم ابن أم عبد ! ! » [1] ويقول : « رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد ! » .

وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : جئت يا أمير المؤمنين من الكوفة ، وتركت بها رجلا يملي المصاحف عن ظهر قلب ، فغضب عمر وانتفخ . وقال : من هو ويحك ؟ ! فقال : عبد الله ابن مسعود ! فسُرِّي عن عمر ، وقال : ويحك ! والله ما أعلم أنه قد بقي أحد من الناس هو أحق بذلك منه ، وسأحدثك :

كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال يسمُر عند أبي بكر ، وإنه سَمَر عنده ليلة وأنا معه ، فخرج وخرجنا معه ، فإذا رجل قائم يصلي في المسجد ، فقام الرسول يسمع قراءته وسألته عنه ،

---

(١) أم عبد : هي أم عبد الله بن مسعود وكان يكنى بها .

فغمزني بيده ـ أي اسكت ـ فلما كدنا أن نعرفه قال :

« من سرّه أن يقرأ القرآن رطبًا كما أنزل ، فليقرأه على ابن أم عبد » .

ثم أخذ عبد الله في الدعاء ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سل تعط » .

وكان دعاء عبد الله : اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد ، ونعيمًا لا ينفد ، ومرافقة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى جنان الخلد !.

قال عمر : فغدوت إليه لأبشره ، فوجدت أبا بكر قد سبقني ، وما سابقته إلى خير قط إلا سبقني !.

* * *

كان عبد الله بن مسعود من أوائل الناس إسلامًا ، هاجر الهجرتين (١) ، وشهد بدرًا ، واليَرْموك وغيرها .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينزله منزلة واحد من أهله ويكل إليه القيام بشئونه الخاصة ، فكان يدخل عليه بيوته ويلبسه نعليه ، ثم يمشي أمامه بالعصا ، حتى إذا نزع نعليه عند المسجد حملهما عبد الله وأعطاه العصا . وكان يستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام ، ثم كان فوق هذا كله صاحب سره والآذن عليه !.

(١) الهجرتين : أي إلى الحبشة وإلى المدينة .

قال أبو موسى الأشعرى : لما قدمت المدينة مكثت سنة وأنا ما أحسب عبد الله بن مسعود وأمه إلا من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم لكثرة دخولهماعنده وخروجهما من بيته !.

وقال حذيفة : إن أشبه الناس هدياً ودلاً وسمتاً وخطبة برسول الله صلى الله عليه وسلم من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع لعبدُ الله بن مسعود ! .

قال عبد الله بن مسعود : قال لى النبي صلى الله عليه وسلم : « اقرأ عليّ القرآن » قلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : إنى أشتهى أن أسمعه من غيرى » فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » [1] فغمزنى برجله ، فإذا عيناه تذرفان ! .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة : إننى قد بعثت عليكم عماراً أميرا وابن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من أهل بدر ، فاسمعوا لهما ، واقتدوا بهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى ! .

وقال عبدالله بن مسعود : كنا إذا تعلمنا من النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة النساء : آية رقم ٤١ .

عشر آيات لم نتعلم العشر التى نزلت بعدها حتى نعلم ما فيها (يعنى من العلم) .

وقال على بن أبى طالب يصف ابن مسعود :

قرأ القرآن وأحل حلاله وحرم حرامه ، فقيه فى الدين ، عالم بالسنة .

وقال أبو موسى الأشعرى : مجلس كنت أجالسه ابن مسعود أوثق فى نفسى من عمل سنة .

* * *

ومن كلام عبد الله بن مسعود : لو سخرت من كلب لخشيت أن أكون كلباً ، وإنى لأكره أن أرى الرجل فارغاً ليس فى عمل آخرة ولا دنيا .

ارضَ بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس ، واجتنب المحارمَ تكن من أورع الناس . وأدِّ ما افترض عليك تكن من أعبد الناس !.

وكان عبد الله بن مسعود على كثرة ملازمته النبى صلى الله عليه وسلم وسماعه حديثه ، يتهيب أن يروى أحاديثه الشريفة ، قال عمرو بن ميمون : صحبت عبد الله ثمانية عشر شهرا فما سمعته يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حديثاً

واحداً ، فرأيته يفرق (١) ثم غشيه بهر (٢).

مرض عبد الله بن مسعود فعاده عثمان بن عفان . فقال : ما تشتكى ؟ قال : ذنوبى ! قال : فما تشتهى ؟ قال : رحمة ربى !. قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال الطبيب أمرضنى : قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لى فيه ! .

مات ابن مسعود بالمدينة ودفن بالبقيع سنة اثنتين وثلاثين هجرية وعمره بضع وستون سنة .



(١) فى القاموس المحيط فرق يفرق كفرح يفرح : فزع .

(٢) البهر : انقطاع النفس .

أبو هريرة

هو الإمام الفقيه المجتهد عبد الله بن عامر الدوسى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصديقه الذى لازمه أكثر من غيره ، وعاش معه فى مسجده وعلى مائدته وفى أسفاره وغزواته ، ووعى حديثه ونقله عنه صحيحاً مستفاضاً حتى عده المحققون أكثر الصحابة رواية للحديث على الإطلاق ، إذ بلغ مسنده خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وستين حديثا ، وروى عنه أكثر من ثمانمائة صحابى وتابعى : منهم عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك الصحابى الجليل وخادم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمين .

قدم أبو هريرة المدينة مهاجراً حين خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى غزوة خيبر فأسلم .

وصحب النبى صلى الله عليه وسلم أربع سنين ، وكان من أهل الصفة ، وهم جماعة المسلمين الفقراء من المهاجرين الذين لم يأخذوا من أسباب الحياة بسبب وثيق فكانوا ينامون فى المسجد ويأكلون مما يطعمهم الله ورسوله وذوو اليسار من الأنصار والمهاجرين ! .

وكان المسلمون عامة فى ضيق شديد أثناء هذه الفترة يستوى فى ذلك فقراؤهم وأغنياؤهم ، فقد أرهقت تكاليف الحروب ومغارم الضيافة والإيواء الأنصار ، حتى شحت الأموال ، وتضاءلت الأرزاق ، وكان يحدث أن يحسب الرجل نفسه قد دعى إلى وليمة إذا حصل على تمرتين فى اليوم ! .

قال أبو هريرة : خرجت يوماً من بيتى إلى المسجد ،فوجدت نفراً ، فقالوا : ما أخرجك ؟ قلت : الجوع ! فقالوا : نحن والله ما أخرجنا إلا الجوع ! .

« فقمنا فدخلنا على رسول الله فقال : ما جاء بكم هذه الساعة فأخبرناه ، فدعا بطبق فيه تمر . فأعطى كل رجل منا تمرتين ، فقال : « كلوا هاتين التمرتين ، واشربوا عليهما من الماء ، فإنهما سيجزيانكم يومكم هذا ! » .

قال:أبو هريرة : فأكلت تمرة وخبأت الأخرى ، فقال : « يا أبا هريرة ، لم رفعتها ؟ قلت : لأمى! قال: كلها فسنعطيك لها تمرتين ! » .

وهناك قصة أخرى رواها أبو هريرة عن نفسه تؤكد حاله من الفقر والمسغبة ، وتزيد الصورة التى رسمتها القصة الماضية وضوحاً وبياناً ، قال :

والله ، إن كنت لأعتمد على الأرض وأشد الحجر على بطنى من الجوع . ولقد قعدت على طريقهم ، فمر بى أبو بكر فسألته عن آية فى كتاب الله ـ ما أسأله إلا ليستتبعنى[1] ـ فمر ولم يفعل فمر عمر ، فكذلك ، حتى مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرف ما فى وجهى من الجوع ، فقال : أبو هريرة ؟ قلت : لبّيك يارسول الله . فدخلت معه البيت ، فوجد لبناً فى قدح ، فقال : من أين لكم هذا ؟ قيل : أرسل إليك به فلان ، فقال : يا أبا هريرة ، فانطلق إلى أهل الصفة فادعهم ». ـ وكان أهل الصفة أضياف الإسلام . لا أهل ولا مال ، إذا أتت رسول الله صدقة أرسل بها إليهم ، ولم يصب منها شيئاً ، وإذا جاءته هدية أصاب منها وأشركهم فيها ـ فساءنى إرساله إياى فقلت : كنت أرجو أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوّى بها ، وما هذا اللبن فى أهل الصفة ؟ ولم يكن من طاعة الله ورسوله بد ، فأتيتهم ، فأقبلوا مجيبين ، فلما جلسوا قال : « خذ يا أبا هريرة فأعطهم ».

فجعلت أعطى الرجل فيشرب حتى يروى ، حتى أتيت على جميعهم ، وناولته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع رأسه إلى مبتسما ، وقال : « بقيت أنا وأنت ! » قلت : صدقت

---

(١) ليستتبعنى : أى يدعونى أن أتبعه إلى بيته .

يا رسول الله ، قال : فاشرب ، فشربت ، فقال : فاشرب ! فشربت ! فما زال يقول : اشرب فأشرب حتى قلت : والذى بعثك بالحق ، ما أجد له مساغا ! .

فأخذ فشرب من الفضلة! .

وفى هذه القصة من مكارم الرسول وبركاته مالا يخفى ، فقد فطن إلى صراخ الجوع تصخب به أسارير أبى هريره فاستجاب لهذه الدعوة الصريحة ، ولم يؤثر بكرمه أبا هريرة خاصة بل أدرك أن إخوانه بهم مثل ما به من جوع ، فأشركهم جميعاً فيما آتاه الله ثم بدأ بهم حتى اكتفوا وشرب من فضلتهم .

وانظر إلى اللفتة الكريمة الماثلة فى دعوته أبا هريرة إلى الشرب مرة وأخرى حتى امتلأ بطنه ، وانقلب إلى كظَّة لايجد معها مساغا للطعام ، لكأن الله عز وجل قد أطلعه على ما تحدث به أبو هريرة إلى نفسه حين أرسله ليدعو أهل الصفة من قلة الطعام وكثرة الآكلين ، فكان جوابه عن هذا الحديث الذى صدق أبو هريرة فيه فى تصوير نفسه : إليك فاشرب ثم اشرب حتى تزول هواجسك وتذهب وساوسك ! .

وقد أبدل الله سبحانه وتعالى فيما بعد أبا هريرة من هذه الحال المكربة غنى واسعا وجاها عظيما ، فاقتنى الألوف وولى

الإمارة ، وصار عمدة فى النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته . حتى أصبح كبراء الصحابة يحيلون السائلين عليه إذا سئلوا عن حديث لرسول الله ، ويقولون : كان أكثرنا ملازمة له ووعياً عنه .

جاء رجل إلى زيد بن ثابت ، فسأله عن شيء ، فقال : عليك بأبى هريرة ، فإنه بينما أنا وهو وفلان بالمسجد ندعو ، خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ، وقال ، «عودوا إلى ما كنتم » فدعوت أنا وصاحبى ، ورسول الله يؤمن ، ثم دعا أبو هريرة فقال : اللهم إنى أسألك مثل ما سألاك ، وأسألك علماً لا ينسى ، فقال رسول الله : آمين .

فقلنا : ونحن نسألك علما لا ينسى ، فقال : «سبقكما بها الغلام الدوسيّ ! » .

استعمل عمر أبا هريرة على البحرين ، فقدم بعشرة آلاف درهم ، فقال له : « استأثرت بهذه الأموال ، يا عدوّ الله وعدوّ كتابه !».

فقال أبو هريرة : « لست بعدوّ الله ولا عدوّ كتابه . ولكنى عدو من عاداهما » .

قال : فمن أين هى لك ؟ قال : خيل نُتجت ، وغَـلَّة رقيق لى ، وأعطية تتابعت ! .

وفحص عمر الأمر فوجده كما قال أبو هريرة ، فسوغه ماله ، ثم دعاه فيما بعد ليولّيه إمارة ، فأبى ! فقال عمر :

« تكره العمل ، وقد طلبه من كان خيراً منك : يوسف عليه السلام »[1] .

فقال أبو هريرة : يوسف نبى ابن نبى ، وأنا أبو هريرة ابن أميمة : أخشى أن أقول بغير علم وأن يضرب ظهرى وأن ينزع مالى ويشتم عرضى ! .

وكان أبو هريرة على سعة علمه وكرم أخلاقه ، خفيف الروح ذا دُعابة مستحبة تجنح به دائماً إلى البساطة والتواضع .

قال يوماً لأصحابه : لاتكنونى أبا هريرة ، كنّانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا هِر ، فقال : ثكلتك أمك أبا هر ، والذكر خير من الأنثى ! .

وسئل يوماً : لم كنوك أبا هريرة ؟ قال كنت أرعى غنما لأهلى ، فكانت لى هريرة صغيرة ، فكنت أجعلها فى شجرة بالليل ، فإذا كان النهار ذهبت بها معى فكنونى بها !.

---

(١) يشير إلى قوله تعالى حكاية عن يوسف « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » سورة يوسف الآية ٥٥ .

وقال أبو هريرة : سألني النبي صلى الله عليه وسلم حين هاجرت إليه مسلماً : ممن أنت ؟ قلت : من دَوْس ! قال : ما كنت أرى أن في دوس أحداً فيه خير !..

وصل أبو هريرة حين قدم المدينة مهاجراً خلف سَبَّاع ابن عرْفطة خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم على المدينة أثناء غزوة خيبر ، فقرأ سباع « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون »[1].

فلما تأملها وأدرك معانيها ، قال : ويل لأبي ! قل رجل كان بأرض الأزد إلا وكان له مكيالان : مكيال لنفسه وآخر يبخس به الناس ! .

وكان مروان بن الحكم أمير المدينة على عهد معاوية بن أبي سفيان ، ربما استخلف أبا هريرة ، فيركب حماراً ببرذعة ، وفي رأسه مِقْود من ليف ، فإذا صادفه أحد في طريقه قال : الطريق فقد جاء الأمير ! .

وكان أبو هريرة — على ظرفه وتواضعه — قويا في الحق شجاعاً في إبداء الرأي ، ناصر عثمان بن عفان حين قامت الفتنة وأقام معه داخل داره ومعه سلاحه لا يبرحها إلى أن قتل ونعى

(١) سورة المطففين . الآيات الثلاث الأول .

بشدة على من تخلف عن نصرته ، ولما رمى المحاصرون رجلا فى الدار فقتلوه ، أفتى عثمان بأنه قد حل القتال فأبى لأنه لم يكن يريد أن تقوم فى المؤمنين فتنة بسببه ! .

وناصب مروان بن الحكم العِداء ؛ لأنه أبى على آل الحسن ابن على بن أبى طالب حين مات أن يدفنوه مع جده النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبطل دعواه فى أن إمارته تجيز له هذا التعسف ، ومن أجل ذلك تطاول عليه مروان فقال : إن الناس يقولون : أكثر أبو هريرة الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما قدم قبل وفاته بيسير! .

فقال أبو هريرة قدمت ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر وأنا يومئذ قد زدت على الثلاثين ، فأقمت معه حتى مات ، أدور معه فى بيوت نسائه ، وأخدمه وأغزو معه ، وأحج فى صحبته ، فكنت أعلم الناس بحديثه ؛ وقد والله سبقنى قوم بصحبته ، فكانوا يعرفون لزومى له ، فيسألونى عن حديثه ، منهم عمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، ولا والله لا يخفى على كل حديث كان بالمدينة ، وكل من كانت له من رسول الله

صلى الله عليه وسلم منزلة ؛ ومن أخرجه من المدينة لكيلا يساكنه فيها[1]

فوجم مروان ولم يعد إلى مساءته منذ هذا الحديث .

* * *

ومرض أبو هريرة مرض الموت فعاده مروان بن الحكم، فقال : « شفاك الله يا أبا هريرة ، فقال : « اللهم إنى أحب لقاءك فأحبب لقائى ، فلم يكد مروان يبرح الدار حتى فاضت روحه ، وكان ذلك سنة سبع وخمسين هجرية وله من العمر ثمان وسبعون سنة .

(١) عرض أبو هريرة فى العبارة الأخيرة من كلامه بالحكم بن أبى العاص والد مروان ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم نفاه من المدينة إلى الطائف لأنه كان يتجسس عليه ، ويحاكيه فى حركاته الشريفة من باب السخرية والتهكم .

عدي بن حاتم الطائي

هو ولد حاتم الطائي الذي يضرب به المثل في الجود والسخاء، وكان هو نفسه رئيساً في قومه، كريماً على نفسه وعلى الناس، وكان يدين بالنصرانية، فلما ظهر الإسلام سمع به من بعد. وتصوره على حقيقته فأضمر له العداء، وامتلأ قلبه حقداً على النبي صلى الله عليه وسلم، فكان يقول: ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لمحمد حين سمع به مني !.

وبلغ من شدة كراهيته للرسول الكريم أنه أعد خيلا جياداً على أهبة دائمة للسفر؛ ليركبها ويفر بها إذا غشيت خيل محمد بلاده.

وحدث أن أرسل النبي صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة من الهجرة علي بن أبي طالب على رأس خمسين فارساً؛ ليهدم «الفلس» صنم طيء، فقاومه عباده فهزمهم وأحرقه وملأ يده من السبي والغنائم، وكان من بين السبي السفانة[1]، بنت حاتم وأخت عدي أما عدي، فقد ركب خيله وفر إلى الشام !.

ولما وصل علي إلى المدينة أوصى السفانة أن تستشفع عند

---

(1) السفانة في الأصل: هي اللؤلؤة.

النبي صلى الله عليه وسلم بأبيها حاتم ومآثره ، ففعلت ، ولما عرفها الرسول الكريم رحَّب بها ، ومنَّ عليها بالحرية ، وأعطاها عطاء جزيلا أطلق لسانها بالشكر والثناء ، فقالت :

شكرتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبباً لردها عليه .

ثم استضافها الرسول عنده حتى تجد من تذهب فى حراسته إلى موطنها ، وجاء المدينة وفدٌ من عشيرتها فذهبت معه حين عاد ! .

وكانت السَّفَّانة قد أعجبت بمكارم أخلاق الرسول العظيم ، وعز عليها أن يحرم أخوها من صحبته ، ولا سيما أنه لم يتصوره على حقيقته ، بل حكم عليه متأثراً بالأراجيف التى كان مشركو العرب يذيعونها عنه ، فرحلت إليه وأنَّبَتْه على فراره وتركها أسيرة ، ثم قصَّت عليه قصتها مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكيف بالغ فى إكرامها والحفاوة بها ! .

فقال عدى : وماذا ترين ؟

قالت: أرى أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن الرجل نبيًّا فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فلن تذلَّ عنده ، وأنت أنت ! .

فقال : هذا هو الرأى ؛ وخرج حتى أتى النبى صلى الله عليه

وسلم ؛ فسلم عليه ؛ فقال : مَنِ الرجل ؟ قال : عدى بن حاتم ؛ فرحب به الرسول الكريم ؛ واصطحبه إلى بيته ؛ وبينما هما فى الطريق اعترضت النبى صلى الله عليه وسلم امرأة عجوز بادية الضعف والمسكنة؛ فوقف يحدثها ويلاطفها ؛ فقال عدى يحدث نفسه : والله ما هذا بملك ؛ ولما وصلا إلى بيت الرسول الكريم قدَّم له وسادته ليجلس عليها ؛ فأبى عدى أن يفعل ؛ واقترح أن يجلس عليها الرسول نفسه ؛ فأصر على رأيه ؛ وجلس على الأرض. ومرة أخرى قال عدى لنفسه : ليست هذه أخلاق الملوك ! .

وعرض النبي صلى الله عليه وسلم الإسلامَ على عدى ، فقال إنى على النصرانية ؛ فاظهره على وهمه وبين له أنه ليس على دين صحيح بل إنه يخلط بين النصرانية وشطحات الجاهلية ؛ وشرح له عقائد الإسلام ومذاهبه العظيمة ، ثم قال :

لعلك ياعدى إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ماترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ! ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ماترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية(١) على بعيرها حتى تزور هذا البيت لاتخاف ، ولعلك إنما

(١) القادسية : اسم بلد بالشام .

يمنعك من دخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم! ».

وما كاد الرسول الكريم ينتهى من قوله حتى كان الله قد شرح صدر عدى للإسلام ، وقد أثر عنه فيما بعد قوله :

قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة والله لتكونن : قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت ، وأيم الله لتكونن الثالثة: ليفيضنَّ المال حتى لا يجد من يأخذه !.

* * *

وحسُن إسلام عدى بن حاتم جدًّا ، وبرزت مواهبه الشخصية ، وكان خيراً وبركة على الإسلام وعلى العرب جميعاً وقومه خاصة فى حروب الردَّة .

وبيان ذلك أن معظم القبائل العربية قد ارتدت بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن لم يرتد منع الزكاة ، ولكن أبا بكر ألحق أولئك بالكفار وصمم على حربهم حتى يفيئوا إلى الإسلام الكامل .

وكان طليحة بن خويلد الأسدى ، قد ادَّعى النبوة ، والتف

حوله قومه بنو أسد وأوشاب كثيرة من العرب ، واستفحل أمره ، وأصبح أعظم خطر يتهدد المدينة ؛ لقربه منها ، وكان من أمره أنه دعا طيئاً — وهم قوم عدى بن حاتم — للانضمام إلى دعوته فسارع إليه بعض أحداثها !

ولما سار جيش خالد بن الوليد لمحاربة المرتدين أمره أبو بكر أن يبدأ بطيء وأرسل عديًّا إلى قومه ليحول بينهم وبين ممالأة طليحة ومن لفَّ لَفَّه، فرحل إليهم ودعاهم إلى الاستمساك بالدين والوقوف مع الجماعة ، فأبوا عليه ذلك ، وقالوا : لا نبايع أبا الفصيل[1] أبدا !.

فقال عدى : لئن أتاكم ياقوم ليبيحنَّ حريمكم حتى تكنون أبا بكر بالفحل الأكبر ، فشأنكم به ، وما زال يعظهم تارة ويرهبهم من جيش خالد تارة أخرى حتى لانوا له ، ثم طلبوا إليه أن يستقبل جيش خالد ويبقيه بعيداً عنهم ؛ حتى يستردوا أحداثهم الذين سارعوا إلى طليحة بحجة الحاجة إليهم لمقاومة جيش خالد ؛ إذ لو عرف طليحة أن طيئاً ستخرج عليه وتنحاز إلى المسلمين لقتل من معه منهم ، أو استبقاهم رهائن عنده على الأقل !.

(١) كان المرتدون يكنون أبا بكر بهذه الكنية .

وذهب عدى إلى خالد : فقال له : ياخالد أمسك عنى ثلاثة أيام يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك ، وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار ، وتحمل جيشك عبء قتالهم . فاستجاب له خالد ، وانتظر فى مكانه حتى عاد إليه عدى فى الموعد ، وقد استرد قومه أبناءهم الذين كانوا مع طليحة وانضموا جميعاً إلى المسلمين.

وارتحل خالد بعد ذلك يريد جَديلة ، فقال له عدى إن طيئاً كالطائر ، وإن جَديلة أحد جناحى طيء . فأجلنى أياماً لعل الله أن ينقذ جَديلةَ كما أنقذ الغوث . وكان خالد عند حسن ظنه فاستجاب له فى الثانية كما استجاب له فى الأولى ! .

وذهب عدى إلى جديلة ، وأخذ يرغبها ويرهبها ويبصرها بالأمور ويعظم أمر الإسلام حتى وفقها الله للخير ، فنزلت على رأيه وبايعته ، ولحق بالمسلمين منها ألف فارس فكان عدى خير مولود ولد فى أرض طيء وأعظمه عليهم بركة [1] .

وانضم عدى إلى جند خالد فى حروب المرتدين ، فلما فرغ خالد منها وسيره أبو بكر إلى العراق ، وسار معه وأبلى فى الحرب بلاء حسناً ، وكان من قواد جيش خالد .

---

(١) من تاريخ الطبرى بتصرف يسير فى التعبير .

وفد عدى بن حاتم على عمر بن الخطاب أثناء خلافته . فقال له : ما أظنك تعرفنى ! فقال عمر : كيف لا أعرفك وأول زكاة بيضت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة طيئ ! أعرفك : آمنت إذ كفروا ، وأقبلت إذ أدبروا ، ووفَّيت إذ غدروا !

وكان عدى على سنة أبيه حاتم من الكرم والجود ، يقصد إليه الشعراء وذوو الحاجة فيسخو عليهم فى العطاء ، ويكثر لهم من الحِبَاء .

وكان فى الغاية القصوى من صدق الإيمان ورسوخ العقيدة ، ومما يؤثر عنه قوله :

ما دخل وقت صلاة قط إلا وأنا أشتاق إليها .

* * *

نزل عدى بن حاتم الكوفة وسكنها ، وشهد مع على ابن أبى طالب مشاهده أيام الفتنة ، ومات سنة تسع وستين هجرية وقد جاوز المائة من السنين .

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها للآن :

١ ــ الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين للأستاذ عباس محمود العقاد

٢ ــ الاشتراكية والشيوعية ...... للأستاذ على أدهم

٣ ــ الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى للدكتور عبدالحميد يونس

٤ ــ قصة التطور .... للدكتور أنور عبد العليم

٥ ــ طب وسحر .... للدكتور پول غليونجى

٦ ــ فجر القصة .... للأستاذ يحيى حقى

٧ ــ الشرق الفنان .... للدكتور زكى نجيب محمود

٨ ــ رمضان .... للأستاذ حسن عبدالوهاب

٩ ــ أعلام الصحابة .... للأستاذ محمد خالد

الثمن قرشان فقط

المكتبة الثقافية

٨

رمضان

حسن عبد الوهاب



« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

(قرآن كريم)

شهر رمضان

إذا لم يكن لشهر رمضان ميزة سوى بدء نزول القرآن فيه لكفاه فخراً وتكريماً وتفضيلا على بقية الشهور ، فما بالك وفيه ليلة القدر، ليلة القدر خير من ألف شهر .

قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أُخَرَ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أُخَرَ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » .

فى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الصيام جُنَّة ، فإذا كان احدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أوشاتمه فليقل : إنى صائم مرتين . والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند

عند الله من ريح المسك ، يقول الله عز وجل يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى . الصيام لى وأنا أجزى به ، والحسنة بعشر أمثالها .

والصوم أحد أركان الإسلام . يهذب النفوس ويسمو بالأرواح ويصفى النفوس من زخرف الدنيا وشهواتها .

وهو شهر الصيام والقيام والإطعام والتسبيح والتراويح والمروءة والفتوة ، وقيل بأن رمضان فى الأيام كالنبى صلى الله عليه وسلم فى الأنام



عنى به المسلمون فى سائر الأقطار ، وأحاطوه بأنواع التكريم ، وأحيوه بصنوف العبادة ، وأغدقوا فيه الخير على الفقراء والمعوزين .

ولمصر عناية بتكريم هذا الشهر وخاصة فى الدولة الفاطمية التى كانت أيام حكمها مواسم وأعياداً .

وعجبت للقضاعى وهو ممن أدرك العصر الفاطمى فى أوج مجده ورأى بنفسه عظمة الحفاوة بهذا الشهر فى مصر — يعد رمضان بمكة من عجائب الإسلام فى جملته المأثورة « عجائب الإسلام أربعة : - عرض الخيل بمصر ، ورمضان بمكة ، والعيد بطرسوس ، والجمعة فى بغداد » ولكن إذا عرف السبب بطل العجب . فالقاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى كان إماماً فى الفقه والحديث فاستهواه جلال رمضان فى الحرم المكى ، فقد كانت تحيي لياليه بتلاوة القرآن والصلوات ، ويجتمع فيه أهل مكة فلا يبق فيه زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ أو مصلٍّ ، فيرتج المسجد لأصوات القراء من كل ناحية ، وقد حضر رمضان فى الحرم المكى الرحالة ابن جبير فى سنة ٥٧٩هـ ١١٨٣م ووصفه بقوله:

« حينما استهل هلال رمضان وقع الاحتفال فى المسجد الحرام بهذا الشهر المبارك ، وقد جددت الحصر وكثر الشمع والمشاعيل ، وغير ذلك من آلات الإضاءة ، حتى تلألأ الحرم نوراً وسطع ضياءً .

ومنذ اليوم الأول تتفرق الأئمة لإقامة التراويح فرقاً : فالشافعية فوق كل فرقة منها قد نصبت إماما لها فى ناحية من نواحى المسجد ، والحنبلية كذلك ، والحنفية كذلك ، والزيدية . وأما المالكية فاجتمعت على ثلاثة قرَّاء يتناوبون القراءة . وهى فى هذا العام أحفل جمعاً ، وأكثر شمعاً ، لأن جماعة من التجار المالكيين تنافسوا فى ذلك فجلبوا لإمام الكعبة شمعا كثيراً ، من أكبره شمعتان نصبتا أمام المحراب فيهما قنطار . وقد حفت بهما شمع دونهما صغار وكبار . فجاءت جهة المالكية تروق حسنا وتأخذ بالأبصار نوراً ، وكاد لا يبقى فى المسجد زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلى بجماعة خلفه ، فيرتج المسجد لأصوات القراء من كل ناحية ، فتعاين الأبصار وتشنف الأسماع بما تخشع له النفوس خشية ورقة . ومن الغرباء من اقتصر على الطواف والصلاة فى الحِجر ، ولم يحضر التراويح . ورأى أن ذلك أفضل ما يغتنم .

والشافعي في التراويح أكثر الأئمة اجتهاداً . ذلك أنه يكمل التراويح المعتادة التي هي عشر تسليمات ويدخل الطواف مع جماعة فإذا فرغ من الطواف عاد لإقامة تراويح أخرى وضرب بالفرقعة[1] الخطيبيّة ضربة يسمعها من في المسجد ، لعلو صوتها، كأنها إيذان بالعَود إلى الصلاة ، فإذا فرغوا من تسليمتين عادوا إلى الطواف ، فإذا أكملوه ضربت الفرقعة وعادوا لصلاة تسليمتين ، ثم عادوا للطواف هكذا إلى أن يفرغوا من عشر تسليمات ، فيكمل لهم عشرون ركعة ، ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون ، وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئا ، والمتناوبون لهذه التراويح المقامية خمسة أئمة : أولهم إمام الفريضة ، وأوسطهم صاحبنا الفقيه الزاهد الورع أبو جعفر بن علي الفنكي* القرطبي ، وقراءته ترق الجماد خشوعاً .

والفرقعة تستعمل في هذا الشهر المبارك ، وذلك أنه يُضرب بها ثلاث ضربات ، عند الفراغ من أذان المغرب ، ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء الآخرة .

(١) الفرقعة — هي عود في طرفه جلد رقيق مفتول يمسكه أحد القومة بالحرم وينفضه في الهواء فيسمع له صوت عال يسمع في أنحاء الحرم فيكون إعلاما بخروج الخطيب .

والمؤذن الزمزمى يتولى التسحير فى الصومعة التى فى الركن الشرقى من المسجد بسبب قربها من دار الأمير ، فيقوم فى وقت السحور فيها داعياومذكـراً ومحـرضاً على السحور،ومعهأخوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه ، وقد نصبت فى أعلى الصومعة خشبة طويلة فى رأسها عود كالذراع ، وفى طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لايزالان يوقدان مدة التسحير . فإذا قرب ميعاد الإمساك والتنبيه عليه مرة بعد مرة حط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة وبدأ بالآذان وثوب المؤذنون من كل ناحية بالآذان ، وفى ديار مكة الدور مرتفعة ، فمن لم يسمع نداء التسحير ممن يبعد مسكنه من المسجد يبصر القنديلين يوقدان فى أعلى الصومعة ، فإذا لم يبصرهما علم أن الوقت قدانقطع .

وكل وتر من الليالى العشر الأواخر يختم فيها القرآن ، فأولها ليلة إحدى وعشرين . ختم فيها أحد أبناء أهل مكة وحضر الختمة القاضى وجماعة من الأشياخ ، فلما فرغوا منها قام الصبى فيهم خطيبا . ثم استدعاهم أبو الصبى المذكور إلى منزله إلى طعام وحلوى قد اعـدهما واحتفل فيهما ، ثم بعد ذلك ليلة ثلاث وعشرين ، وكان المختتم فيها أحدأبناءالمكيين ذوىاليسار غلاما

لم يبلغ سنه الخمس عشرة سنة فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالا بديعا ، وذلك أنه أعد له ثُـريا مصنوعة من الشمع مغصنة قد انتظمت فيها أنواع الفواكه الرطبة واليابسة . وأعدَّ لها شمعا كثيرا ووضع وسط الحرم شبيه المحراب المربع أقيم على قوائم أربعة تدلت منه قناديل مسرجة ، وأحاط دائر المحراب بمسامير مدببة الأطراف غرز فيها الشمع ، وأوقدت الثريا المغصنة ذات الفواكه . وأمعن فى الاحتفاء بهذا الاحتفال . ووضع بمقربة من المحراب منبر مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الألوان ، وحضر الإمام الطفل فصلى التراويح وختم وقد ملئ المسجد بالرجال والنساء وهو فى محرابه وحوله الشموع ، ثم برز من محرابه رافلا فى أنخر ثيابه فاستقبله أحد سدنة المسجد ، وأوصله إلى ذروة منبره فاستوى مبتسما ، وأشار على الحاضرين مسلما . وجلس بين يديه قراء فابتدروا القراءة على لسان واحد ، فلما أكملوا عشرا من القرآن قام الخطيب فصدع بخطبته . وبين يديه فى درجات المنبر نفر يمسكون الشمع فى أيديهم ويرفعون أصواتهم بيارب يارب عند كل فصل من فصول الخطبة ، يكررون ذلك والقراء يبتدرون القراءة فى أثناء ذلك فيسكت الخطيب إلى أن يفرغوا ، ثم يعود لخطبته مشيرا إلى البيت العتيق عند ورود اسمه ، ثم ختمها

بتوديع الشهر المبارك وترديد السلام عليه والدعاء للخليفة ولكل من جرت العادة بالدعاء له ، ثم نزل وانفض ذلك الجمع ، ثم ذكر أن المعينين من ذلك الجمع كالقاضى وسواه خُصوا بطعام حفيل وحلوى على عادتهم فى مثل هذا المجتمع ، وكانت لأبى الخطيب فى تلك الليلة نفقة واسعة فى جميع ماذكر .

ثم كانت ليلة خمس وعشرين ، فكان المختتم فيها الإمام الحنفى وقد أعد ابنا له لذلك سنه نحو من سن الخطيب الأول المذكور. فكان احتفال الإمام الحنفى لابنه فى هذه الليلة عظيما ، أحضر فيه من ثريات الشمع أربعا مختلفات الصنعة فيها مشجرة مغصنة مثمرة بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة ، ومنها غير مغصنة ، فصففت أمام خطيبه ، وتوج الحطيم بخشب وألواح وضعت أعلاه ، وجلل ذلك كله سرجا ومشاعيل وشمعا . فاستنار الحطيم كله حتى لاح فى الهواء كالتاج العظيم من النور ، وأحضر الشمع فى الشمعدانات النحاسية ووضع المحراب العودى فجلل دائره الأعلى كله شمعا ، وأحدق به الشمع فى الشمعدانات فاكتنفته هالات من نور . ونصب المنبر قبالته مجللا أيضا على الكسوة الملونة . فختم الصبى المذكور . ثم برز من محرابه إلى منبره فى أثواب رائعة المنظر . فصعد منبره وأشار بالسلام على

الحاضرين وابتدأ خطبته ، وحضر القراء بين يديه على الرسم الأول ، وانتهت الحفلة بالوليمة التى يقيمها والده ـ ثم يقول :

وأى حالة توازى شهود ختم القرآن ليلة سبع وعشرين من رمضان خلف المقام الكريم ، وتجاه البيت العظيم ، وإنها لنعمة تتضاءل لها النعم ، تضاؤل سائر البقاع للحرم .

« وقد جرت العادة أن الاستعداد للاحتفال بهذه الليلة المباركة يكون قبل ذلك بيومين أو ثلاثة ، وأقيمت إزاء حطيم إمام الشافعية خشب عظام ظاهرة الارتفاع ، موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الأعواد الوثيقة ، فاتصل منها صف كاد يمسك نصف الحرم عرضا ، ووصلت بالحطيم المذكور ، ثم عرضت بينها ألواح طوال مدت على الأذرع المذكورة ، وعلت طبقة منها طبقة أخرى حتى استكملت ثلاث طبقات ، فكانت الطبقة العليا منها خشباً مستطيلة مغروزة كلها مسامير محددة الأطراف لاصقا بعضها ببعض نصب عليها الشمع . والطبقتان تحتهما ألواح مثقوبة ثقبا متصلا وضعت فيها زجاجات المصابيح ذوات الأنابيب المنبعثة من أسافلها ، وتدلت من جوانب هذه الألواح والخشب ومن جميع الأذرع المذكورة قناديل كبار وصغار ، وتخللها أشباه الأطباق المبسوطة من النحاس معلقة

فى السلاسل (ونفهم من باقى وصفها أنها ثريّا نحاسية كبيرة) هذا عدا إضاءات أخرى فى أنحاء الحرم ، مابين ثريات ، وشمعدانات نحاسية بها الشمع مابين كبيرة وصغيرة ، فأضاءت الحرم بأضواء ساطعة من الداخل والخارج حتى الشرفات فلا تقع العين إلا على نور . ثم تقدم القاضى فصلى فريضة العشاء الآخرة ثم قام وابتدأ بسورة القدر، وكان أئمة الحرم فى الليلة قبلها قد انتهوا فى القراءة إليها . وتعطل فى تلك الساعة سائر الأئمة من صلاة التراويح تعظيما لختمة المقام ، وحضروا متبركين بمشاهدتها ، فختم القاضى بتسليمتين وقام خطيبا مستقبل المقام والبيت العتيق ، ولما فرغ من خطبته عاد الأئمة لإقامة التراويح ، وانفض الجمع ونفوسهم قد استطارت خشوعا . والأنفس قد أشعرت من فضل تلك الليلة المباركة رجاء مبشرا بمن الله تعالى بالقبول ، ومشعرا أنها ولعلها ليلة القدر المشرف ذكرها .

وفى ليلة ٢٩ اختتم سائر الأئمة التراويح وأضيئت الأنوار بالثريات وشمعدانات الشمع بالرسم السابق ذكره احتفالا بختام الشهر المبارك .

هذا موجز لوصف ابن جبير لرمضان فى مكة ، وقد علق المقريزى المؤرخ على رأى القضاعى بقوله : إن عرض الخيل

فى مصر كان من عجائب الإسلام الأربع فى الدولة الطولونية . وقد ذهبت بهجة الجمعة فى بغداد بعد القضاعى بقتل هولاكو للخليفة المستعصم وزوال شعائر الإسلام من العراق ، وبقيت مكة شرفها الله تعالى وليس فى شهر رمضان الآن (القرن التاسع الهجرى .الخامس عشر الميلادى) بها مايقال فيه أنه من عجائب الإسلام .



يؤثر عن القاضى أبى عبد الرحمن عبدالله بن لهيعة ، الذى ولى قضاء مصر سنة ١٥٥ هـ ٧٧١م أنه أول قاض حضر لنظر الهلال فى شهر رمضان ، وكان القضاة بعده يخرجون مع الناس إلى جامع محمود بسفح المقطم لرؤية الهلال فى رجب وشعبان احتياطيا لشهر رمضان ، واستمر القضاة يخرجون لرؤية الهلال . وأعدت لهم دكة عرفت بدكة القضاة على مكان بالجبل مرتفع عن المساجد ، وكان قضاة مصر يخرجون إليها لنظر الأهلة إلى أن بنى محلها مسجد فى العصر الفاطمى ، فصاروا يرصدونه من فوق المنارات .

ويؤثر عن أحمد بن طولون أنه زار مسجده وقت بنائه ، فرأى الصناع يشتغلون إلى الغروب وكان فى شهر رمضان. فقال : متى يشترى هؤلاء الضعفاء إفطاراً لعيالهم ، اصرفوهم العصر . فصارت سنة بمصر . فلما فرغ شهر رمضان قيل له : قد انقضى شهر رمضان فيعودون إلى عادتهم ، فقال : « قد بلغنى دعاؤهم وقد تبركت به ، وليس هذا مما يوفر العمل » .

وقد عنيت الدولة الفاطمية بهذا الشهر ، واحتفت به احتفاء

لم يسبق ولم يلحق، فكانت تحذر بيع المسكرات ابتداء من شهر رجب، وتعاقب من يبيعها أو يشتريها سراً أو جهراً، وخصته بحفلات يعد بعضها تمهيداً لحلوله، والبعض لإعلان رؤية هلاله، وهي حفلات غنية بمظاهر العظمة، شاملة لأنواع البر والصدقات مما يرفه عن الفقير ويدخل السرور عليه.

فإذا أقبل شهر رمضان عهد إلى قضاة مصر بالطواف قبل حلوله بثلاثة أيام بالمساجد والمشاهد فى القاهرة ومصر. فيبدأون بزيارة جامع المقس ثم بجوامع القاهرة والمشاهد وجوامع مصر (الفسطاط) ثم بالمشهد الحسينى لتفقد ما تم إجراؤه فيها من إصلاح وفرش وتعليق قناديل.

وأعد الحاكم بأمر الله للجامع الأزهر تنوراً من الفضة و ٢٧ قنديلا، ولجامع راشدة تنوراً و ١٢ قنديلا، واشترط إضاءتها فى شهر رمضان. وبعده تعاد إلى مكان أعد لحفظها فيه. هذا عدا ثمن العود الهندى للبخور والكافور والمسك، الذى يصرف لتلك المساجد فى شهر رمضان.

الاحتفال بأول رمضان:

إذا كان أول يوم من شهر رمضان اهتم الخليفة الفاطمى

بمهرجان إعلان حلول رمضان ، فيخرج متحلياً بملابسه الفخمة من باب الذهب أحد أبواب القصر الفاطمى الكبير وحوله الوزراء بملابسهم المزركشة ، وخيولهم المطهمة ، بسروجها المذهبة ، وفى أيديهم الرماح والأسلحة المكفتة بالذهب والفضة ، والأعلام الحريرية الملونة ، وأمامه الجند تتقدمهم الموسيقى صادحة بأنغام شجية . ويسير فى هذا الاحتفال تجار القاهرة من الجوهريين والصيارفة والصاغة والبزازين وغيرهم . وقد تبارى هؤلاء التجار فى معالم الزينة المقامة على حوانيتهم ، وتفننوا فيها بما يلفت نظر الخليفة . فيسير الموكب من بين القصرين إلى أن يخرج من باب الفتوح ، ثم يدخل باب النصر عائداً إلى باب الذهب ، وفى أثناء الطريق توزع الصدقات على الفقراء والمساكين . وحينما يبلغ الخليفة القصر يستقبله المصلون بتلاوة القرآن الكريم فى مدخل القصر ودهاليزه حتى يصل إلى خزانة الكسوة الخاصة ، فيغير ملابسه ويوزع الدنانير والهدايا ، ثم يتوجه لزيارة قبور آبائه حسب عادته . فإذا تم ذلك أمر أن يكتب إلى الولاة والنواب بحلول شهر رمضان بما نصه :

« الحمد لله كالئ خلقه فى اليقظه والمنام ، والكافل لهم بمضاعفة الأجر فى شهر الصيام ، وصلى الله على سيدنا محمد الذى

بعثه رحمة للأنام ، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على ابن أبى طالب أخلص ولى وأشرف وصى وأفضل إمام ، وعلى الأئمة من ذريتهما الداعين إلى دار السلام ، صلاة دائمة الاتصال مستمرة فى الغدو والآصال ، وإن من المسرة التى تتهادى والنعمة الشاملة الخلق جميعاً وفرادى ، ما من الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام . . . صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين يوم . . . غرة شهر رمضان من سنة . . . إعلاماً بأول الشهر وافتتاحه ، وأن أول الصيام من فجره الأول قبل تنفس صباحه ، وتوجهه إلى ظاهر المعزية القاهرة المحروسة فى عساكره المظفرة وجنوده ، وأوليائه وأنصاره وعبيده ، والمنة برؤيته قد تساوى فيها الكافة ، وملائكة الله مطيفة حافة ، وعوده إلى قصوره الزاهرة . وقد شمل المستظلين بأفيائه . بسعادة الدنيا والآخرة . أصدر إليك هذا الأمر لتقف على الجملة ، وتشكر النعمة السابغة على أهل الملة . وتتلوها على أهل عملك . وتطالع بمكاتبتك فى ذلك ، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله .

غرة رمضان :

وفى غرة رمضان يهدى الخليفة إلى جميع الأمراء وغيرهم من

الموظفين وأولادهم ونسائهم أطباقا مملوءة بالحلوى . وفى وسط كل طبق صرة بها نقود ذهبية ، فيعم هـــذا الإنعام سائر كبار رجال الدولة .

إحياء ليالى رمضان :

كان فى القصر الشرقى الكبير قاعة أطلق عليها قصر الذهب ، أنشأها العزيز بالله ثم جددها الخليفة المستنصر بالله . وقد وضع فيها سرير الملك ، فكان الخلفاء يتخذونها لجلوسهم وأعدوها لإقامة ولائم الإفطار فى شهر رمضان .

وكان يدعى لهذه الولائم ابتداء من اليوم الرابع من الشهر إلى السادس والعشرين منه العلماء والأمراء ، فإذا جاء وقت الغروب مدت الموائد فى هذه القاعة وحليت بالأزهار ، ونسقت عليها أنواع المأكولات والحلوى على هيئة قصور وتماثيل ، ويتصدر المائدة الوزير أو ولده أو اخوه، فإذا انتهت المائدة وزعت الأطعمة على الفقراء والمساكين . وربما خص الرجل ما يكفى جماعة من الناس ، وقد بلغت نفقات شهر رمضان لمدة ٢٧ يوما ثلاثة آلاف دينار .

ويؤثر عن الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، أنه أول من عمل

مائدة فى شهر رمضان يفطر عليها أهل الجامع العتيق (عمرو) وأقام طعاما فى الجامع الأزهر مباحا لمن يحضر فى شهور رجب وشعبان ورمضان ،وكان يخرج من مطبخ القصر فى شهر رمضان ١١٠٠ قدر من جميع ألوان الطعام تفرق كل يوم على المحتاجين والضعفـــاء .

سحور الخليفة :

بعد أن تنتهى حفلات الإفطار ، يجلس الخليفة فى شرفة كبيرة إلى وقت السحور لسماع القراء وهم يتلون القرآن ويرتلونه بأصوات جميلة ، ثم يحضر المؤذنون للتكبير والتغنى بفضائل رمضان مختتمين ذلك بالدعاء للخليفة ، ثم يأتى الوعاظ بعد ذلك فيقومون بنصيبهم فى ذكر فضائل الشهر ومدح الخليفة ، ثم تنصب حلقات الذكر ، ويظل الجميع على ذلك حتى منتصف الليل ، وهنا يأمر الخليفة بأن توزع عليهم الهدايا والحلوى والقطائف فيأكلون ويحملون منها لأولادهم .

وعند السحور تمد للخليفة مائدة فى مكان إفطاره ، ويحضر معه جلساؤه وخواصه فيأمر بأن يوزع عليهم مما قدم إليه من طعام وحلوى ، ثم يأذن لهم بالانصراف :

صلاة الجمعة فى رمضان :

وكان الخليفة الفاطمى يصلى أيام الجمع الثلاث الثانية والثالثة والرابعة من رمضان فى مساجد الحاكم والأزهر ، ويختمها بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، وكان يصرف من خزانة التوابل الند وماء الورد والعود برسم بخور الموكب والمسجد ، وعقب الصلاة يذاع بلاغ رسمى (عرف بسجل البشارة)

وكانت تلك المواكب تحاط بأنواع العظمة ، ويشترك فى الاحتفاء بها ، وتسبقها مقدمات فيفرش المسجد بالفرش المختص بالخليفة يحمله كبار الفراشين وهو من الحرير الديبقى ، ويعلق على المحراب ستران مرقوم فيهما بالحرير الأحمر بعض قصار السور ـ على الستر الأيمن سورة الفاتحة وسورة الجمعة ، وعلى الأيسر سورة الفاتحة وسورة المنافقين بخط واضح ، ثم يصعد قاضى القضاة وفى يده مبخرة لطيفة فيها ند لا يشم مثله إلا هناك فيبخر ذروة المنبر التى عليها القبة المعدة لجلوس الخليفة للخطابة ، ويركب الخليفة فى موكب كركبه فى أول رمضان ، وملابسه بيضاء غير مذهبة توقيراً للصلاة ، وحول ركابه عدا الحراس قراء القصر من الجانبين يرفعون أصواتهم بالقراءة مناوبة من

حين ركوبه من القصر إلى حين دخوله قاعة الخطابة ، فيدخل من باب الخطابة فيجلس فيها وإن احتاج إلى تجديد وضوئه فعل . ويحفظ المقصورة الحرس الخاص من الداخل والخارج . فإذا أذّن للجمعة دخل إليه قاضى القضاة فقال : السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى الخطيب ورحمة الله وبركاته الصلاة يرحمك الله ، فيخرج ماشيا وحواليه الأستاذون المحنكون والوزير ووراءه من يليهم من الأمراء والحرس الخاص وبأيديهم الأسلحة حتى ينتهى إلى المنبر فيصعد حتى يصل إلى الذروة تحت القبة المبخرة والوزير على باب المنبر ووجهه إليه . فإذا استوى جالسا أشار إلى الوزير بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه فيقبل يديه بحيث يراه الناس . ثم يزر عليه القبة وتصير كالهودج . ثم ينزل مستقبلا للخليفة ويقف ضابطا للمنبر فيخطب خطبة قصيرة تكتب فى ديوان الإنشاء ، يقرأ فيها آية من القرآن الكريم ، ويصلى فيها على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ويعظ الناس وعظا بليغا موجزا . ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه فيقول « اللهم وأنا عبدك وابن عبدك لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا ويتوسل بدعوات تليق به ، ويدعو للجيوش بالنصر والتآلف ، وللعساكر بالظفر.

وعلى الكافرين والمخالفين بالهلاك ، ثم يختم الخطبة بقوله : « اذكروا الله يذكركم » فيطلع إليه من زرّ عليه القبة فيفك التزرير عنه وينزل القهقرى فيدخل الخليفة المحراب ويقف إماما والوزير وقاضى القضاة صفا ، ومن ورائهما الأمراء وكبار الموظفين ، والجامع مشحون بالشعب الصلاة وراءه ، فيقرأ فى الركعة الأولى ما هو مكتوب فى الستر الأيمن للمحراب ، وفى الثانية ما فى الستر الأيسر ، فإذا سمّع الخليفة سمع القاضى المؤذنين فيسمع المؤذنون الناس . فإذا فرغ خرج الناس وعاد الخليفة إلى القصر والوزير وراءه بين عزف الموسيقى وترحيب الشعب .

فإذا كانت الجمعة الثالثة من الشهر ركب إلى الجامع الأزهر بنفس الاحتفال السابق وصفه . فإذا كانت الجمعة الرابعة منه ركب إلى الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) ، وزين له أهل القاهرة من باب النصر إلى الجامع الطولونى ويُزَيِّن له أهل مصر من الجامع الطولونى إلى جامع عمرو تحت إشراف والى القاهرة ووالى الفسطاط ، ويركب الخليفة من القصر سائرا فى الشارع الأعظم حتى يصل إلى الجامع العتيق ، فيؤدى صلاة الجمعة طبقا للمراسيم التى اتبعت فى جامع الحاكم ، فإذا قضيت الصلاة عاد إلى قصره ، وفى خلال ذلك كله لا يمر بمسجد إلا أعطى أهله دينارا على كثرة المساجد فى طريقه .

وعقب كل صلاة يذاع سجل البشارة بركوب الخليفة.

وهذه هى السجلات المذكورة بنصوصها التى تذاع وتنشر.

سجل الجمعة الثانية:

أفضل ما سير ذكره، ووجب حمدالله تعالى عليه وشكره، ما عاد على الشريعة بالجمال والبهجة، وأضحى واصفه صحيح المقال صادق اللهجة، فضاعف حسنه ومحّص سيئه وجعل أسباب السعادة متسهلة متهيئة، وذلك مايسره الله تعالى من استقلال ركاب سيدنا ومولانا صلوات الله عليه وسلامه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، يوم الجمعة من شهر رمضان من سنة ... مؤديا خطبتها وصلاتها، وضامنا لأمة ائتمت به خلاصها يوم الفزع الأكبر ونجاتها، وفى وقار النبوة وسكينة الرسالة، والهيبة المستولية على العظمة والجلالة، والعساكر الجمة التى تغلق بمهابتها وتزعج، وتظن لكثرتها واقفة والركاب تهملج، ولما انتهى إليه خطب ووعظ ففتح أبواب التوبة، وآب إلى الطاعات من لم يطمع منه بالأوبة، وصلى صلاة تقبلها جل وعز بقبول حسن. وقصر فى وصفها ذوو الفصاحة واللسن، وعاد إلى مستقر الخلافة ومثوى الرحمة

والرأفة ، وعين الله له ملاحظة وملائكته له حافظة . اعلمت ذلك لتذيعه فى أهل عملك وتطالع بمكاتبتك .

سجل الجمعة الثالثة

لم يزل غامر كرم الله وفضله ، يفوز حاضره ما كان من قبله ، فنعمة الله سابغة ، ومننه متتابعة ، وملابسها ضافية ، ومغارسها نامية ، وسحائبها هامية . وهو جل وعز يضاعفها على من صلى وصام ، ويواليها عند من تمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصال لها ولا انفصام ، ويجدد من ذلك ما كان من بروز مولانا وسيدنا الإمام ... صلوات الله عليه وعلى آبائه الطـــاهرين ، وأبنائه الأكرمين ، يوم الجمعة من شهر رمضان من سنة . . . فى شامخ عزه وباذخ مجده وتوجهه إلى الجامع الأزهر . وعساكره قد تجاوزت الحد ، وكثرت عن الإحصاء والعد ، فإذا تأملها الطرف انقلب عنها خاسئا وارتد ! ولما وصل إلى الجامع المذكور خطب فأورد من القول أحسنه . ووعظ فأسمع من الوعظ أوضحه وأبينه ، وصلى صلاة جهر بالقراءة فيها ورتلها ، وعاد إلى قصوره الشريفة وقد شملت البركات برؤيته ، ووفق من عمل بموعظته ، ونجا من اقتدى به فى صلاته ، واستولى على السعد من جميع أرجائه وجهاته ، أعلمناك ذلك لتعرف قدر النعمة به فاشكر الله

سبحانه بمقتضاه . «واعتمد تلاوة هذا الأمر على رؤوس الأشهاد».

سجل الجمعة الرابعة

من عوائد الله سبحانه الإحسان إلى عبيده، وتعويضهم الشكر عليه بنموه ومزيده ، والامتنان بتيسير عصيّه وتعجيل قصيّه وتقريب بعيده ، فهو لا يخليهم من نواجمه ، ولا يغنيهم من هواجمه . ولما أقبل هذا الشهر الشريف كان من عموم بركاته ، وشمول خيراته ، أن مولانا وسيدنا الإمام ... صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ، وإلى فيض بركاته ، وأزكى أعمال المؤمنين فى استماع اختطابه والائتمام بصلاته . وفى هذا اليوم وهو يوم الجمعة من شهر رمضان أعمل ركابه إلى الجامع العتيق بمصر ليسهم لهذه المدينة من حظى الدنيا والآخرة مثل ما أسهمه وعجله لأهل المعزية القاهرة ، فكانت يُعجز وصفها كل لسان ، وظهر عليه السلام فى الرداءين : السيف والطيلسان ، والجيوش قد انبسطت وانتشرت ، والنفوس قد ابتهجت واستبشرت ، والألسنة قد عكفت على الدعاء بتخليد ملكه وتوفرت ، وعند وصوله خطب فأحسن فى الألفاظ والمعانى ، وحذر من تأخير التوبة والتضييع فيها والتوانى ، وصلى صلاة

شرفها الله وفضلها ، ورضيها تبارك وتعالى وتقبلها ، وانكفأ عائدا إلى قصوره ومنازله المعظمة ، ضاعف الله له ثوابه وأجره ، وأوجب شكره ، ورفع ذكره .

ويجب أن يعتمد إذاعة ذلك ليبالغ الكافة فى الاعتراف بالنعمة فيه ، ويواصلوا شكر الله تعالى عليه والمطالعة بما اعتمد فيه » .

* * *

ذكرت هذه السجلات « أو المراسيم » بنصها مع ما فيها لأعطى فكرة عن أسلوب الكتابة فى العصر الفاطمى ، فقد كانت تكتب فى ديوان الإنشاء ، ومن اختصاصه تحرير الخطب والرسائل على اختلاف توجيهاتها ، والبلاغات الرسمية . وكاتب تلك السجلات هو تاج الرياسة أبو القاسم على بن منجب الصيرفى، من رؤساء الكتاب فى الدولة الفاطمية .

وقد احتفظت مصر بإقامة الجمعة الأخيرة من شهر رمضان فى جامع عمرو ، برغم ما طرأ عليه من تخرب وإهمال يتسابق إليها سكان مصر والقاهرة ، وتقام حوله الحفلات والملاهى .

ولما أتم مراد بك إصلاح الجامع بعد تخربه ، وذلك فى النصف الثانى من شهر رمضان سنة ١٢١٢ هـ ١٨٩٧ م أقيمت

فيه آخر جمعة من رمضان بعد انقطاعها ثلاثين عاما ، فاتخذت عادة حتى أبطلت سنة ١٩٥٤ م .

من هذا الاستعراض ، نقف على حقيقة منشأ صلاة الجمعة الأخيرة من رمضان فى جامع عمرو ، تلك العادة التى كانت تعود على الجامع بالخير ، فقد كانت وزارة الأوقاف تعنى فى تلك المناسبة بإصلاح الجامع ونظافته .

آخر شهر رمضان

وفى آخر يوم من رمضان يدعو الخليفة إخوته وعمومته والمقربين منه لتناول الأفطار على مائدته ويحضر الوزير معهم . هذه هى مظاهر رمضان فى الدولة الفاطمية ، وقدأحيطت بمظاهر العظمة وتوارثتها الأجيال .

رمضان فى دولتى المماليك :

وبعد الدولة الفاطمية استمرت العناية بالاحتفال برؤية هلال رمضان ، فقد كان يخرج قاضى القضاة ، والقضاةالأربعة والشهود ومعهم الشموع لرؤية الهلال ، وكان يشترك معهم محتسب القاهرة وتجارها ورؤساء الطوائف والصناعات والشعب ، وكانوا يشاهدون الهلال من منارة مدرسة المنصور قلاوون بالنحاسين ،

لوقوعها أمام المحكمة الصالحية (مدرسة الصالح نجم الدين) . فإذا تحققوا من رؤيته ، أضيئت الأنوار على الدكاكين وخرج قاضي القضاة فى موكبه تحف به الفوانيس بالشموع والمشاعل حتى يصل إلى داره ، ثم تتفرق الطوائف إلى أحيائها معلنين بالصيام .

ولم تكن الأقاليم أقل عناية من العواصم بالاحتفال برؤيا رمضان ، فقد شاهد ابن بطوطه الرحالة فى سنة ٧٢٧ ﻫ ١٣٢٧ م الاحتفال برؤيا رمضان فى مدينة أبيار ووصفه بقوله :

« .. ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليجى الشافعى ، وحضرت عنده يوم الركبة وهم يسمون بذلك يوم ارتقاب هلال رمضان ، وعادتهم فيه أن يجتمع فقراء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين من شعبان بدار القاضى ، ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة لاستقبال الوافدين . فإذا أتى أحد الفقهاء أو الأعيان تلقاه ذلك النقيب ، ومشى بين يديه مقدما إياه قائلا « بسم الله سيدنا . . . فيسمع القاضى ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب فى الموضع اللائق به ، فإذا تكاملوا هناك ، ركب القاضى وركبوا معه وتبعهم جميع من فى المدينة من الرجال والنساء والصبيان حتى

يصلوا إلى موضع مرتفع خارج المدينة ، وهو مرتقب الهلال . فإذا ما رأوه يعودون إلى المدينة بعد صـــلاة المغرب . وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ، ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضى إلى داره ثم ينصرفون وهكذا يفعلون كل سنة » .

وهكذا بقية البلاد لاتكاد تخلو واحدة منها من جماعة فرغت نفسها بوحى من دينها لترصد الهلال وليكون لها شرف رؤيته وإلى نهاية دولة المماليك والجراكسة كانت تقام حفلات رؤيا هلال رمضان بعد رؤيته من منارة مدرسة المنصور قلاوون .

ذلك أن فى سنة ٩٢٠هـ ١٥١٤م بعد أن حضر القضاة الأربعة بالمدرسة المنصورية ، وحضر المحتسب وبعد رؤية الهلال سار المحتسب على رأس موكب كبير تتقدمه المشاعل وتحيط به الشموع والفوانيس ، وأضيئت الحوانيت فى جميع الشوارع التى سلكها إلى داره ثم تفرقت الجموع معلنين الصيام .

وفى مستهل الشهر يجلس السلطان فى الميدان تحت القلعة ويتقدم إليه الخليفة والقضاة الأربعة بالتهنئة ثم يستعرض أحمال الدقيق ، والخبز والسكر . والغنم والبقر المخصصة لصدقات رمضان يعرضها

عليه المحتسب بعد أن يكون استعرضها فى أنحاء القاهرة تتقدمها الموسيقى فينعم على المحتسب وعلى كبار الموظفين .

واستمرت حفلات الرؤيا يشترك فيها الشعب بطوائفه حينما انتقل إثبات الهلال إلى المحكمة الشرعية . فقد كان يحتفل بها احتفالا عظيما ، فيخرج موكب الرؤيا من محافظة مصر إلى المحكمة الشرعية تتقدمه الموسيقى والجنود والتجار ومشايخ الحرف بطبولهم حتى إذا ثبت رؤية الهلال تطلق الصواريخ والألعاب النارية ، وتطلق المدافع وتضاء المنارات ثم يمر موكب الرؤيا فى أنحاء القاهرة معلنا الصيام .

واشتراك مشايخ الحرف فى هذا الموكب وفى المواكب الكبيرة كالأفراح وغيرها كانت تمثل فيـــه التجارات والصناعات على عربات يتبارى أصحابها . كل فى إظهار تجارته أو صناعته مثل مواكب الزهور . فهى من قبيل الدعاية ، والدعابة وفيها ما يثير الإعجاب ، وفيها ما يثير الضحك ، وكان الشعب على بكرة أبيه يخرج لمشاهدة هذه المواكب،وإلى ثلث قرن مضى كانت تقام حفلة الرؤيا طبقا لهذا النظام مع التبسط، ثم تقلص هذا الاحتفال إلى أن أعادت إليه بهجته حكومة الثورة باعتباره من العادات والتقاليد القومية الواجب غرس معالمهـــا وصورها فى نفوس

الأطفال ، لتتعلق بها أذهانهم وتثير فيهم عوامل الشغف بتقاليد بلادهم ، فقد أصدرت الأوامر فى أواخر شعبان سنة ١٣٧٤ إبريل سنة ١٩٥٥ أن يعاد الاحتفال بموكب الرؤية القديمة على نسق يجمع بين سنة القديم والتطور الذى أدركته مصر فى ظل الثورة .

وبتاريخ ٢٢ إبريل سنة ١٩٥٥ نشرت الصحف برنامج الاحتفال كالآتى :

الموكب التقليدى :

ويشمل موكب الرؤية فى القاهرة ، الموكب الرسمى التقليدى الذى سيبدأ من محافظة القاهرة وتشترك فيه عربات أعدتها المصانع والشركات والمحال التجارية تمثل مختلف الحرف والمهن فى مصر .

ويسير موكب الحرف ـ من مكان التجمع وهو الجمعية الزراعية المصرية ـ فى منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم .

ويبدأ الموكب الرسمى من المحافظة فى منتصف الساعة السادسة

فرق الكشافة والموسيقى :

وتشترك فى الموكب الرسمى فرق الكشافة الأهلية ، وفرق

الموسيقى وعربات تمثل نهضة الكليات والمدارس الصناعية والمصانع المصرية والمحال التجارية الكبرى .

انتاج المصانع الحربية :

ولأول مرة تشترك المصانع الحربية فى إبراز إنتاجها وأعمالها فى عربات من تصميمها .

برامج ليلة الرؤية :

وقد أعدت برامج للاحتفال بليلة الرؤية ، منها إطلاق الصواريخ من ميدان التحرير مدة ساعة تبدأ فى الساعة الثامنة والنصف ، كما أعدت اثنتا عشرة فرقـــة موسيقية للعزف فى أهم ميادين العاصمة ، وفى كل الأحياء ليلة الرؤية ، وأيام ذكرى غزوة بدر ، وليلة القدر ، وليلة النصف من شهر رمضان ، وليالى عيد الفطر، وعهد إلى فرق أخرى بالعزف فى عواصم المديريات .

حفلات سمر وتمثيل :

وأعدت وزارتا الشؤون الاجتماعية والتربية والتعليم برنامجا خاصا لحفلات سمر وموسيقى وتمثيل تقام ليلة الرؤية وطوال ليالى شهر رمضان .

وتقام فى ليلة النصف من رمضان حفلة نيلية تشترك فيها زوارق وبواخر مزينة بالأنوار .

البر باليتامى والفقراء :

وأعدت الترتيبات لمشروع أطلق عليه مشروع « بر رمضان» وقد طبعت ووزعت طوابع لجمع المال من فئات مختلفة . وسيقوم بتوزيعها طلاب المدارس والمؤسسات مدة الأسبوعين الأولين من شهر رمضان ، على أن يوزع ماجمع من هذهالتبرعات لليتامى والفقراء فى الأسبوعين الأخيرين من شهر الصيام .

ندوات للوعظ والارشاد

وأعدت إدارة الأزهر الشريف برنامجا كبيرا للوعظ والإرشاد طول أيام الشهر فى أنحاء بلاد الجمهورية .
وقد أرسل الأزهر إلى السادة شيوخ المعاهد كتابا دوريا ليسهموا مع علماء المعاهد والوعاظ فى إحياء شهر رمضان على نطاق أوسع من ذى قبل .

كان لشهر رمضان بهجة وجلال ، فقد كانت تسبقه مقدمات تبشر بمقدمه الذى كان يبعث على البهجة والانشراح بما كان فيه من بذخ ورخاء وخير وفير ، فقد كان نظار الأوقاف منذ شهر شعبان يأخذون فى تنفيذ شروط الواقفين على المساجد من تجديد الحصر، ونظافة المساجد وطلائها ومايلزم لزيادة الإضاءة فيها وإعداد القناديل اللازمة لإضاءة المنارات طوال الليل حتى السحور .

وكان سوق الشماعين فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع والخامس عشر الميلاديين فى النحاسين يحتفل بمقدم هذا الشهر ، فتعلق على وجهات الحوانيت وعلى جوانبها أنواع الفوانيس المتخذة من الشمع ، وأشكال الشموع مابين كبيرة وصغيرة . ومنها شموع المواكب الكبيرة ، ومنها مايزن عشرة أرطال ، ومنها مايحمل على العجل ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار ، يرسم الركوب لصلاة التراويح والخروج ليلا ، فيمر فى شهر رمضان من ذلك مايجل عن الوصف ، وتستمر حوانيته مفتوحه إلى منتصف الليل لكثرة مايشترى ومايكترى من الشموع الموكبية .

ومن تلك التقاليد نشأت فوانيس رمضان ،فقد كـنا ومازلنا نرى فى نطاق محدود السمكرية يهتمون منذ شهر شعبان بعمل الفوانيس بأشكال مختلفة ، ويزينون بها وجهات حوانيتهم فيفرح بها الأطفال .

وكانت أنواع اليـاميش تفرش على أبواب البدالين هى وقمر الدين ويعج بها سوق السكرية داخل باب زويلة ، فيتسابق الشعب إلى الاغتراف منها .وكانت رخيصةالسعر فيتمتع بها الغنى والفقير ، وتقدم للضيوف ، ويوزع منها على أطفال الحارة حينما يطوفون على الدور بفوانيسهم الموقدة محيين أصحابها .

وكانت وكالة قوصون بشارع باب النصر المنشأة حوالى سنة ١٣٤٠ م والباقى مدخلها إلى الآن مقر تجار الشام ينزلون فيها ببضائع بلاد الشام من الزيت والصابون والفستق والجوز واللوز والخرنوب . وكانت حركة التجارة فيها مدهشة لـكثرة مافيها من أصناف البضائع وحركة البيـع والشراء فيها .

ولما تخربت تلك الوكالة ، انتقلت تجارة المـكسرات إلى وكالة مطبخ العسل بالتمبكشية بالجمالية ، وكانت مخصصة لبيـع أصناف النقل كالجوز واللوز ونحوهما .

وكانت أسهم المقرئين ترتفع حيث يكثر العرض عليهم ، فقد كان أغنياء مصر والأقاليم يتبارون فى تعيين مجيدى القراءة

لتلاوة القرآن الكريم فى دورهم طوال شهر رمضان . وكانت الأحياء تضاء وتتجاوب فيها أصوات القراء .

ومن مشاهير القراء من كان أثيرا لدى بعض الأغنياء يحى عنده ليالى رمضان . وكانت دورهم مفتحة طول الليل تستقبل الوافدين عليها لسماع القرآن مع تقديم القهوة أو القرفة شتاء ، والمرطبات صيفا .

وكان لهـــذا الشهر حرمة مقدسة يصومه الرجال والنساء والأطفال ، وتشجع المدارس الأطفال على الصيام وتؤنب المفطرين . والويل كل الويل للمفطرين من الحكومة أولا فقد كان المحتسب يحاسب المفطر بعد أن يسأله عن سبب إفطاره لاحتمال أن يكون مريضا أو مسافراً ، فإن أثبت شيئاً مما يبيح له الافطار عذره للجهر به . وإن كان مفطرا لغير سبب أدّبه . هذا عدا مايلاقيه من استهزاء الأطفال والمناداة عليه « يافاطر رمضان ياخاسر دينك ... »

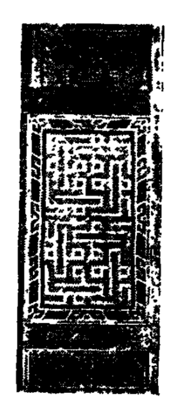
كما كانت الحكومة تعاقب المفطرين من موظفيها بغير عذر شرعى .

وفى القرن التاسع عشر الميلادى كانت دوائر الحكومة تستنجز الأعمال الجارى تشغيلها لصرف قيمتها قبل حلول شهر رمضان . وكانت دواوين الحكومة تعطل فيه عدا ديوانى الخارجية

والضبطية . والجرك ليتفرغ المستخدمون فيه للعبادة بشرط إنجاز جميع مالديهم من مواد متأخرة ، وتصدر الأوامر بذلك منذ منتصف شهر شعبان ، وعلى أن لايعطل من الدواوين إلا من أنجز جميع أعماله

وأصدر محافظ القــــاهرة أمراً فى منتصف شعبان سنة ١٢٧٣هـ ١٨٥٦م بإقامة زينة ومهرجان مرتين فى شهر رمضان شهر الغفران ، واتخاذ اللازم لإحضار لوازم الزينة والألعاب النارية التى يلزم استعمالها لذلك .

وكانت المطاعم تغلق أبوابها نهارا،ومنها مايغلق طوال الشهر. وفيه تستعيد تجديد نظافتها،ومن القهاوى مايغلق نهارا استعدادا للسهر طوال الليل حتى الفجر .



رمضان شهر الخيرات

لقد أجاد من وصفه بأنه شهر الصيام والقيام والإطعام والتسبيح والتراويح والمروءة والفتوّة .

واشتملت حجج أوقاف المساجد والمدارس على الكثير من أنواع البر والصدقات فى هذا الشهر ، من زيادة مرتبات خدمة المساجد وأئمتها ، وتوزيع السكر عليهم وكسوتهم مع كسوة فقيه وعريف الكتاب الملحق بهما ، وكسوة التلاميذاليتامى وغيرهم .

وفى المدارس ، تضاعف كميات الأكل والحلوى للطلبة والأساتذة . وخصصت الأموال الكثيرة لشراء قناطير اللحم الضأن والخبز والأرز والعسل والحبوب لطبخها وتوزيعها على الفقراء .

وفى بعض الخوانق والربط اشترط واقفها توزيع الحلوى على قاطنيها كل ليلة جمعة من رمضان هذا عدا زيادة المخصصات فى رمضان.

وفى ظلال الدولة العباسية كانت دور المضيف ببغداد من الجانبين عشرين دارا ، كل دار مجهزة فى كل ليلة من ليالى رمضان بخمسمائة قدح ، وألف رطل من المطبخ الخاص والخبز النقى والحلوى وغير ذلك، يستمر طوال كل رمضان .

وكان الصاحب بن عباد لا يدخل عليه فى شهر رمضان بعد العصر أحد كائنا من كان فيخرج من داره، إلا بعد الإفطار عنده .

وكانت داره لا تخلو فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس مفطرة فيها ، وكانت صلاته وصدقاته وقرباته فى هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يصرف منها فى جميع شهور السنة .

ويؤثر عن القائد البحرى لؤلؤ الحاجب ، أنه كان سخيا ، وأنه كان يوزع كل يوم اثنى عشر ألف رغيف مع قدور الطعام ، فإذا حلَّ شهر رمضان ضاعف ذلك وأشرف بنفسه على توزيع صدقاته من الظهر فى كل يوم إلى نحو صلاة العشاء الآخرة وكان يضع ثلاثة مراكب طول كل مركب أحد عشر ذراعا مملوءة طعاما ويدخل الفقراء أفواجا وهو قائم مشدود الوسط كأنه راعى غنم وفى يده مغرفة . وهو يصلح صفوف الفقراء ويقرب إليهم الطعام ، ويبدأ بالرجال ثم بالنساء ثم بالصبيان . وكانوا لا يتزاحمون لعلمهم أن الخير يعمهم ، فإذا فرغ من إطعام الفقراء بسط سماطا فخما للأغنياء .

ولؤلؤ هذا قاهر البرنس أرناط صاحب الكرك ، حينما فكر هو وفرنج الشوبك على المسير إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لينبشوه وينقلوا جسده الشريف إلى بلادهم ولا يمكنوا المسلمين

من زيارته إلا بجعل ، فإنه قام من مصر لمطاردتهم سنة ٥٧٨ هـ ١١٨٢ م بأمر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأدركهم ولم يبق بينهم وبين المدينة إلا يوم ، فقاتلهم قتالا عنيفا وهزمهم وأسرهم ، وقيدهم وساقهم إلى القاهرة ، وكان لدخولهم يوم مشهور .

وكان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى يرتب فى أول شهر رمضان بمصر والقاهرة مطابخ لأنواع الأطعمة لتوزيعها على الفقراء والمساكين .

وفى دولتى المماليك كان يوزع على الفقهاء والعلماء توسعة فى شهر رمضان لأولادهم .

كما كان هناك تقليد طريف وهو إعداد أحمال من السكر والمكسرات ولحم الضأن منذ أول رمضان لتوزيعها على الفقراء فى شهر رمضان تحت إشراف المحتسب وناظر الدولة .

أما الحديث عن الكرم فى هذا الشهر فهو حديث مستفيض ، فالدور مفتوحة لاستقبال الوافدين عليها للإفطار ولا فرق بين غنى وفقير .

وكان من عادة أغنياء مصر وجود مطبخين فى كل بيت من بيوت الأغنياء ، أحدهما للرجال والثانى للحريم ، فإذا حان وقت الإفطار مدت الموائد وجعلت مباحة للناس ، ولهم عادات وصدقات فى المواسم وهكذا فى الريف أيضا إذا وقفت عقارات وأطيان للصرف على المضايف .

وما أجمل : المشاهد والمساجد الكبيرة فى أنحاء القاهرة . الإمام الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والإمام الشافعى وغيرهم يقصدها الصائمون لعبادة الله وقراءة القرآن والاستماع إلى دروس العلم وسماع القرآن من مشاهير القراء .

فى تلك المعابد الطاهرة نشعر بالروحانية والجلال ، ويتجلى صفاء النفوس فى البر والتقوى والتقرب إلى الله .

فإذا ما حان وقت الغروب شعرت بجلال رمضان وسطوته وقت الإفطار تكاد الشوارع على ازدحامها أن تقفر وتشعر أنك فى رمضان حقا .



ليلة القدر

« بسم الله الرحمن الرحيم إنا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر » .

يجزم فضيلة الأستاذ الشيخ حسن مأمون بعد أن استشهد بتلك السورة ، وبالآيات الكريمة « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان » . « حم والكتاب المبين إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منزلين » . بأنه لا يراد من إنزال القرآن فى هذه الليلة إنزاله مرة واحدة على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال إن المفسرين اختلفوا فى المراد منه : فذهب بعضهم إلى أن القرآن نزل مرة واحدة إلى السماء الدنيا ولكنه نزل بعد ذلك على الرسول منجماً بمكة والمدينة ، وذهب بعضهم ، إلى أن المراد أن الله بدأ إنزاله على الرسول فى هذه الليلة ، وهو ما يرجحه على غيره من التفسيرات . ويكون المعنى أن الله بدأ إنزال القرآن على الرسول فى هذه الليلة .

ولقد عظّم الله شأن الليلة التى ابتـــدأ فيها نزول القرآن ووصفها بأنها ليلة مباركة ؛ لأن ابتداء نزول القرآن هو اللحظة الحاسمة الفارقة بين ظلام الشرك ونور التوحيد والهداية .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى ليلة القـــدر ــ اطلبوها فى العشر الأواخر من رمضان ــ وأكثر العلماء على أنها فى السابعة والعشرين من شهر رمضان .

ومن نظم الشيخ محي الدين بن العربى فى معرفة ليلة القدر :

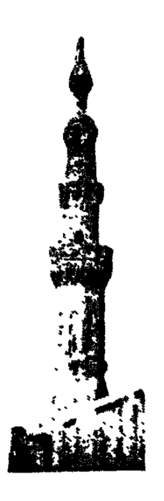
وإنا جميعا إن نصم يوم جمعة
فنى تاسع العشرين خـــذ ليلة القدر
وإن كان يوم السبت أول صومنا
فحادى وعشرين اعتمده بلا عـــذر
وإن هلّ يوم الصوم فى أحـد فخـذ
فنى سابع العشرين ما رمت فاستقر
وإن هـــل فى الإثنين فاعلم بأنه
يوافيك ليل الوصل فى تاسع العشر
ويوم الثلاثا إن بدا الشهر فاعتمد
على خامس العشرين تحظ بها فادر
وفى الأربعا إن هل يا من يرومها
فدونك فاطلب وصلها سابع العشر
ويوم خميس إن بدا الشهر فاجتهد
توافيك بعد العشر فى ليـــلة الوتر

ومن رسالة القاضى الفاضل استهلالها :

الحمد لله الذى رفع قدر شهر الصيام بليلة قدره ، وختم حاصل ثواب الصوم بمسك يوم فطره .

وفى دولة المماليك البحرية كان يقرأ البخارى طوال الشهر فى الجامع الأزهر ويختم ليلة القدر فى حفل كبير يدعون فيه لأولى الأمر بالتوفيق والسداد ، ويحضره القضاة الأربعة ثم توزع الخلع والهبات على العلماء والفقهاء . وفى نهاية دولة المماليك الجراكسة كانت تقام حفلة ختام قراءة البخارى فى خيمة كبيرة بالحوش السلطانى بالقلعة رسميا فى مصر والإسكندرية .

وإلى الآن يحتفى بتلك الليلة رسميا فى مصر والإسكندرية .



التسحير

هو إيقاظ النيام كى يتسحروا ويشربوا قبل فوات الوقت ، ويؤثر عن عنبسة بن إسحاق والى مصر فى سنة ٢٣٨ هـ ٨٥٢ م أنه كان يذهب إلى جامع عمرو ماشيا من مدينة العسكر . وكان ينادى فى طريقه بالسحور .

وكان الأديب ابن نقطة المزكلش المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ١٢٠٠ م يسحر الناس منادياً . « نياما ... قوّما قوّما للسحور »

وكان المؤذنون يتجاوبون على المنارات بتذكير النيام للسحور فى فترات متفاوتة من الليل بأشعار لطيفة وبأهازيج عامية نذكر منها :

الدور الأول من التذكير :

أيها النوام قوموا للفلاح
واذكروا الله الذى أجرى الرياح
إن جيش الليل قد ولّى وراح
وتدانى عسكر الصبح ولاح
اشربوا عَجْلَى فقد جاء الصباح

معشر الصوام يا بشراكمو ربكم بالصوم قد هناكمو

وجوار البيت قد أعطاكمو فافعلوا أفعال أرباب الصلاح

اشربوا عجلى فقد جاء الصباح

تسحروا رضى الله عنكم ، تسحروا غفر الله لكم ، تسحروا فإن فى السحور بركة ، تسحروا قال الله تعالى : « الصوم لى وأنا أجزى به » .

وفى التذكير الثانى يقولون :

كلوا رضى الله عنكم ، كلوا غفر الله لكم ، كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً . كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور .

وفى التذكير بالدور الثالث يرددون :

يا مدبر الليالى والأيام . يا خالق النور والظلام ياملجأ الأنام. يا ذا الطول والإنعام . رحم الله عبداً ذكر الله . ورحم الله عبداً شكر الله . رحم الله عبداً قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وفى التذكير الرابع يرددون :

اشربوا وعجلوا فقد قرب الصباح — ويكررها — الدعاء فى الأسحار مستجاب ، اذكروا الله فى القعود وفى القيام . وارغبوا إلى الله تعالى بالدعاء والثناء . اشربوا وعجلوا فقد قرب الصباح .

وفى الوداع :

يا صائمى رمضان فوزوا بالمنى   وتحققوا نيل السعادة والغنى
وثقوا بوعد الله إذ فيه الهنا   أو ليس هذا القول قول إلهنا

الصوم لى وأنا الذى أجزى به

من صام نال الفوز من رب العلا
وبوجهه أضحى عليه مقبلا
يا من يروم توسلا وتوصلا
صم رغبة فى قول رب قد علا

الصوم لى وأنا الذى أجزى به

وأنكر ابن الحاج[1] العالم المتزمت كثيراً من تلك التقاليد. وفى نقده أعطانا فكرة عما كان عليه التسحير فى مصر وفى غيرها فى القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى فقال:

« إن المسلمين عرفوا التسحير منذ صدر الإسلام إذ أنهم يعرفون جواز الأكل بأذان بلال ومنعه بأذان ابن مكتوم . ومن رأيه السير على تلك السنة أى آذانان بشرط تميز صوت الأول عن الثانى ، فقد جرت العادة أن المساجد الجامعة يكون فيها أكثر من مؤذن .

(١) ابن الحاج الفاسى محمد بن محمد أبو عبد الله العبدرى الفاسى المصرى كان عالماً فاضلا توفى بالقاهرة سنة ٧٣٧ هـ ١٣٣٧ م .

ثم ذكر أن التسحير فى الديار المصرية — يقول المؤذن تسحروا . كلوا واشربوا . وما أشبه ذلك ويقرأون الآية الشريفة : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » ويكررونها مراراً . ثم ينبهونهم إلى الشرب قبل الإمساك بتلاوة الآية الشريفة : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجُها كافوراً » عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً » يُوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ... إلى قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا » ثم ينشدون القصائد .

ويسحرون أيضاً بالطبلة يطوف بها المسحر على البيوت ، ويضرب عليها .

أما أهل الإسكندرية وأهل اليمن وبعض أهل المغرب فيسحرون بدق الأبواب على أصحاب البيوت وينادون عليهم : قوموا كلوا ، وأما أهل الشام فإنهم يسحرون بعزف الآلات الموسيقية والغناء .

وأما أهل المغرب فإنهم يفعلون قريباً من فعل أهل الشام فيضربون بالنفير على المنارات ، ويكررون ذلك سبع مرات ،

ثم بعده يضربون بالأبواق سبعاً أو خمساً . فإذا قطعوا حرم الأكل إذ ذاك عندهم .

وأنكر أيضا تعليق الفوانيس التي جعلوها علماً على جواز الأكل والشرب ما دامت معلقة موقودة على المنارات ، وعلى تحريم ذلك إذا أنزلوها ، وذلك لأن المنارات كانت تعلق عليها الفوانيس مضاءة حتى السحور . ثم تطفأ إيذاناً بالإمساك .



فانوس السحور

كان فانوس السحور موضع مساجلة بين الأدباء والشعراء يتبارون فى وصفه بخيال رائق .

حدثنا على بن ظافر الأديب المصرى المتوفى سنة ٦١٣ هـ ١٢١٦م قال : اجتمعنا ليلة فى رمضان فجلسنا بعد انقضاء الصلاة للحديث (١) وقد أوقد فانوس السحور ، فاقترح بعض الحاضرين على الأديب أبى الحجاج يوسف بن على المعروف بالنعجة أن يصنع فيه ، وإنما طلب بذلك تعجيزه فأنشد :

ونجم من الفانوس يشرق ضـــوؤه
ولكنه دون الكواكب لا يسرى

ولم أر نجما قط قبـــل طلوعه
إذا غاب ينهى الصائمين عن الفطر

فانتدبت له من بين الجماعة وقلت ، هذا تعجب لا يصح لأنى والحاضرين قد رأينا نجوما لا تدخل تحت الحصر ، إذا غابت

---

(١) كان المجلس فى جامع عمرو بالفسطاط .

تنهى الصائمين عن الفطر ، وهى نجوم الصباح ، فأسرف الجماعة فى تقريعه فأنشد :

هـذا لواءُ سـحور يستضاء به
وعسكر الشهب فى الظلماء جرار
والصائمون جميعاً يهتدون به
كأنه علم فى رأسه نار

فلما أصبحنا، سمع من كان غائباً من أصحابنا فى ليلتنا ماجرى ، فصنع الرشيد أبو عبدالله محمد بن متانو وأنشد فيه :

أحبب بفانوس غدا صاعدا
وضـوؤه دان من العين
يقضى بصوم وبفطر معا
فقد حوى وصف الهلالين

وأنشد الفقيه أبو محمد القلعى :

وكوكب من ضرام الزند مطلعه
تسرى النجوم ولا يسرى إذا رقبا
يراقب الصبح خوفا أن يفاجئه
فإن بدا طالعا فى أفقه غربا

كأنه عاشق وافى على شرف
يرعى الحبيب فإن لاح الرقيب خبا

وأنشد ابن ظافر:

ألست ترى شخص المنار وعوده
عليه لفانوس السحور لهيب
كحامل منظوم الأنابيب أسمر
عليه سنان بالدماء خضيب
ترى بين زهر الزهر منه شقيقة
لها العود غصن والمنار كثيب
وتبدو كخد أحمر والدجى لمى
بدا فيه ثغر للنجوم شنيب
كأن لزنجي الدجى من لهيبه
ومن خفقه قلبا عراه وجيب
تراه يراعي الصبح ليلا فإن دنا
طلوع صباح حان منه غروب
فهل كان يرعاها لعشق ففرّ إذ
درى أن روى الصباح قريب

وقال فى اختصار هذا المعنى :

انظر إلى المنار والفانوس فيه يرفع
كحامل رمحا سنا نه خضيب يلمع

وأنشد أيضاً :

وليلة صوم قد سهرت بجنحها
على أنها من طولها تعدل الدهرا
حكى الليل فيها سقف ساج مسمرا
من الشهب قد أضحت مساميره تبرا
وقام المنار المشرق اللون حاملا
لفانوسه والليل قد أظهر الزهرا
كما قام رومى بكأس مدامة
وحيًّا بها زنجية وُشِّحتْ درا

وأنشد شهاب الدين يعقوب :

رأيت المنار وجنح الظلام من الجو يسدل أستاره
وحلّق فى الجو فانوسه فذهّب بالنور أقطاره
وخِلت المنار وفانوسه فتى قام يصرف ديناره

وأنشد القاضى أبو الحسن بن النبيه .

حبذا فى الصيام مئذنة الجا
مع والليل مسبل أذياله
خلتها والفانوس إذ رفعته
صائداً واقفاً لصيد الغزاله

وأنشد ابن نفطويه :

نصبوا لواء للسحور وأوقدوا
فى رأسه ناراً لمن يترصد
فكأنه سبّابة قد قُمعت
ذهباً وقامت فى الدجى تتشهد

وأنشد الأديب أبو العز مظفر الأعمى بعد أن سمع جميع المقاطيع :

أرى علما للناس فى الصوم ينصب
على جامع ابن العاص أعلاه كوكب
وما هو فى الظلماء إلا كأنه
على رمح زنجى سنان مذهب
ومن عجب أن الثريا سماؤها

مع الليل تلهى كل من يترقب

فطوراً تحييه بباقة نرجس

وطوراً يحييها بكأس تلهب

وما الليل إلا قانص لغزالة

بفانوس نار نحوها يتطلب

ولم أر صياداً على البعد قبله

إذا قربت منه الغزالة يهرب



المسحراتى

وكان وإلى الآن يدق المسحراتى على طبلته منشدا مواعظا ومحييا لسكان الدار وراويا لهم الأقاصيص ، فمن أقواله :

يا غفلان وحد ربك   وبالتقى عمــر قلبك
ما يوم تقلق على رزقك   دا ربنا عالم بالحال
يارب قدرنا على الصوم   واحفظ إيماننا بين القوم
وارزقنا يارب باللحم المفروم   أحسن يارب ماليش أسنان

ووضع الزجال المشهور الشيخ محمد النجار حمل زجل للسحر

المطلع

ثبت هلال رمضان وقالوا صيام
لرؤيته والشــك زال باليقين
أحياكم المــولى إلى كل عام
وكل عام وأنتم بخــير طيبين

دور

رمضان هــو الشهر الذى فضله
ربه على ســائر شهور السنه

صحـــة لمن صامه وفيه الثواب
والأجر للمؤمن والمؤمنـــه
فيه أنزل القــرآن على المصطفى
رحمـــة وآيات للهـدى بينه
صوموا وصـلوا فرضكم والقيام
واستغنموا به الأجــر يامسلمين
أحياكم المولى إلى كل عـام

دور

مفروض على بالغ وعاقل مقيم
مسلم ومالك فى الصيام صحتـــه
صوموه وصلوا الخمس لا تتركوا
فرض الإلـه مرة ولا سنته
والوتر أدوا واقنتوا محافظــين
على الصـــلاة الوسطى تروا جنته
يشفع لـــكم المصطفى فى الزحام
والموقف الهـايل على المذنبين
أحياكم المولى

دور

أنا المسحر جيت أطبل لكم

حافظ أساميكم صغير مع كبير

فى كل ليلة لى على كل بيت

اللى من الذمة خرج للفقير

ولى عدية عندكم كل عيد

الكعك وكفوف الشريك والفطير

آجى أصحيكم وأنتم نيام

وقت السحر عن كل خير غافلين

أحياكم المولى

أنا المسحر جيت معى طبلتى

وأحكى حكاية الفار وأقول قصته

وأحكى حكاية الفار واقول ماجرى

بينه وبين القط يوم وقعته

الفار جعل بيت الفقير مسكنه

وكل يوم يسطى على مشنته

وحرمه رغيف يخبزه ابن الحرام

وأكل الحرام خلاه ملظلظ سمين

وظل يقص حكاية القط مع الفار إلى أن وقع الفار بين مخالبه .

ثم ختم الزجل بقوله

أدى جـــزاء من غرته شهوته
حتى هوت فى به مهاوى الهـــوان
وادى جزاء من راح بنفسه إلى
موته وخد له من عـــدوه الأمان
وادى جزاء من كان يصدق جميع
ما يسمعه ويميل لمدح اللسان
وأختم حكايتى بالصـــلاة والسلام
على ابن رامه خاتم المرسلين
أحياكم المولى إلى كل عام وكل عام وأنتم بخير طيبين

وله مواويل سحر بها المسحراتية .

إنوى صيامك وبيت نيتك بالليل
وصم نهارك وخلى لك إلى الخير ميل
واعرف يقينك وشمر ساعدك والذيل
لحفظ دينك واصح تكون «الأفرنكة»
وتقول على الصوم يهدّ العافية والحيل
جوعوا تصحو حديث عن سيد السادات
له العيان بينه والتجربة إثبات

دا شهر فى العام ما هوش فى جميع الأوقات
والإش يوم الشتا فجره مع المغرب
ورؤية الأكل بعد الجوع لها فرحات
يا خاسر الدين يافاطر نهار رمضان
ماهوش كدا المسلمين ماهوش كدا الإيمان
تِـدِبّ بطنك وتحلف قال كان إيمان
فاطر وكداب على الله فى نفس واحد
فى أمر تقدر عليه مع ضعفها النسوان
قلل من الفـول يامخلول والطرشى
لحسن تفشلق وتبقى من العشا تحشى
واصحى قوى تكتر قوى من أكالك المحشى
وتخمّـه يامرِمّ دى حلوه ودى وحشه
تعيا ببطنك وعند الصوم ما تقدرشى
الصوم هو الصون عن فعل الذى فيه لوم
عشان كدا كان من جملة عبادته النوم
وللسفر والعيا اللى لا تطيق فيه صوم
يجوز لك الفطور فيه والصوم خير لك
والفطر فيه القضا واليوم عليك فيه يوم

يالى على الفرض يوم العرض مش سائل

بكره عليه تنسئل والرب لك سائل

إحسب حساب وقفتك وانت ذليل سائل

وخجلتك فى القيـامة بين أيادى الله

من العرق فى غرق والدمع لك سائل

إن كنت تسمع نصيحتى والنصيحة تفيد

قلل من الأكل ما أمكن بدون ترديد

وأكلك الكحك بعد الصوم نهار العيد

يجيب عيا للكبد وتخسر المعدة

وكل ما يزيد دسم يكتر ضرر ويزيد

فإذا ما قارب الشهر الفراغ وحَّش الشهر بقوله لا أوحش الله منك يا شهر الصيام ، لا أوحش الله منك يا شهر القيام ، لاأوحش الله منك يا شهر الولائم ، لا أوحش الله منك يا شهر العزائم ، لا أوحش الله منك يا شهر الكرم والجود .

ولم يكن توحيش رمضان قاصرا على المسحراتى بل سبقه فيه المؤذنون والقراء وأنكر جمال الدين القاسمى التوحيش وعاب على أحد العلماء وهو يوحش رمضان ، وقال يجب أن يتوجه بالموعظة ويقول :

عباد الله أشكروا نعمة الله على ما يسر لكم من صيام رمضان ، وأعطاكم من نعمة الإيمان ، فقد أمركم بذلك من بنوره يهتدى المهتدون فقال تعالى « ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » ، وودّعوا شهر رمضان بكثرة الاستغفار من التقصير ، والعزم على دوام الجد والتشمير ، فقد كان للمتقين روضة وأنسا . وللغافلين قيدا وحبسا ، كان نزهة للأبرار ، وقيدا للأشرار ، فطوبى لمن حل فيه عقدة الإصرار ، وحل فى روضة التقوى فى منزل الافتقار .



موائد رمضان

الكنافة والقطايف

لقد خص هذا الشهر بالمغالاة فى إعداد موائده والإفراط فى المرطبات والحلوى وعلى رأسها القطايف والكنافة ، وكلاهما مما اختصت به مصر من أقدم العصور ، ويقال أن الكنافة صنعت خصيصاً لسليمان بن عبد الملك كما قيل إنها عملت لمعاوية وكلاهما كان يتسحر منها .

وكانت الكنافة والقطايف موضع مساجلات بين الشعراء فمن ذلك قول علم الرؤساء أبو القاسم عبد الرحمن بن هبة الله المصرى فى القطائف

وافى الصيام فوافتنا قطائفهُ

كما تنضّمت الكُثْبانُ من كَثَبِ

وله أيضاً فى القطائف المقلوة :

أهلاً بشهر غدا فيه لنا خَلَفٌ

أكلَ القطائف عن شرب ابنة العنب

من كل ملفوفة بيض إلى أخَرٍ [1]
حمْرٍ من القَلْىِ تشفى [2] جنة السَّغبِ

ولابن يحيى بن أبى منصور المنجم :

قطائفٌ قد حشيت باللوز
والسكر الماذىّ [3] حشو الموزِ
تسبح فى آذِىّ [4] دُهن الجوز
سررت لما وقعت فى حَوْزى
سرور عباسٍ بقرب فوز [5]

ولابن نباتة المصرى :

وقطايف رقت جسوما مثل ما
غلظت قلوبا فهى لى أحساب
تحلو فما تغلو ويشهد قطرها ال
فياض أن ندى علىّ سحاب

---

(١) الشطر فى المغرب .. « ماببن محشوة صفت إلى آخر » .
(٢) جنة السعب : شدة الجوع .
(٣) الماذى : العسل. (٤) الآذى : الموج .
(٥) فوز : هى معشوقة العباس بن الأحنف .

ولابن الوردى :

بعثت قطائفا رَوّى	حشاها قطرُها العامر
فسكرها أبو ذر	ومرسل صحنها جابر

ولابن نباته المصرى :

أقول وقد جاء الغلام بصحنه
عقيب طعام الفطر يا غاية المنى
بعيشك قل لى جاء صحن قطائف
وبح باسم من أهوى ودعنى من الكنا[1]

وللصلاح الصفدى :

أتانى صحن من قطائفك التى
غدت وهى روض قد تنبت بالقطر
ولاغرو إن صدقت حلو حديثها
وسكرها يرويه لى عن أبى ذر

ولبرهان الدين القيراطى وكتب بها إلى القاضى نور الدين ابن حجر والد القاضى شهاب الدين[2].

مولاى نور الدين ضيفك لم يزل
يروى مكارمك الصحيحة عن عطا

(١) تورية يشير بها إلى معنيين: الكنى جمع كنية والكنا هنا بمعنى الكنافة

(٢) هو أحمد بن حجر العسقلانى .

صدقت قطائفك الكبار حلاوة
بفمى وليس بمنكر صدق القطا

ولابن المنشد :

وقطائف مثل البدور أتت لنا من غير وعد
فحسبتها لما بدت فى صحنها أقراص شهد

وللسراج الوراق :

قطائفك التى رقت جسوما
لماضغها كما كثفت قلوبا
كغيم رق لكن فيه قطر
غدا المرعى الجديب به خصيبا

ولابن نباتة :

رعى الله نعماك التى من أقلّها
قطائف من قطر النبات لها قطر
أمد لها كفى فأهتز فرحة
كما انتفض العصفور بلله القطر

وللعلم المرصص :

وحقك ما أوليتنى من قطائف
ألذ وأحلى من وصال القطائف

وقد ضمنت مثل العتاب حلاوة

ألم ترها ملفوفة كالصحائف

وللشاعر المصرى الجمال أبو الحسن الجزار من قصيدة إلى جمال الدين بن يغمور .

ما رأت عينى الكنافة إلا

عند بياعها على الدكان

وقوله لشرف الدين الفائزى :

أيا شرفَ الدين الذى فيضُ جوده

براحته قد أخجل الغيث والبحرا

لئن أمحلت أرض الكنافة إننى

لأرجو لها من سحب راحتك القَطْرا

فعجِّل به جوداً فمالى حاجة

سواه نباتا يثمرُ الحمدَ والشكرا

وقوله :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر

وجاد عليها سكر دائم الدر

وتبّاً لأوقات المخلل إنها

تمرّ بلا نفع وتحسب من عمرى

أهيم غراما كلما ذُكر الحمى
وليس الحمى إلا القُطَارة بالسَّحَر

وله :

تالله مالثم المراشف	كلا ولا ضمّ المعاطف
بألذّ وقعاً فى حشا	ىَ من الكنافة والقطائف

ولابن نباتة المصرى وقد أهدى كنافة مخنقة :

يا سيدى جاءتك فى صدرها	كأنها روحى فى صدرى
كنافةً بالحلو موعودة	كما تقول العسل المصرى
قد خنقتنى عبرتى كاسمها	وبادرت من خلفها تجرى
ما خرج الفستق من قشره	فيها وقد أخرجت من قشرى
ونشرها مِن طيبها لم يفح	فاعجب لسوء الطى والنشر
فهاك حلوا قد تكفلته	ولا تسل عنى وعن صبرى
كأنها الدُّمية لكنها	لا نفحة العرف ولا القطر
لا زلت فى الدهر كما تبتغى	وفوق ما تبغى من الدهر

وقال زين القضاة السكندرى :

لله در قطائف محشوة
من فستق رعت النواظر واليدا

شبهتها لما بدت فى صحنها
بحقاق عاج قد حشين زَبَرْجدا

وقال أبو على الحسين بن محمد الترمسى :

وقطايف محشـــوة بلطائف
طافت بنـا أكرم بها من طايف
شبهتها نُضدت على أطباقها
بوصائف قامت بجنب وصايف

وقال سيف الدين بن قزل المنشد :

وقطايف مثـل البـدو ر أتت لنا من غير وعد
قد سقّيت قطر النبـا ت وطيبت بالماءورد
لحسبتهـا لمـا بدت فى صحنها أقراص شهد

وقال سعد الدين بن عربى :

وقطـايف مقرونة بكنافة
من فوقهن السـكر المذرور
هاتيك تطربنى بنظم رائق
ويروقنى من هـذه المنثور

وللعلامة جلال الدين السيوطى رسالة ظريفة عنوانها منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف .

وهناك أنواع أخرى من الحلوى اهتم المصريون بأكلها فى شهر رمضان . تصادف أن ارتفعت أثمانها فى رمضان سنة ٩١٧ ﻫ فرفعت شكوى منظومة إلى المحتسب حوت أنواعا من الحلوى منها :

لقد جاد بالبركات فضل زماننا
بأنواع حلوى نشرها يتضوّعُ
حكتها شفاه الغانيات حلاوة
ألم ترنى من طعمها لست أشبع
فلا عيب فيها غير أن محبّها
يبدّد فيها ماله ويضيّع
فكم ست حسن مع أصابع زينب
بها كل ماتهوى النفوس مجمّع
وكم كعكة تحكى أساور فضة
وكم عقدة حلّت بها البسط أجمع
وكم قد حلا فى مصر من قاهرية
كذاك المشبّكْ ، وصله ليس يُقطع

وفى ثوبه المنفوش جاء برونق

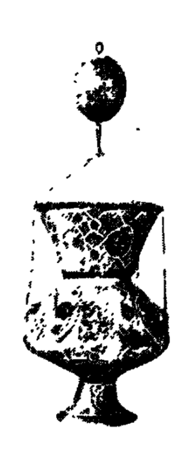
فيا حبذا أنواره حين تسطع

وقد صرت فى وصف القطايف هائما

ترانى لأبواب الكنافة أقرع

فيا قاضيا بالله محتسبا عسى

ترخص لنا الحلوى نطيب ونرتع



رمضان

فى القرن التاسع عشر بمصر

إن عوائد وتقاليد شهر رمضان لم تتغير فى حقبة من حقبات التاريخ كما يظهر من الاستعراض الذى ذكرناه فى مختلف العصور .

والمستشرق الإنجليزى لين أقام بمصر فى القرن التاسع عشر ١٨٢٥ - ١٢٣٣ فاستهوته بعاداتها وتقاليدها ، ومنها شهر رمضان الذى يصفه كما رآه وعاش فى بحبوحته .

« تسمى الليلة التى يترقب فيها هلال رمضان ليلة الرؤية ، فيذهب نفر من الناس عصر اليوم السابق ، أو قبل ذلك ليقضوا بضع ليال فى الصحراء ، حيث يصفو الجو خاصة لرؤية الهلال الجديد ، إذ أن الصيام يبدأ فى اليوم التالى لرؤية الهلال ، فإذا تعذرت رؤيته بسبب السحب ، بدأ الصوم عندما يتم شعبان ثلاثين يوما ، وفى مساء ذلك اليوم يسير موكب المحتسب ومشايخ الحرف المتعددة الطحانين والخبازين والجزارين والبدالين وباعة الفاكهة ومعهم بعض أعضاء من هذه الحرف ، وفرق من الموسيقين ، وفرق من الجنود من القلعة إلى مجلس القاضى ،

وينتظرون شهود الرؤية ، وتزدحم الشوارع التى يمر منها هذا الموكب بالمشاهدين على الجانبين ، وجرت العادة فى هذا الموكب أن تقاد خيول مسرجة بأجمل السرج .

غير أن الموكب المدنى والدينى استبدل أكثره بعرض عسكرى فيتكون موكب ليلة الرؤية الآن من مشاة النظام خاصة ويتقدم حاملو المشاعل كل فرقة من الجنود ويتبعونها لينيروا لهم الطريق ، ويتلوهم شيخ حرفة وآخرون من أتباعه والشعب حولهم مهللا مكبرا ، ويفصل كل فرقتين أو ثلاث عدة دقائق ، ويختم المحتسب وتابعوه الموكب .

وعندما يصل خبر رؤية الهلال يقسم الجنود الآخرون أنفسهم إلى عدة فرق تعود إحداها إلى القلعة (مقر الحكم) ويجول الآخرون فى الأحياء المختلفة صائحين يا أمة خير الأنام صيام صيام . فإذا لم يظهر الهلال ينادون غدا من شهر شعبان ـ فطار فطار ـ ويقضى الناس على العموم شطرا كبيرا من الليل عند ما يعلن بدء الصيام فى الغد فى الأكل والشرب والتدخين ويبتهجون وتضاء المساجد طوال الشهر ، وتعلق المصابيح عند مداخل المساجد وفوق شرفات المآذن .

لم يعد المرء يشاهد فى رمضان المارة يمسكون بشبكهم فى الشوارع كما كان يشاهد فى أوقات أخرى ، فيراهم بدلا من ذلك إلى ماقبل الغروب ، يحملون عصا أو مسبحة ويجاملهم المسيحيون فى عدم التدخين علانية ، وتبدو الشوارع كئيبة فى الصباح ، إذ أن كثيرا من الحوانيت يغلق ، غير أنها تفتح جميعا فى العصر وتزدحم كالمعتاد ، وبعض الصائمين ينحرف مزاجه قليلا فى النهار. وفى الليل بعد الإفطار يبشون ويمرحون . وعادة كبار الأتراك بالقاهرة وكثيرين غيرهم أن يقصدوا مسجد الإمام الحسين عصر كل يوم من رمضان للصلاة ، وفى هذا الوقت يعرض بعض التجار الأتراك الذين يسمون تحفجية على الناس فى ساحة الميضاة مجموعة من البضائع ذات ذوق وترف يلائمان رغبات مواطنيهم وغيرهم

ومن الشائع فى هذا الشهر أن تشاهد تجارا فى حوانيتهم يتلون القرآن أو الأدعية أو يوزعون الخبز على الفقراء .

وفى الليل تزدحم المقاهى بأخلاط الناس لتناول القهوة والتدخين فى الشبك . وفى رمضان على العموم يوضع كرسى عليه صينية الطعام قبيل الغروب فى غرفة الاستقبال بمنازل الطبقتين

العليا والوسطى ويوضع عليها صحاف عديدة تحوى أصنافا مختلفة من المرطبات والمكسرات والبلح والتين ويجلسون فى انتظار الوافدين عليهم على غير انتظار وتجهز الشبكات أيضاً . فقد جرت العادة أن تزود المنازل التى يكثر زوارها بشبكات للتدخين ، فإذا ما أذن للمغرب يشرب رب الدار ومن معه كوبا من الشربات . ثم يقيمون الصلاة عادة ويتناولون شيئاً من المكسرات المقشرة ومن البلح والتين ويدخنون الشبك . وبعد هذا الأكل الخفيف يجلسون لتناول طعام وافر من اللحم وغيره .

وبعد الفراغ من الطعام وشرب القهوة وتدخين الشبك يقيمون صلاة العشاء ويؤدون صلاة التراويح وقل من يقيم هذه الصلاة إلا فى المسجد .

وتقفل المساجد الصغيرة فى رمضان بعد صلاة التراويح . وتظل الجوامع الكبيرة مفتوحة إلى السحور أو إلى الإمساك ويضاء داخلها ومداخلها مادامت مفتوحة . وتضاء المآذن طول الليل ويختلف مدى الوقت الذى يصومون فيه مابين ١٢ ساعة إلى ١٤ ساعة تبعا لطول الليل أو قصره .

ويتناول المسلمون على العموم فطورهم بالمنزل فى شهر رمضان وبعد ذلك يمضون أحيانا ساعة أو ساعتين فى منزل أحد الأصدقاء. ويقصد الكثيرمنهم وخاصة متوسطى الحال إلى المقاهى مساء للاستماع إلى أحد القاصين الذين يسلون القوم فى عدة مقاه كل ليلة من هذا الشهر . ويشاهد فى الشطر الأكبر من الليل كثيرا من المارة فى الشوارع . وتظل دكاكين المشروبات والمأكولات مفتوحة وهكذا ينقلب الليل نهارا وبخاصة عند الأغنياء الذين ينام أكثرهم معظم النهار . وجرت عادة بعض علماء القاهرة أن يقيموا ذكرا فى منازلهم كل ليلة من رمضان .

فى كل ليلة من ليالى رمضان يجول المسحرون ليقولوا أولا كلمة ثناء أمام كل منزل يستطيع صاحبه أن يكافئهم . وفى ساعة متأخرة يجولون ليعلنوا وقت السحور. ولكل «خط» أو قسم صغير فى القاهرة مسحر . ويبدأ المسحر جولاته بعد الغروب بساعتين تقريبا أى بعد صلاة العشاء ممسكا بشماله طبلا صغيرا يسمى بازا أو طبلة المسحر وبيمينه عصا ويقف أمام منزل كل مسلم غير فقير . وفى كل مرة يضرب طبلته ثلاث مرات ثم ينشد قائلا :

« محمد الهادى رسول الله » ثم يعود إلى ضرب طبلته ويواصل كلامه (واسعد لياليك يافلان (مسميا صاحب المنزل) ثم أولاده دون النساء وللبنات يقول أسعد الليالى إلى ست العرايس فلانة . ويضرب طبلته بعد كل تحية . وهو ينشد أمام منازل العظماء وغيرهم بعد أن يقول : عز من يقول لا إله إلا الله محمد الهادى رسول الله أغنية طويلة فى سجع غير موزون يبدأ فيها باستغفار الله ويصلى على الرسول . ثم يأخذ فى رواية قصة المعراج وغيرها من قصص المعجزات .

ويتناول المسحر على العموم من منزل المتوسطى الطبقة قرشين أو ثلاثة قروش أو أربعة فى العيد الصغير (مع الهدايا من الكعك) وفى بعض الليالى يطلبون منه قصصا قصيرة ويلقون إليه بالنقود من النافذة فيروى لهن قصة قصيرة فى سجع غير موزون . مثل قصة الضرتين وهى قصة مشاجرة بين امرأتين متزوجتين من رجل واحد .

ويقام فى هـــذا الشهر آذانان قبيل الفجر يلقى أولهما ويسمى « الأبرار » قبل منتصف الليل ، ويتكون من الآيات الكريمة « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجهـــا

كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ».

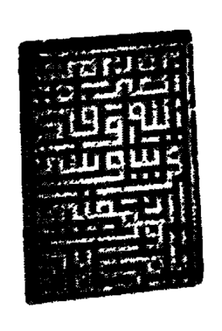
ويسمى الآذان الثانى « السلام » وهو مجموعة من الصلاة على الرسول تشبه تلك التى تقرأ قبل صلاة الجمعة ، ويلقى على العموم بعد منتصف الليل بنصف ساعة. ويلقى آذان الصباح أكثر تبكيرا من المعتاد لتنبيه المسلمين إلى تناول السحور .

ويتجول المسحر قبل الإمساك بساعة ونصف ليوقظ من الناس من أمروه بالمناداة عليهم ، فيقرع الباب وينادى إلى أن يجاب ، ويفعل مثله بواب حارة .

وبعض الناس يتناول فطورا خفيفا ويجعلون السحور الوجبة الرئيسية ويفعل آخرون بالعكس ويمضى الكثير من الصالحين الأيام العشرة الأخيرة من رمضان ولياليها فى مسجد الإمام الحسين أو مسجد السيدة زينب .

ويحتفلون بليلة القدر ويعتقدون أن الملائكة تنزل فى بدء تلك الليلة إلى الفجر لتحمل النعم إلى المؤمنين. وأن الدعاء يجاب بلاريب إذ أن أبواب السماء تفتح حينئذ .

ويقال إن الماء المالح ينقلب لجأة عذبا فى هذه الليلة ، ولذلك يراعى الأتقياء الليالى العشر الأخيرة من رمضان بخشوع عظيم لعدم تحققهم من موعدها ، لأن المتواتر أنها ليلة ٢١ أو ٢٣ أو ٢٥ أو ٢٧ أو ٢٩ .



رمضان

فى الإقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة

يشترك هذا الإقليم مع شقيقه الإقليم الجنوبى فى كثير من العادات ، وكان لشهر رمضان فيه روعة وجلال .

فترى الناس يهرعون إلى المساجد للعبادة وصلاة التراويح وتلاوة القرآن ، كما يزداد إقبالهم على البر وبذل الصدقات وكانت لهم عادات طريفة فى التسحير إذ يوقظون النيام على نغمات الموسيقى وذلك فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين .

وقد وصفهم رحالة فى مستهل القرن الحادى عشر الهجرى بأنهم يحيون ليالى رمضان المعظم بإقامة التراويح بأحسن أداء يورث النشاط . وأن المكبرين يلونون فى التكبير بالأصوات الحسنة . والإمام يصليها بسورة الرحمن بصوت حسن .

وفى أخريات الشهر يصلون مع الإمام اثنى عشرة ركعة عقب التراويح يزعمون أنها صلاة الرغائب .

وفى هذا الشهر يضاء باب البريد أحد أبواب الجامع الأموى ويزين أجمل زينة .

وفى مدينة حلب إذا ما بلغ الطفل سن المراهقة صام رمضان

فيعمل له فى أول يوم صامه مائدة حافلة مملوءة من أنواع الحلوى يفطر عليها .

وهم يشاركون مصر أيضا فى المسحراتى بطبلته ، وإحياء ليالى رمضان بتلاوة القرآن فى المساجد والدور ، والتذكير قبيل السحور .

وكان يخرج قبل العيد بيومين رجل مضحك « مسخرة» يلبس قلنسوة طويلة فى أعلاها ذنب ثعلب وفى يده دف يدق عليه وأمامه حمار مزين بالخرز الملون والودع ، معصب الرأس بالمناديل الملونة ، فيدور على هذه الهيئة بالأزقة والشوارع مستجديا عارضا ألعابه ورقصه « ويسمونه جحش العيد » .

وكان يخرج فى كل يوم من أيام العيد صبيان قد صبغوا أجسادهم ، ولبسوا ثيابا قصيرة وفى رؤوسهم قلانس طويلة ، وفى أيديهم دفوف يضربون عليها ويمرون على دور الأغنياء مادحين لهم راقصين أمامهم فيمنحونهم الهبات والحلوى ويقال لهم : « بيضا بيضا » .

رمضان فى تونس

وشاركت بلاد المغرب الأقطار الإسلامية فى الحفاوة بهذا الشهر المبارك كما شاركتها فى بعض عوائده وتقاليده .

وقد سبقت الإشارة إلى عوائدهم فى التسحير والتنبيه إلى مواعيد السحور بضرب النفير من فوق المنارات . كضربهم به فى الأفراح وهم يحتفلون بهذا الشهر غاية الاحتفال ويتفرغون فيه للعبادة ويحيونه بالبر والصدقات .

وفى تونس الخضراء يختمون فى غالب المساجد القرآن العظيم فى صلاة التراويح إلا فيما قل من المساجد .

وكذلك اعتناؤهم بختم المسند الصحيح للإمام البخارى رضى الله عنه وبقية الأسانيد الستة ، إلا أن البخارى عندهم أشهر وروايته أظهر وإن كان غيرهم من المغاربة يقدمون كتاب الإمام مسلم بن الحجاج رضى الله عنه على كتاب البخارى . وكلهم على حقيقة وصحة .

رمضان فى استامبول - فى نهاية القرن التاسع عشر :

كانت استامبول إلى هذه الحقبة مقر الخلافة الإسلامية . ولذلك آثرت تتبع إحياء رمضان فيها :

ومن أجل العوائد فى بيت الخلافة وقتئذ قراءة تفسير القرآن الشريف فى شهر رمضان بحضور الخليفة . فيحضر فى القصر السلطانى عشرة من مشاهير المدرسين ومعهم جملة من الطلبة قبيل العصر .

وبعد صلاة العصر يجلس كل واحد منهم فى مجلسه الخاص ، ويجلس الجميع على شكل هلال به أريكة جلالة الخليفة . فيشرع الذى عليه الدور فى الدرس من هؤلاء العشرة فيقرأ التفسير ويسأله الطلبة الحاضرون عما يعن لهم من الأسئلة فى الآية التى يفسرها ، وهو يجيب وهكذا حتى يختم الدرس .

ثم يتبعه فى اليوم التالى أو الذى بعده على ما تقتضيه الإرادة السنية أستاذ آخر من العشرة حتى تتم عدة شهر رمضان فى سماع تلك الدروس . وعلى هذا الأسلوب ، وهى عادة قديمة فى الدولة العثمانية منذ قرنين . وبعد أن ينعم على الأساتذة والطلبة بهبات يقرأ معهم الفاتحة ثم ينصرفون .

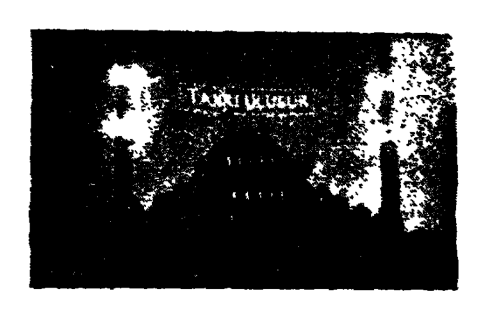
ومن العوائد القديمة فى الآستانة وقتئذ أن يتخذوا صحن مسجد بايزيد فى رمضان سوقا تعرض فيه البضائع على اختلافها . ويبدءوا بإعداد هذا السوق منذ منتصف شهر شعبان فلا يأتى رمضان إلا والصحن معرض عظيم يحرم على النساء ارتياده . ومن العوائد ترتيب الإضاءة فى بعض المساجد بشكل يقرأ منه بعض الكلمات أو الجمل المركبة وكذا ما بين المنارتين فى المساجد المتعددة المنارات حيث تقرأ مرحباً برمضان وما شاكل ذلك بخط جميل من نور فى عرض الجو .

ومن العوائد أيضاً أن ينزل الخليفة فى نصف رمضان لزيارة الخرقة المباركة المودعة فى السراى القديمة الهمايونية . ويكون لهذا اليوم شأن عظيم يحتفل به الصغير والكبير ليجتلوا طلعة خليفتهم .

ومن تقاليدهم أن يتناول كبار رجال الدولة الإفطار على الموائد السلطانية وكذلك أفراد الجند مع أمرائهم وتعطى لهم هبات بعد الإفطار .

أما ليلة ٢٧ ليلة القدر فيحتفلون بها احتفالا خاصاً يحضره الخليفة فى المسجد المحمدى ويصلى فيه صلاة التراويح . وتضاء المدينة تلك الليلة ويكثر فيها الفرح والابتهاج . وفى جامع أيا صوفيا يجتمع الناس فى تلك الليلة ويقرءون القرآن . ويقام بفناء الجامع سوق حافلة .

وإلى وقت ليس بالبعيد كانت طريقة الإضاءة بالكتابة تستعمل بالحروف اللاتينية ولعلها موجودة إلى الآن .



رمضان فى الأدب العربى

لم يترك الأدب العربى شيئا إلا تناوله، وكثيرا ما تناول الأشياء بالقدح أو المدح أو بهما معا وكان لشهر رمضان حظ من الشعر ما بين ترحيب بمقدمه وتوديع له مع استقبال العيد .

فمن أحسن ما قيل فى التهنئة بشهر رمضان :

نلت فى ذا الصيام ما ترتجيه   ووقاك الله له ما تتقيه
أنت فى الناس مثل شهرك فى الأشـ   ـهر أو مثل ليلة القدر فيه

ولهبة الله بن الرشيد جعفر بن سناء الملك من قصيدة :

تهن بهذا الصوم ياخير صائم   إلى كل ما يهوى ويا خير صائم
ومن صام عن كل الفواحش عمره
فأهونُ شىء هجره للطاعم

ولابن الرومى :

شهر الصيام مبارك   ما لم يكن فى شهر آب
خفت العذاب فصمته   فوقعت فى نفس العذاب

فأكمله شاعر آخر :

اليوم فيه كأنه   من طوله يوم الحساب

والليل فيه كأنه ليل التواصل والعتاب

ولمحمد بن الرومى المعروف بماماى :

ولما انقضى شهر الصيام بفضله
تجلى هلال العيد من جانب الغرب
كحاجب شيخ شاب من طول عمره
يشير لنا بالرمز للأكل والشرب

ولابن قلاقس من قصيدة :

وهلال شوال يقول مصدقا
بيدى غصبت النون من رمضان

وللصاحب بن عباد :

قد تعدوا على الصيام وقالوا حُرم الصب فيه حسن العوائد
كذبوا فى الصيام للمرء مهما كان مستيقظاً أتم الفوائد
موقف بالنهار غير مريب واجتماع بالليل عند المساجد

ولعمارة اليمنى :

وهنئت من شهر الصيام بزائر مناه لو ان الشهر عندك أشهر
وما العيد إلا أنت فانظر هلاله فما هو إلا فى عدوك خنجر

وللطغرائى :

قوموا إلى لذاتكم يا نيام ونبهوا العود وصفو المدام

هذا هلال الفطر قد جاءنا بمنجل يحصد شهر الصيام

وقال أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن السلار :

وقد سلت أكف الفطر جهرا على شهر الصيام سيوف باس
ولاح لنا الهلال كشطر طوق على لبات زرقاء اللباس

ولابن المعتز :

اهلا بفطر قد أتاك هلاله فالآن فاغد إلى السرور وبكّر
فكأنما هو زورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

ولظافر الحداد السكندري :

هلل فإن هلال العيد عاد بما قدكنت تعهد من لهو ومن طرب
كحلقة من لجين ذاب أكثرها
لما تغافل ملقيها على اللهب

وقال الجزار

إن هلال الفطر لما بدا
مستحسنا فى أعين الناس
وددت أن ألثمه عندما
راح يحاكى شفة الكاس

وللأمير تميم بن المعز لدين الله يهنئ الخليفة العزيز بالله بشهر رمضان .

ليهنك إن الصــوم فرض مؤكد

من الله مفروض على كل مسلم

وإنك مفروضَ المحبـة مثله

علينـا بحـقٍّ قلتُ لا بالتوهم

فهنئته يـا من به الله قابل

من الخلق فيه كل نُسُـكٍ مقدم

ولا زلت منصورا على فرض صومه

ومعتصما بالله من كل محَــرَم

وقال : أيضاً يمدح الخليفة العزيز بالله ويهنئه بشهر الصيام

شهر الصيام أجل شهر مقبل

وبـه يمحص كل ذنب مثقل

وكذاك أنت أبر من وطىء الحصا

واجلُّ أبنـاء النبي المرسل

يـا حجة الرحمن عند عبادة

وشهابَـهُ فى كل أمر مشكل

من لم يكن صومه متقربا

بـك للإله فصومـه لم يقبل

وحدثنا أحمد بن يوسف من كتاب الدولة العباسية قال أمرنى المأمون أن أكتب إلى جميع العمال فى أخذ الناس بالاستكثار من المصابيح فى شهر رمضان وتعريفهم ما فى ذلك من الفضل فما دريت ما أكتب ولا ما أقول فى ذلك. إذ لم يسبقنى إليه أحد فأسلك طريقه ومذهبه . فقلت فى وقت نصف النهار . فأتانى آت فقال : قل : فإن فى ذلك أنساً للسائلة وإضاءة للمجتهدين، ونفياً لمكان الريب . وتنزيهاً لبيوت الله من وحشة الظلمة . فكتبت هذا الكلام وغيره مما هو فى معناه .

التشهير بالمفطرين

لأمير الزجل الشيخ محمد النجار مواليا نظمها فى الشريعة الإسلامية استهلها بقوله :

يا تارك الشرع فين تقواك وإيمانك
وفين عهودك وميثاقك وإيمانك

ومنها :

يا خاسر الدين يا فاطر نهار رمضان
طاوع إلهك وخالف النفس والشيطان

دا الصوم هو الصون ومنه صحة الأبدان
لك فرحتين ، فرحتك وقت ما تفطر
والثانية شوف فرحتك فى يوم لقا الديان
الصوم عليك فرض لازم فى نهار رمضان
اصحى تخالف وتترك رابع الأركان
تكف به النفس عما يأمر الشيطان
ونيتك كل ليلة والصيام يثبت
برؤية الشهر وإتمام جميع شعبان
ومنها :
زكاة صيامك عليك واجب تطلعها
ما دمت قادر عليها ليه بتمنعها
طهر بها النفس من بخلك وادفعها
ده نصف صاع قمح أو أزيد ما هوش حاجة
تنفذ حياة ناس قليل المال ينفعها
وللشيخ محمد الجنبهى قصيدة من هذا النوع نقتطف منها :
جاء الكتاب بأعمال لها حكم
إن ظلّ يعملها الأعمى تبصره
منها الصلاة ومنها الصوم هل سقطت
عنك الصلاة لعذر أنت ذاكره

صام الأفاضل شهر الصوم وانسكبت
دموعهم لشهود لست تحضره
وأنت ساهٍ ولاه غير مرتكب
إلا الذى كاتب الأوزار يحصره
أطعت بطنك كالأنعام تطعمها
ما تشتهيه ألا نهىٌ تحاذره
لهم بطنك ما لاحظت عاقبة
يا من تصاغر والدنيا تكبره
ومنها :
وهل ترى الصوم إلا فرط مرحمة
يهدى لها العبد فضلا ثم يأجره
أهل الكمال لهم فى الصوم مصلحة
تخفى على من له بطن تباكره
فيا بطين ومن تدعوه شهوته
أن يمض شهر التهانى وهو مفطره
لا أصلح الله حال المفسدين ولا
بمبعض الدين يوما سرّ زائره

ختام رمضان

اهتمت الدولة الفاطمية بختام رمضان ومقدم العيد اهتمامها باستهلاله . وبالغ خلفاؤها فى الاحتفـاء بهما بأشكال متنوعة ، خصوصا وأن عيد الفطر عندهم هو الموسم الكبير ويعرف بعيد الحلل ، حيث توزع فيه كسوة العيد على الخاصة والعامة. وبلغت نفقاتها فى سنة ٥١٥ هـ. ١١٢١م حوالى عشرين ألف دينار . وهى ثياب قيمة من نسيج دور الطراز فى تنّيس ودمياط والإسكندرية أعدت فى خزانة الكسوات برسم الرجال والنساء لتوزيعها ليلة العيد .

وفى الوقت نفسه تكون دار الفطرة انجزت الكميات اللازمة من كعك ، وحلوى وكعب الغزال . لتوزيعها وإعداد سماط العيد ، وهى كميات كبيرة يعدونها ابتداء من شهر رجب حتى نصف رمضان .

ولإعداد هذه الأصناف ميزانية كبيرة بلغت ستة عشر ألف دينار لشراء الدقيق وقناطير السكر واللوز والجوز والفستق والسيرج والسمسم والعسل وماء الورد والمسك والكافور .

هذا عدا المناديل والمفارش الحريرية لإعداد السماط والفوط التى يغطى بها الكعك عند توزيعه على الخاصة والعامة .

فإذا كان التاسع والعشرون من شهر رمضان صدرت الأوامر بمضاعفة ماهو مقرر للمقرئين والمؤذنين فى كل ليلة برسم السحور بحكم أنها ليلة ختم الشهر .

وفى سنة ٥١٥ هـ ١١٢١ م كان الخليفة الآمر بأحكام الله ووزيره المأمون بن البطائحى يحتفيان بختام رمضان احتفاء كبيرا عدَّلا فيه الكثير من تقاليد هذا الاحتفال، فحضر المأمون فى آخر النهار إلى القصر للفطور مع الخليفة والحضور على الأسمطة على العادة ، وحضر إخوته وعمومته وجميع المدعوين ، وحضر المقرئون والمؤذنون وسلموا على عادتهم وجلسوا تحت الروشن المعد لجلوس الخليفة ، وأرسلت سيدات القصور أوانى الماء ملفوفة فى شقق الحرير . ووضعت أمام المقرئين لتشملها بركة ختم القرآن ، واستفتح المقرئون من الحمد إلى خاتمة القرآن تلاوة وترتيلا بأصوات حسنة . ثم وقف بعد ذلك من خطب فأسمع ، ودعا فأبلغ ، ثم رفع الفراشون أوانى الماء برسم سيدات القصور ، ثم كبر المؤذنون وهللوا وأخذوا فى إنشاد أدعية صوفية إلى أن نثر عليهم الخليفة من الروشن دراهم ودنانير ، ووزعت

عليهم أطباق القطائف مع الحلوى ، ووزعت خلع العيد على الخطيب وغيره كما وزعت الدراهم على المقرئين والمؤذنين .

وفى الوقت نفسه تحمل أنواع الكعك والحلويات إلى قاعة الذهب وتجد السماط فى قاعة العرش مع تماثيل الحلوى ، ثم يحضر الخليفة مع الوزير إلى الإيوان والمقرئون يتلون آيات من القرآن يختارونها لتلك المناسبة مثل قوله تعالى : « والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتمّ نعمتَه عليكم لعلكم تسلمون » .

وحينما يجلس الخليفة فى الإيوان يجلس على يمينه الوزير ثم يجلس بعده الأمراء بعد أداء التحية، كل فى المكان المخصص له ، ويتبعهم الرسل الواصلون من جميع الأقاليم وهم وقوف فى آخر الإيوان .

ثم يتقدم متولى كل اسطبل من الرواض وغيرهم فيقبل الأرض ، ثم يستعرض الخليفة ومن معه الدواب بفرسانها بملابسهم المهداة لهم إلى أن يتم عرض جميع ما أحضروه . وهو مايزيد على ألف فرس .

وبعد العرض يعاود المقرءون القراءة مختارين آيات من

القرآن مثل قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنينَ والقناطيرِ المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياةِ الدنيا والله عنده حسنُ المآب .

ثم يتلون بعدها قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء (الآية) وبعد ذلك يستعرض الخليفة الوحوش بالأجلة الديباج والديبق بقباب الذهب والمناطق والأهلة . وبعدها النجب والبخاتى بالملابس المزركشة . ثم يستعرض السلاح وآلات الموكب جميعها .

هذا والموسيقى تعزف على باب العيد ، كل هذا والخليفة جالس فى المنظرة بين باب الذهب وباب البحر من القصور الفاطمية .

وبعد أن يحمل إلى الخليفة فطوره الخاص المعطر بالمسك والعود والكافور والزعفران مع أنواع البلح الملونة التى يستخرج ما فيها وتحشى بالطيب وغيره المعبأة ، فى أطباق الذهب المكللة بالجوهر ، يستعرض الوزير سماط العيد بقاعة الذهب . وفى الوقت نفسه يعتلى الخليفة سرير ملكه ويقدم إليه فطوره فيجلس عن يمينه الوزير بعد تأدية التحية والسلام ، ثم يأمر بإحضار

الأمراء المميزين والقاضى والداعى والضيوف والرسل ويكشف الغطاء عن فطور الخليفة فيأخذ ثمرة يفطر عليها . وناول مثلها للوزير فأظهر الفطر عليها ، وتناول الخليفة من جميع ما قدم له ويناول وزيره منه وهو يقبله ويجعله فى كمه ، وهكذا مع بقية المدعوين يناولهم الخليفة بيده فيجعلونه فى أكمامهم بعد تقبيله .

ثم يأذن الوزير بناء على أمر الخليفة بافتتاح السماط والسماح للحاضرين بالأكل منه وأخذ ما يشتهون معهم ، ولاحرج من ذلك بل له به الشرف والميزة ، وافتتح السماط ، ثم أذن للناس بالدخول وأخذ ما على السماط .

وكذلك أعد الوزير فى داره سماطاً مثل هذا السماط لاينقصه إلا الفطور الخاص بالخليفة ، وبعد انصرافه من القصر يأذن بافتتاح سماطه للخاصة ، ثم إباحته للعامة .

وفى هذا الوقت تكون قد وزعت بقية الخلع على الجند والمستخدمين ليخرجوا بها فى موكب صلاة العيد .

صلاة العيد :

كانت صلاة العيد تؤدى فى مصلى العيد خارج باب النصر وهى مصلى كبيرة قائمة على ربوة وجميعها مبنى بالحجر ، ومحاطة

بسور وعلى بابها قلعة ، وفى صدرها قبة كبيرة بها محراب ،والمنبر إلى جانب القبة وسط المصلى مكشوفا تحت السماء. ارتفاعه ثلاثون درجة،وعرضه ثلاثة أذرع ، وفى أعلاه جلسة الخطيب .

فإذا اكمل رمضان وهو عندهم ثلاثون يوما . وكان اليوم من شوال صار صاحب بيت المال إلى المصلى خارج باب النصر وفرش السجاد بمحراب المصلى،ويعلق سترين يمنة ويسرة مرقوم فى الأيمن : الفاتحة وسورة سبح اسم ربك الأعلى ، وفى الأيسر مرقومَ الفاتحة وسورة هل أتاك حديث الغاشية ، ويركز فى جانبى المصلى لواءين مشدودين على رمحين ملبسين بأنابيب الفضة . وهما منشوران مرخيان . ويوضع على ذروة المنبر طراحة من حرير دبيقى . كما يفرش درج المنبر بحرير مثبت فيه .

وفى هذا اليوم يسير الوزير من منزله ومعه كبار الموظفين وأولاده وإخوته فى ملابسهم الجديدة إلى باب القصر ، ويركب الخليفة بهيئة المواكب العظيمة مثل موكب رؤيا رمضان وأول العام ، وتكون ملابسه فى هذا اليوم بيضاء موشحة وهى أجمل ملابسه . ومظلته كذلك ، ويخرج من باب العيد على عادته فى ركوب المواكب ؛ إلا أن العساكر فى هذا اليوم من الأمراء والأجناد والركبان والمشاة تكون أكثر ، وينتظم الجند له فى صفين من

باب القصر إلى المصلى ، فيركب الخليفة إلى المصلى فيدخل من شرقيها إلى مكان يستريح فيه فترة ، ثم يخرج محفوفا بحاشيته كما فى صلاة الجمع قاصدا المحراب والوزير والقاضى وراءه ، فيصلى صلاة العيد ، ويقرأ فى الركعة الأولى ما هو مكتوب فى الستر على يمينه ، وفى الثانية ما هو مكتوب فى الستر الذى على يساره ، فإذا انتهت الصلاة وسلم صعد المنبر لخطبة العيد ، فإذا ما انتهى إلى ذروة المنبر جلس على تلك الطراحة الحريرية بحيث يراه الناس ، ويقف أسفل المنبر الوزير وقاضى القضاة وكبار الموظفين والأقارب ونقيب الأشراف الطالبيين ، ثم يشير الخليفة إلى الوزير بالصعود فيصعد حتى ينتهى إلى الخليفة ، وبعد تقبيل يده يقف إلى يمينه ويشير إلى قاضى القضاة فيصعد إلى سابع درجة مقدما إلى الخليفة نص الخطبة الذى أعدها ديوان الإنشاء وسبق عرضها على الخليفة ، وبعد مقدمات وإشارات يستر الخليفة باللواءين المركزين فى جانبى المصلى، وينادى على الناس بالإنصات فيخطب الخليفة خطبة مناسبة للعيد يقرؤها من النص الذى قدم له.

فإذا فرغ من الخطبة ألقى كل من فى يده شىء من اللواء خارج المنبر فينكشفون وينزلون القهقرى أولا بأول الأقرب فالأقرب فإذا أخلى المنبر للخليفة هبط ودخل المكان الذى خرج منه ،

فيلبث قليلا ثم يركب بالهيئة التى قدم بها إلى المصلى ويعود فى طريقه التى أتى منها ، فاذا قرب من القصر تقدمه الوزير على العادة ثم يدخل من باب العيد الذى خرج منه ، فيجلس فى الديوان الكبير وقد مد فيه إلى فسقية بوسطه سماط فيه أنواع الكعك، فيأكل من يأكل ، وينقل من ينقل بلا حرج ولا مانع، ثم يقوم من الديوان فيركب إلى قاعة الذهب وبها سرير الملك وبوسطها مائدة من فضة أقيم بجانبها سماط كبير ، فيترجل من على السرير ويجلس على المائدة ، ويستدعى الوزير فيجلس معه ، ويجلس الأمراء على السماط ، ولا يزال كذلك حتى يستنفد ما على السماط قريب صلاة الظهر ، ثم يقوم وينصرف الوزير إلى داره والأمراء فى خدمته فيمد لهم سماطا يأكلون منه وينصرفون .

وهنا تصدر الأوامر بإذاعة سجل عيد الفطر ونصه :

أما بعد فالحمد لله الذى رفع بأمير المؤمنين عماد الإيمان ، وثبت قواعده ، وأعز بخلافته معتقده ، وأذل بمهابته معانده ، وأظهر من نوره ما انبسط فى الآفاق وزال معه الأظلام ، ونسخ به ما تقدمه من الملل فقال : إن الدين عند الله الإسلام ، وجعل المعتصم بحبله مفضلا على من يفاخره ويباهيه ، وأوجب دخول الجنة وخلودها لمن عمل بأوامره ونواهيه ، وصلى الله على سيدنا

محمد نبيه الذى اصطفى له الدين وبعثه إلى الأقربين والأبعدين ، وأيده فى الإرشاد حتى صار العاصى مطيعا ، ودخل الناس فى التوحيد فرادى وجميعا ، وغدوا بعروته الوثقى متمسكين ، وأنزل عليه « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » ، وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ؛ إمام الأئمة وكاشف الغمة وأوجه الشفعاء لشيعته يوم العرض . ومن الإخلاص فى ولائه قيام بحق وأداء فرض .

وعلى الأئمة من ذريتهما سادة البرية ، والعادلين فى القضية ، والعاملين بالسيرة المرضية ، وسلم وكرم وشرف وعظم ، وكتاب أمير المؤمنين هـذا إليك يوم الثلاثاء عيد الفطر من سنة ست وثلاثين وخمسمائة . وقد كان من قيام أمير المؤمنين بحقه وأدائه ، وجريه فى ذلك على عادته وعادة من قبله من آبائه ، وما ينبئك به ويطلعك على مستوره عنك ومغيبه ، وذلك أنه دنس ثوب الليل لما بيضه الصباح ، وعاد المحرم المحظور بما أطلقه المحلل المباح . توجهت عساكر أميرالمؤمنين من مكانها إلى بابه ، وأفطرت بين يديه بعد ما حازته من أجر الصيام وثوابه . ثم انثنت إلى مصافها فى الهيآت التى يقصرعنها تجريد الصفات . وتغنى

مهابتها عن تجريد المرهفات ، وتشهد أسلحتها وعددها بالتنافس في الهمم،وتقلق مواضيها في اعتمادها شوقا إلى الطلى والقمم ، وقد امتلأت الأرض بازدحام الرجل والخيل وثار العجاج . فلم ير أغرب من اجتماع النهار والليل .

وبرز أمير المؤمنين من قصوره . وظهر للأبصار على أنه محتجب بضيائه ونوره . وتوجه إلى المصلى فى هدى جده وابيه ، والوقار الذى ارتفع فيه عن النظير والشبيه ، ولما انتهى إليه قصد المحراب واستقبله ، وأدى الصلاة على وضع رضية الله وتقبله ، وأجرى أمرها على أفضل المعهود . ووفاها حقها من القراءة والتكبير والرجوع والسجود ، وانتهى إلى المنبر فعلا وكبر الله ، وهلله على ما أولاه ، وذكر الثواب على إخراج الفطرة وبشّر له . وأن المسارعة إليه من وسائل المحافظة على الخير وقربه ووعظ وعظا ينتفع قابله فى عاجلته ومنقلبه . ثم عاد إلى قصوره الزاهرة مشمولا بالوقاية . مكنوفا بالكفاية . منتهيا فى إرشاد عبيده ورعاياه أقصى الغاية ، اعلمك أمير المؤمنين خبر هذا اليوم لتعلم منه ما تسكن إليه وتعلن بتلاوته على الكافة ليشتركوا فى معرفته ويشكروا الله عليه . فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى .

وكانت مواكب العيدين تحاط بأنواع من المرح : فقد كان من أهل برقة طائفة تعرف بصبيان الخف لها اقطاعات ومرتبات، وكسوات، يقومون بألعاب بهلوانية في الحفلات. فإذا ركب الخليفة فى العيدين مدوا حبلين مسطوحين من أعلى باب النصر إلى الأرض. حبلا عن يمين الباب وحبلا عن شماله. فإذا عاد الخليفة من صلاة العيد مارا بباب النصر، نزل على الحبلين طائفة من هؤلاء على أشكال خيل من خشب مدهون وفى أيديهم الرايات وخلف كل واحد منهم رديف وتحت رجليه آخر معلق بيديه ورجليه. ويأتون بحركات تذهل العقول :

ويركب منهم جماعة فى الموكب على خيول فيركضون وهم يتقلبون عليها ويخرج الواحد منهم من تحت إبط الفرس وهو يركض ويعود يركب من الجانب الآخر. ويعود وهو على حاله لا يتوقف ولا يسقط منه شيء إلى الأرض. ومنهم من يقف على ظهر الحصان فيركض به وهو واقف.

الكعك

وعلى ذكر الكعك وعمله وتوزيعه أذكر أن الدولة الأخشيدية سبقت الدولة الفاطمية فى العناية بكعك العيد وبشكل ظريف ، فيؤثر عن أبى بكر محمد بن على المادرائى وزير الدولة الأخشيدية ، أنه عمل كعكا حشاه بالدنانير الذهبية اطلقوا عليه وقتئذ اسم (افطن له) .

وعناية الفاطميين بالمائدة وعمل الكعك ، جعل لمطبخهم وطباخيهم شهرة ، وقد بقيت من طباخيهم بقية عملت فى القصور الأيوبية . ومنهم طباخة كانت تعمل كعكا شهياً عرف بها (كعك حافظة) .

وللشاعر المصرى الجمال أبو الحسن الجزار المتوفى سنة ٦٧٩ هـ ١٢٨٠ م أبيات طريفة فى طلب الكعك وحلويات العيد .

منها ما كتبه إلى الأمير جمال الدين بن يغمور :

أيهذا الأميرُ قد أشكل المعـــنى وما زلتَ عارفا بالمعانى
ظاهر البستندود لم أدرِ ماذا فيه حملاً وباطن الخُشكنان
أترانى فى العيد أجهل ذا المعـــنى كجهل الحلواء فى رمضان

واستمرت مصر معنية بعمل الكعك وتوزيعه كصدقة على

على الفقراء حتى لا يحرموا منه ، وتنص ، الوقفيات على توزيعه فى عيد الفطر على الفقراء واليتامى . ومنها وقفية الأميرة تتر الحجازية والتى ينص فيها على توزيع الكعك الناعم والخشن على موظفى مدرستها التى أنشأتها سنة ٧٤٨هـ ١٣٤٨ م

وأصبح سكان مصر يتهادونه من وقتها إلى الآن ويتفاخرون بإجادته ، ويقول محمد بن السعودى الخياط وكان يسكن درب الأتراك بجوار الأزهر أنه فى سنة بضع وستين وسبعمائة جاءه فى عيد الفطر من الجيران أطباق كعك على عادة أهل مصر ملأ بها زيراً كبيراً ، لأن هذا الخط كان يسكن به الأكابر والأعيان .

ولرواج هذا النوع من الحلوى اهتم به تجار الحلوى . وكانت أسواقه رائجة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، وكانت تروق رؤية الكعك بأنواعه فى عيد الفطر لكثرة ما يعرض منه فى حوانيتهم .

وكان للفن دخل فى صناعته ، فعملت له القوالب المنقوشة والمكتوبة ومنها مجموعة فى متحف الفن الإسلامى مكتوب على بعضها : كل هنياً ، كل واشكر . كل واشكر مولاك . بالشكر تدوم النعم .

ولم يقف الاهتمام بالعيد عند عمل الكعك وأصناف الحلوى ،

بل شمل السمك المملح . وكنت أظن مصر حديثة عهد به حتى رأيت أنها متعلقة به من قبل القرن الثالث عشر الميلادى ونجد سبط ابن الجوزى فى القرن الثالث عشر الميلادى يقول : إنه أكل يوم عيد الفطر سمكا مملحاً .

وكذلك انتقد ابن الحاج من علماء مصر فى أول القرن الرابع عشر الميلادى أهل مصر فى أكلهم السمك المشقوق فى عيد الفطر ، كما انتقدهم فى أكل الكعك عقب الصيام ، لأن كليهما ضار عقب الصيام .

وفى دولتى المماليك كانت تقام حفلات استقبال الأمراء والأعيان بعد صلاة العيد فى الميدان تحت القلعة وفى القصر الأبلق والحوش السلطانى بداخل القلعة ، وتوزع الهدايا .

وكانت تلك الهدايا تعرض على السلطان قبل العيد فى موكب تتقدمه الموسيقى .

ومنذ القرن التاسع عشر الميلادى والمدافع تطلق فى الأوقات الخمسة أيام العيد احتفاء وابتهاجا به .

وعهدنا بالشعراء والأدباء يتقدمون بالتهانى بالعيد ما بين نظم ونثر ومن طريف ما وقفت عليه زجل لأمير الزجل الشيخ محمد النجار فى العيد ووداع رمضان .

العيد أتى والصوم روّح ويقول لك الله يا صايم
نعيش لأمثاله وتفرح ويعيش لك الخير الدايم

دور

إصحى تكون فت قيامك فى كل ليلة من شهره
ولاّ أخليت بصيامك والرب أغضبته بفطره

دور

إصحى يكون روّح غضبان منك وعنك غير راضى
وكنت فيه جيعان عطشان خالى من الآداب فاضى

دور

ما قلت لك صومك لك صون والرب من كرمه يعينك
دا الأجر فيه مضمون مأمون ما دمت ماسك فى دينك

دور

وارجع وأقول لك وأعيدلك يالى بشهر الصوم خليت
وبس حراقه بأكلك لا فول ولا طرشى خليت

دور

يا ناس يكفينا تقصير فى كل طاعة وعبادة
الوقت دا كله تحسير لنفسنا فوق العادة

دور

عملت لى صيامك موضة وطلعت فى الكذب البايخ
وتدب بطنك فى الأوضة وفى السكك تعمل دايخ

دور

مشيت بسبحة وعصاية تلعب بها وتطوحها
وجبت ساعة بدلاية فى كل ساعة تفتحها

دور

يا خسارة أوقات الطاعات تمر والعاصى غفلان
يا خسارتك يابو الحسنات ياللى الإله سماك رمضان

دور

يا اللى الإله عظَّم شانه بين السنة عُلاه فى القدر
على النبى فيه قرآنه قد أنزله وفيه ليلة القدر

دور

يا ما أحسنك يا اللى صمته وقمت بفروضه وسننه
كان وفى ليله قمته والرب قواك من منته

دور

ابكى عليه لما ودع دى غرش أيام معدودة
كانت موادنه بتلعلع وكان جوامعه موقودة

دور

كانت جميع الناس تسهر | مع بعضها ويحصل إيناس
حكمه من المولى تظهر | بالائتلاف ما بين الناس

دور

وكل حاجة فى الإسلام | بالاجتماع تنمى وتشير
أسرار عجيبة فى الأحكام | يظهر لها حكم وتأثير

دور

وقت القيام فى جملة ناس | تقوم صفوف بنيان مرصوص
والعيد لجلة ناس أجناس | يجمع وفيه إيلاف مخصوص

دور

يا ناس أهو العيد أقبل | قابلوه بقى بكحكه وخلقه
واللى يكون صومه يقبل | يشكر إلهه اللى خلقه

دور

يشكر إلهه اللى أعطاه | صحة وله جاد بالعافية
ولمثل هذا العيد أبقاه | ودى تهانى به وافية

الفهرس

صفحة

صفحة



إذا جاء رمضان !...

إذا جاء رمضان ... فتّحت أبواب الجنة ، وغلّقت أبواب جهنم ، وصفّدت الشياطين ، ونادى مناد :

يا باغى الخير أقبل ، ويا باغى الشر أقصر

« حديث شريف »

المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة
فاحرص على ما فاتك منها . . .

واطلبه من :

١ ــ دار القلم .... ١٨ شارع سوق التوفيقية

٢ ــ مكاتب شركة توزيع الأخبار... في الإقليم المصرى

٣ ــ وكلاء الشركة القومية .... في جميع البلاد العربية



المكتبة الثقافية

١٠

الشرق والإسلام
فى أدب جوته

عبد الرحمن صدقى

الناشر



١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

مقدمة

مازال حتى اليوم مقرراً فى الأذهان ، ومردداً على كل لسان ذلك البيت المقتضب للشاعر « رديارد كبلنج » :

(الشرق شرق ، والغرب غرب ، وهيهات يلتقيان) .

على حين أن القليل من التقصى فى دراسة التاريخ المقارن ، وسير الحضارات ، ونشأة العقائد والأفكار ، مع التماس النزاهة فى البحث والعلو عن الأغراض ، كفيل بالتخفيف من تعصب كل جنس لجنسه ، وادعائه الفضل كله لنفسه .

ولا شك أن طبيعة الإنسان واحدة فى جملة تركيبها ، وقرارة نوازعها . والمطالع لتاريخ الإنسانية من قديم يعجب لها كيف تحلم منذ الأزل نفس الأحلام ، وتعانى من نقائضها نفس الآلام . ويرى كيف أن كل حضارة من الحضارات قبلنا ، قد عرض لها مع اتساع الرقعة واشتباك المصالح ، مثل ما يعرض لنا من مشكلات ، وكيف أن الفكر البشرى بالأمس البعيد كان يشغله فهم ما نعالج اليوم فهمه من الأسرار والمعميات ، وأن الأولين على قصور عدتهم قد ألموا بأمهات المسائل كلها ، ولمسوا على

وجه من الوجوه أطرافاً من فروعها . وهذا ما دعا إلى قول القائل : « ما ترك الأول للآخر ؟ »

والحق أنه ما من مشكلة اجتماعية ، أو أزمة نفسية ، أو مطلب فكرى ، إلا وأصوله عريقة ضاربة فى القدم . ومن ثمة ما نشهده من حرص على دراسة الماضى ، وما لا يزال ملحوظاً فى عصر كل نهضة من مراجعة القديم ، والتثبت منه عند كل تجديد حقيق قويم.

ومن هذا القبيل ما نجده فى الحين بعد الحين من إقبال البعض، من قادة الفكر، وأعلامه فى الغرب، على دراسة الحضارات الأولى فى الشرق . وفى طليعة هؤلاء ، وخير مثال عليهم ، الأديب العالم ، شاعر ألمانيا الأكبر « جوته » .



جوته الشرقى

وفى أواخر القرن الثامن عشر من الميلاد ، فى الصميم من بلاد الشمال ، وتحت سمائه الحالمة ذات الغيوم ، وفى ظلال أشجاره الوارفة من الحور والبلوط ، ظهر شاعر فحل من شعراء الدنيا العظام ، هو : « جوهان ولفانج جوته » كبير أدباء الألمان وشاعرهم الأعظم . .

وجوته رجل نادر المثال ، لم ينحصر فى نطاق ، ولم يستأثر به أسلوب ، ولم ينذر نفسه لمذهب ، ولم يكظه لون من ألوان الحياة ؛ بل عاش منهوم الحس ظاهره وباطنه ، يستوعب كل ما صادفه ، ويضيف إلى حياته كل ما أمكن إضافته ، كأن همه أن يتحقق فى شخصه الإنسان كله ، بجملته وبمعناه الأعم المطلق . وهذا النزوع إلى استيعاب الإنسانية كان حافز حياته الطويلة من أولها إلى آخرها . فاجتمع فيه الشاعر الشادى ، والعالم الطبيعى ، والمفكر، والفيلسوف. واقتسم تآليفه الثائر، والمحافظ،والصوفى . ولم يكن جوته فى أدبه بالمواطن الألمانى وحده ، ولا بالأوزوبى وحده ، بل كان العالمىّ ،وبعبارةواحدة؛تعانق فيه الغرب والشرق.

ونحن هنا نقصر كلامنا على جوته الشرقى !

الشرق
فى قصص "العهد القديم"

كان طبيعياً أن تكون أول إلمامة بالشرق لشاعرنا «جوته» فى صباه عن طريق التوراة التى كانت أمه كثيرة العكوف على قراءتها ، عميقة التشبع بها . وقد كان والد الصبى شديد السهر على تعليمه ، وهو الذى وضع لهذا التعليم برنامجه ، ولم يكن ليسمح بعد وضعه إياه أن يدخله أدنى تغيير ، أو يحاد عنه قيد أنملة . وكان هذا البرنامج يشمل التاريخ ، والجغرافيا ، والنبات ، والرياضة ، والرسم ، والموسيقى ، فضلا عن الدين ، كما كان يشمل من اللغات الحيـــة الفرنسية ، والإنجليزية ، والإيطالية ، ومن اللغات القديمة اللاتينيّة ، والإغريقية ، فضلا عن العبرانية لغة الكتاب المقدس .

وكانت مدينة « فرانكفورت على نهر المين » وهى موطن الأسرة ـ قد زحفت عليها فى مستهل عام ١٧٥٩ أثناء استعداد أهلها للاحتفال بعيد أول السنة ، فرقة من الجيوش الفرنسية المشتركة فى حرب السنوات السبع التى كانت تدور رحاها فى البلاد الألمانية ، انتصاراً لملكة النمسا « مارى تيريز » ضد مطامع « فردريك الثانى » ملك بروسيا ، وقد دام احتلال الفرنسيين

لمدينة فرانكفورت منذ ذلك الحين نحو أربع سنوات (١٧٥٩ - ١٧٦٣) وقد أفاد الشاعر من ذلك اختلاطه بالفرنسيين ، وإتقانه لغتهم،وشهوده لفرقهم التمثيلية ، التى غرست فيـــه حب المسرح ، والتأليف المسرحى . ولـكن ذلك لم يكن ليشغل فتانا الذى لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره عن دراسة العبرية ، التى بدا له أنها ضرورية لا غناء عنها،لفهم التوراة فى نصها الأصلى . وقد استجاب والده لرغبته ، فوكل تعليمه فى المدة من سنة ١٧٦٢ لسنة ١٧٦٥ للأستاذ البرخت Albrecht وهو خورى ، يلبس المسح الدينى ، والشعر المستعار ؛ وكان يتولى إلى جانب تعليم تلميذه اللغة العبرية شرح التوراة ؛ وكانت تلتمع عيناه المحمرتان وتهفو على ثغره ابتسامة متهكمة وهو يشرح له النصوص الدينية ، ناقداً لها فى التواء وتورية . وكان يقابل بالضحك ، والسخرية إلحاف تلميذه فى السؤال بغية الاستيضاح والفهم ؛ مؤكداً للصبى أنه حرى بأن يهنئ نفسه لو استطاع أن يتلو النص العبرى للتوراة مجرد تلاوة ؛ أما فهمها فتلك مسألة أخرى . ولم يكن من شأن هذه الوخزة إلا أن زادت من عناد الصبى ؛ فلم يلبث أن ترجم من السفر القديم بعض نصوصه العبرية إلى اللغة الألمانية .

ولم يكن يدفع جوته إلى هـــذا الإصرار إيمانه بالتوراة ؛

ويقينه بأنها منزلة من السماء كما هى بنصها وفصها ؛ واطمئنانه إلى جميع ما جاء بها . فقد كانت للصبى اعتراضات عليها منذ صباه ، أثارت عجب أستاذه ، الذى كان يشجعه عليها بضحكاته المفتعلة ذات الدلالة الخفية . وإنما كان اهتمامه للتوراة ، وإعجابه بها من ناحيتها الأدبية ، بما تعرضه من وصف للبيئات ، ورسم للشخصيات ، وعلى الأخص ما ترويه من المغامرات القصصية ، والمواقف الغرامية .

فلا غرو إذا رأيناه يتحدث عن التوراة على أنها فى معظمها كتاب شعر من أقدم كتب الأشعار . وليس من شك عندنا فى أنه وهو يقرأ منها « سفر أيوب » قد ذكر زلزال لشبونة، الذى وقع عام ١٧٥٥ فملأت مسامعه وهو بعدفى السادسة من عمره أخبار الكارثة وفظائعها حتى روعت أحلامه وزلزلت إيمانه . ولكن شاعرنا كان كثير الوقوف عند مواضع الحب الساذج الطبيعى مثل « قصة راعوث » ، وأكثر منها عند « نشيد الإنشاد » الذى كان دائم الرجوع إليه والتغنى به . وإذا كان شاعرنا قد أسف على شىء فقد كان أسفه على كون هذه الأناشيد مقطمات مقتضبة ، وأنها فى إيرادها كيفما اتفق، وتكديسها من غير نسق، لا تحمل إليه المتعة الصرفة فى أكمل صورها ، ولكنه مع ذلك كان

يحس فيها ذلك الجو الشعرى ، الذى تفتحت فيه تلك النفوس الشاعرة ، ويستروح فى هذا السفر العاطفى من أوله إلى آخره مسرى نسمة حلوة دفيئة ، تهب من أرض كنعان الحبيبة ، وتتراءى له حياة الحقول الوادعة ومزارع الكروم ومنبسط الرياض ومنابت الطيب العاطر ، ومن ورائها يأنس زحمة المدن بأهلها ، ويتخيل فيما وراء ذلك جميعه قصر سليمان فى بذخه ، وغلوائه ، بين المئات من سراريه ونسائه ، ومع ذلك يبقى الموضوع الأساسى ، ذلك الهوى المضطرم النارى ، بين قلبين فى عنفوان الصبا ، لا يكفان عن طلب اللقاء ، فإذا كان لقاء أعقبه الجفاء ، ثم لا يزالان فى دفع وجذب فى سلسلة متتابعة من مواقف الحب بلغت الغاية التى لا غاية بعدها ، فى السذاجة الأولية ، والبساطة الطبيعية .

وقد تأثر جوته الصبى بأكثر من قصة من قصص التوراة العبرية ، فترجم بعض مقطوعاتها شعراً ، مثل «نشيد الإنشاد» ، كما طاب له أن يضع وهو فى هذه السن الصغيرة قصة لغلام فى مثل سنه ، فكتب « يوسف وإخوته » .

ولم تكن هذه التخريجات للقصص الدينى ، والتفريعات عليه ، شيئاً مستجداً على الألمان . وكان من السابقين إلى ذلك الشاعر

«جوهان بودمر Johann Bodmer» (١٦٩٨ - ١٧٨٣) مترجم ملحمة ملتون الدينية « الفردوس المفقود » ، فقد تناول قصص التوراة فى شعره ، ومن ذلك منظومتان عن يوسف أولاهما : « يوسف وزليخا » ، وتتألف من نشيدين ، والأخرى : «يعقوب ويوسف » من ثلاثة أناشيد . ولكن الذى هز ألمانيا كلها هو صاحب الملحمة المسيحية » الشاعر « فردريك كلوبستوك Friedriek klopstock » بما اجترأ عليه من عرضها فى قالب من الشعر الموزون غير المقفى ، على مثال ملتون ، وما بثه فيها من الحرارة والانفعال القوى . وقد ذكر جوته تأثره وهو طفل بهذا الشاعر مع ما كان من إنكار والده لشعره غير المقفى ، ولكنه نفى أنه قرأ لسلفه « بودمر » شيئاً على الإطلاق أو شيئاً يذكر من شعر القصص الدينى .

ويقرر جوته فى مذكراته « شعر وحقيقة » فيما رواه عن صباه ، أنه جعل همه فى قصته عن « يوسف وإخوته » التوسع فى سردها بأن يدخل عليها هنا وهناك ، وقائع ومواقف زيادة فى التفصيل ، ليجعل من تلك القصة القديمة الساذجة عملا أدبياً مستطرفاً ، وقد بلغ من رضى الغلام عن قصته أن ضم إليها بعض ما كان قد تيسر له نظمه من أشعار ـ عدا غير المقفى منها ـ وجعل من ذلك جميعه مخطوطة جميلة ، فى مجلد جميل ، أهداه إلى والده .

الشرق الإسلامى

كما يتمثل فى القرآن وفى حياة محمد

وينتقل جوته من الشرق كما تمثله قصص التوراة فى « العهد القديم » إلى الشرق الإسلامى كما يتمثل فى القرآن الكريم وفى حياة محمد النبي العربى .

ولاشك عندنا فى أن مطالعة الشاعر الألمانى « سفر أيوب » كانت قد زودته بفكرة رفيعة عما جبل عليه العربى ، من قريحة وطبيعة . وقد يتساءل البعض عن العلاقة بين هذا السفر العبرى من أسفار التوراة ، وبين العربية . ولكن التحقيق العلمى فى عهد « جوته » نفسه قد نفى عن هذا الكتاب نسبته إلى موسى وغيره من العبرانيين ، وأثبتها للعرب المجاورين . وهذا المحقق هو أستاذ شاعرنا «جوته» وأستاذ عصره كله فى أدب العبرانيين ، وتاريخهم ونعنى به «جوهان جودفريد هردر Johann Gottfried Herder » إذ يقول فى كتابه عن الشعر العبرى : « إن موسى عندى شاعر عظيم . ولكن القول بأنه مؤلف « سفر أيوب » كالقول بأن سليمان مؤلف الإلياذة . ويمكننى القول دون مفاخرة ، أنى درست فى إمعان طابع الأشعار العبرانية كلها . وأدخلت

فى حسابى الأحوال المتغيرة ، والسنين المتعاقبة . ومع ذلك ظل الفارق بين أسفار موسى و « سفر أيوب » كالمسافة بين المغرب والمشرق . وذلك أن الشعر الموسوى حتى فى رفيع المقطوعات لايخلو من ليونة ونعومة ، بخلاف الشعر فى سفر أيوب، فهو جامع فى إيجازه البليغ ، زاخر بمعناه العميق ، فيه قوة وبطولة ، منيف على الذروة العليا من العبارة والخيال ، تشهد أفكاره فى حدود جملته وفى تقاطيع تفصيله ، على أنه نسيج وحده ، فلم تتكرر قوالبه ومعانيه فى غيره من أسفار العبرانيين ، كما هو الشأن فى هذه الأسفار ، مما يقطع بأن صاحبه عربى ، من مشايخ القبائل ذوى الثراء ، وأنه من الأدوميين فى الحدود بين العبرانيين ، والعرب الجاهلين، وهذا بعينه ما كان قد ذهب إليه بعض آباء الكنيسة الأولين أنفسهم من اليونان واللاتين ، ومنهم أوريجين والقديس جريجوار القائلان بأن أيوب هو نفسه الذى كتب هذا الشعر بالعربية وهى لغة بلاده الطبيعية، ثم جاء موسى فترجمه إلى العبرية. وقد أيدت هذا الرأى بوجه العموم بحوث المتأخرين من العلماء المتخصصين ونذكر منهم « أرنست رينان » الفيلسوف الفرنسى فى كتابه عن سفر أيوب ، كما أصبح هذا القول من الحقائق المقررة منذ ذلك الحين . ولا معدى لنا عن أن ننبه هنا إلى أن جوته كان متأثرا

بما جاء من تحدى الشيطان لله فى فاتحة « سفر أيوب » حين ذكر الله عبده بالتقى والصلاح ، فقد جاء جوته بمثل ذلك فى مسرحيته الكبرى « فاوست » إذ جعل لها « فاتحة فى السماء » ذكر الله فيها العلامة فاوست بالخير فتحدى الشيطان ربه فى إفساده .

ولقد اتصل « جوته » أثناء مقامه فى استراسبورج (باقليم الالزاس) عامى ١٧٧٠ ١٧٧١ بذلك العلامة الأديب « هردر » فأذكى فى الشاعر غرامه بالشرق ، فكان من أثر إستحثاثه له أن شرع بعيد عودته إلى بلدته فرانكفورت فى الاهتمام بالشرق العربى .

وطبيعى أن لا يكون هنالك ماهو أجلّ قدرا وأبلغ أثرا من القرآن الكريم ونبى الإسلام العظيم .



وهاهو ذا « جوته » فى فرانكفورت عام ١٧٧٢ يعكف على تلاوة القرآن فى ترجمة ألمانية أنجزها يومئذ أحد أبناء بلدته ، المستشرق العلامة « مرجرلين Mergerlin » حتى إذا فرغ منها عكف من بعدها على تلاوة القرآن فى ترجمة لاتينية سابقة لها ، طبعها فى مدينة بادوا (فى الشمال الشرقى من إيطاليا) القس الجزويتى « ماراتشى Maracci » عام ١٦٩٨ وأعيد طبعها عام ١٧٢١ بمدينة ليبزج الألمانية .

وما إن أتم جوته تلاوة القرآن فى الترجمتين ، حتى اقتبس بعض الآيات القرآنية ، نقلا عن الترجمة الألمانية . ونحن نعرف اليوم ما اقتبسه الشاعر الألمانى من الآيات ، بفضل طبعها بعد ذلك فى مجلد للمرة الأولى بمعرفة « شول Scholl » عام ١٨٤٦ . وهذه الآيات هى قوله تعالى : « بلى ، من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » - « ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » - « إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما

أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون » - « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون » - « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » وكلها من سورة البقرة . ثم من سورة آل عمران قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين » ، « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » ومن سورة النساء : « مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » . ومن سورة المائدة : « ولو أن

أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء مايعملون » ، « يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم ، عفا الله عنها ، والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » . ومن سورة الأنعام : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » . ومن سورة يونس : « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام » . ومن سورة يوسف : « إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين » ومن سورة الإسراء : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا » . ومن سورة طه : « قال رب اشرح لى صدرى » . ومن سورة العنكبوت : « خلق الله السموات والأرض بالحق ، إن فى ذلك لآية للمؤمنين » — « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » — « وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين » .

وقد ظل جوته طويلا يمعن فى دراسة القرآن إمعان الباحثين . وهو يقول إن القارئ الأجنبى قد يمله لأول قراءته، ولكنه يعود فينجذب إليه ، وفى النهاية يروعه ويلزمه الإكبار والتعظيم. ويستشهد جوته فى كلامه عن القرآن الكريم وما جاء به من تعاليم الدين بهذه الآيات : ـ « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون. إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ». ويقول جوته إن القرآن يردد قواعد هذه التعاليم ، ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة ، وهو لا يرى فى هذا الترديد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون، لأن محمدا لم يرسل برسالة «شاعر» للتفنن فى القول والتنويع فى ضروب الكلام وعرض الصور المزوقة من الأخيلة والأوهام ، لاستحداث اللذة وإدخال الطرب ، بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف ، وإنما محمد « نبى » .مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق ، وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضووا تحت لوائها . فالكتاب

المنزل على محمد إنما بعث به إلى الناس ليقتضيهم الخبوت والإيمان لا لمجرد المتعة والاستحسان ، ومن ثمة نراه إذا ما عرض للقصص الديني لم يعرضه معرض التاريخ والأخبار ، بل يقتصر منا على مكان الحكمة ومضرب الأمثال ومواضع الاعتبار .

ويظهر فى شعر جوته الأخير الذى أسماه « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » تأثره بالقرآن فى روحه وعباراته . فالقارئ المسلم لا يسعه إلا أن يذكر من الآيات القرآنية أكثر من واحدة حين يقرأ المقطوعة التالية لجوته :

« لله المشرق ولله المغرب ، وفى راحتيه الشمال والجنوب جميعا . هو الحق ، وما يشاء بعباده فهو الحق ، سبحانه له الأسماء الحسنى ، وتبارك اسمه الحق ، وتعالى علواً كبيراً . آمين .

« ينازعنى وسواس الغىّ ، وأنت المعيذ من شر الوسواس الخناس . فاللهم اهدنى فى الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم

« ومهما زينت النزعات والشهوات ، فالنفس لا تذهب شعاعا ولا تضيع ضياعاً ، ولا تلبث بما أودع فيها من الحفاظ والإباء أن تنطلق عارجة إلى أوج العلاء .

« وللناس فى ترديد أنفاسهم آيتان من الشهيق والزفير : هذا يفعم الصدر ، وهذا يفرج عنه . كذلك الحياة عجيبة التركيب .

فاشكر ربك إذا بليت ، واشكر ربك إذا عوفيت » .

ويعمد جوته أحياناً إلى التضمين الصريح . ومن ذلك تضمينه للآية الكريمة « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » ، فيقول فى مقطوعة له بعنوان التشبيه :

« لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله لا يستحى أن يضرب مثلا للحياة بعوضة ؟ .

« لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله يجلو لى فى جمال عينىّ الحبيبة ، لمحة من جماله رائعة عجيبة » .



حياة محمد نبي الإسلام

وغير خاف أن العالم المسيحى كان بطبيعة الحال فى أيام الحروب الصليبية وفى أثناء الفتوحات العثمانية فى أوروبا سيء الرأى فى صاحب الدعوة الإسلامية . وكانت الكنيسة الكاثوليكية تتجاهل كتب السيرة النبوية ، ليتسع المجال لتصوير « محمد » على خلاف صورته التاريخية دون تعرض للدعوة الدينية ، كما كانت تتجاهل القرآن ولا تعترف بوجوده ، وقد بلغ من ذلك أن أحرقت نسخة القرآن العربية فى البندقية عام ١٥٣٠ وأن حرم البابا إسكندر طبعه وترجمته . وكانت التراجم الأولى للقرآن فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، مشفوعة دائماً بالمقدمات ، والحواشى ، والتذييلات فى دحضه وتفنيده من قبيل الاعلان من جانب المترجمين عن حسن إيمانهم ، ودفعاً للشبهة عن أنفسهم ، وتزكية لعملهم وتكفيراعنه فى عقيدتهم وعند أهل ملتهم . ثم أخذ الموقف مع دخول القرن الثامن عشر الذى يسمونه « عصر النور » يدخل عليه التحسن شيئا فشيئاً على نحو مستمر ، ولكنه لا يكاد يحسّ به من فرط بطئه .

وكان العالم الهولندى « أدريان ريلان Adrien Reland » أول من أمسك القلم من العلماء الأحرار للعمل على رد الاعتبار للإسلام ، وصاحب الرسالة فى كتابه عن « الديانة المحمدية » ، ثم طلع من بعـــده المستشرق الفرنسى « أرنست جانييه Ernest Gagnier بكتابه « حياة محمد » عام ١٧٢٣ وقد نقل فيه إلى اللاتينية سيرة النبى عن المؤرخ العربى « أبو الفـــدا » ، ولا شك أن اعتماد المستشرق على مصادر جديدة غير مصادر القوم الخرافية دليل على ترفعه عن التعصب الأعمى ، واعتصامه قدر الاستطاعة بروح الإنصاف ، والتزام المنهج الموضوعى .

واقتفى أثر هؤلاء وتقدم عليهم غيرهم مثل « هنرى كونت دى بولا نفلييه «Henri Comte de Boulainvilliers» عام ١٧٣٠ فى كتابه «حياة محمد» الذى يأخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن صاحب الدعوة الإسلامية ، باعتباره رسولا للعناية الإلهية .

ولقد اطلع شاعرنا جوته فى عام ١٧٧٣ على الجزئين الأولين من « تاريخ محمد — مشرع العربية Histoire de la vie de mahomet legislateur de l'Arabie لمؤلفه الفرنسى « تربن Francois-Henri Turpin وهو من قبيل من ذكرناهم على وجه العموم .

ولكنه لا ينبغى أن يغيب عن البال أن ما يسمونه عصر النور لغلبة الفلسفة العقلية التى مهدت للثورة الفرنسيةفىأواخره، كان دعاته يحملون حملة شعواء على الأديان عامة ، ولا يريدون أن يروا فى أصحاب الدين إلا أصحاب مخرقة دجالين ، يزعمون للناس أنهم من المرسلين الملهمين .

ومن هؤلاء «فولتير»الذى أراد أن يروّج لهذا التفكيراللادينى على المسرح بطريقته الملتوية غير المستقيمة . وقد كان هذا دأبه ومنهجه الذى درج عليه منذ البداية ، فنراه فى مسرحيته الأولى « أوديب » عام ١٧١٨ يتظاهر بمهاجمة الكهان فى الوثنية ، وهو يعنى الكنيسة المسيحية ، كما فهم من أراد الفهم من القارئين والسامعين من منطوق قوله : « إن رجال الدين عندنا ليسوا كما يتخيله عامة شعبنا ؛ إن علمهم المزعوم كله إنما هو من صنع وهمنا واعتقادنا » . بيد أن فولتير فى هذه المرة أراد أن يتقدم خطوة أخرى إلى الهدف ، فاستدبر خلفه رجال الدين ، وانتحى نحو النبيين ولما لم يكن فى الاستطاعة - حتى لو واتته الشجاعة - أن يتعرض فى مواجهة جمهور المسرح الأوروبى - وهم فى جملتهم على الدين المسيحى - لأحد الأنبياء الذين تقدم ذكرهم فى الكتاب المقدس سواء فى العهد القديم أو فى العهد الجديد ،

فلم يبق أمامه إلا أن يتعرض لنبي المسلمين ، ليتوصل من ذلك إلى الطعن من طرف خفى على كل نبي . فكتب مسرحيته « التعصب أو محمد النبي » عام ١٧٤١ ، ورأى إمعاناً فى التعمية على رقابة المطبوعات فضلا عن الأخذ بالحيطة والاعتصام بالتقيّة أن يجعل ـ وهو المشهور بعدائه اللدود للكنيسة ـ إهداء المسرحية إلى البابا « بنوا الرابع عشر » مختتماً الإهداء بقوله : وبعد ، فليأذن لى ـ صاحب القداسة ـ أن أضع المسرحية ومؤلفها عند موطئ قدميه ، وأن أزداد جرأة ، فألتمس منه للمسرحية الرعاية، ولمؤلفها البركة » . ولم يكن البابا ليفوته ما يستهدفه « فولتير » من وراء مسرحيته ، فرد عليه بعد أسابيع بكتاب اقتصر فيه على القول بأنه قرأ « مسرحية محمد » باهتمام . وقد مثلت المسرحية فى مدينة « ليل » أولاً عام ١٧٤١ ، ثم قدمتها « الكوميدى فرانسيز » فى باريس عام ١٨٤٢ فاحتج عليها السفير التركى لدى الحكومة الفرنسية ، وعقد مؤتمراً دعا إليه كتاب فرنسا الأحرار ، فأوقفت الحكومة تمثيلها ولم تزد حفلاتها على الثلاث ، وظلت بعدها تسعة أعوام متوارية فى الظلام .

وطبيعى أن لا يعنينا هذا الموقف من « فولتير» مادام هو وأمثاله

من كتاب الثورة الفرنسية معدودين من الملاحدة حيناً ، ومن منكرى النبوات عامة فى أكثر الأحايين .

وأما الذى يعنينا فى هذا المقام فهو رأى غير المتعصبين من أهل الديانات الأخرى ، والذين لم يختم الله على قلوبهم فلم تظلم بصيرتها ولم ينضب فيها معين الإيمان . وقد ذكرنا كيف تطور هؤلاء ، واعتدل موقفهم وزاد اعتبارهم لفضل الإسلام وإعجابهم بشخصية محمد ، بقدر إمعانهم فى دراسة التعاليم القرآنية ، وإطلاعهم على السيرة النبوية فى مصادرها الحقيقية . وغير جدير بنا مع ذلك أن نتوقع منهم وهم على غير هذا الدين أن يتحدثوا عن صاحب الدعوة الإسلامية، كما نتحدث نحن المسلمين ، بل حسبهم ـ وهذا قصاراهم ـ هدمهم الخرافات المزرية التى أشيعت عن محمد فى العالم المسيحى ، وإظهارهم محمداً للعــالم المسيحى مؤمناً صالحاً يعبد الله ثابت اليقين ، ومجاهداً أرادت مشيئة الله أن تتخذه من المرسلين لنشر عقيدة التوحيد بين العالمين .

ولا يسعنا إذا ذكرنا هؤلاء المنصفين إلا أن نضع فى طليعتهم صاحب هذا القول المبين ، وهو شاعرنا «جوته» إذ يقول فى بعض أشعار الحكمة من ديوانه :

«من حماقة الإنسان في دنياه
أن يتعصب كل منا لما يراه ؛
وإذا الإسلام كان معناه التسليم لله
فإننا أجمعين ، نحيا ونموت مسلمين .»

ولقد كان جوته مولعاً بالمسرح منذ حداثته الأولى . ويرجع ذلك إلى التأثير الذى تركه فى نفسه مسرح العرائس الذى أهدته إياه جدته فى عيد الميلاد وهو فى السابعة من عمره . ويذكر جوته فى بعض مذكراته المسماة «تلمذة ولهلم مايستر» ، من أول عروض هذا المسرح ، قصة داود الصبى وجلياط العملاق القوى من قصص التوراة ، ويذكر بعد ذلك كيف قام فى هذه السن المبكرة بإلقاء دور كل منهما فى لهجة متقنة ، وكيف كان يعبث فى مكتبة والده فى طلب مسرحيات أفضل من هذه ليخرجها مع أخته العزيزة الدميمة «كورتليا» الصغيرة ، مع الاكتفاء من هذه المسرحيات بالفصل الأخير سواء أكانت درامات ألمانية أم أوبرات إيطالية ، وكانت الأخيرة هى الأثيرة عنده لأن استخدام عرائسه الخشبية فيها مثل داود وجلياط ، كان أكثر جوازاً من استخدامها فى الدرامات العادية . ولقد أعقب هذا التطور ما سبق أن ذكرناه فى الفصل السابق من تردده وهو فى العاشرة من عمره على الفرق الفرنسية التى جاءت

على أثر احتلال الفرنسيين لبلدته فرانكفورت أثناء حرب الأعوام السبعة ، وشهوده مسرحياتها مع النظارة المتفرجين فضلا عن اطلاعه على ما يجرى وراء المسرح بفضل معرفته لبعض المساعدين الفتيان المتصلين بالفرقة .

وقد كان من أثر هذا جميعه ،أن تطلع الفتى إلى محاولة تأليف المسرحيات من قصص التوراة ، لتمثلها تلك الفرق الفرنسية وهى محاولات أحرقها بعد ذلك فيما أحرقه من آثار الصبا ، وهو طالب فى ليبزج (١٧٦٥ - ١٧٦٩) . ولقد وضع شاعرنا فى هذه المدينة أكثر من مسرحية بعضها مفقود والبعض موجود بين أيدينا ، سواء فى نصّها ، أو مشروعها ، وهى شاهدة بما كان ملازماً جوته منذ البداية من الولع بالتمثيليات .

فلا غرابة بعد ذلك إذا علمنا ما انعقد عليه عزم الشاعر الألمانى من تأليف تمثيلية عن محمد ، وشروعه فيها منذ عام ١٧٧٣ إذ نظم منها ذلك العام فاتحة الفصل الأول : « مناجاة محمد » وهو فتى ،وقد خلا بنفسه بالليل ، بعيداً فى البادية ، تحت سماء صافية سافرة النجوم . وقد اعتمد الشاعر فى المناجاة على مضمون هذه الآيات من سورة الأنعام فى دحض الشرك : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين .

وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .

وختم الشاعر مناجاة النبي بقوله :

« فارتفع أيها القلب العامر بالحب نحو الخالق .
إنك وحدك مولاى يارب !
إنك الحب المحيط بكل شىء
خالق الشمس والقمر والكواكب
خالق السماء والأرض ، وخالق نفسى . »

وبعد هذه المناجاة يدير جوته حواراً بين محمد ومرضعته حليمة.

محمد : « يرى شبح حليمة مقبلة » : ـ حليمة ! أكان لا بد من قدومها فى هذه الساعة العامرة بالسعادة : « مخاطباً حليمة » ماذا تريدين منى يا حليمة ؟ .

حليمة : لا تقلقنى هكذا يا بنى الحبيب ، إنى أبحث عنك منذ

غروب الشمس . لا تعرض شبابك الغض لأهوال
الليل ومخاطره .

محمد : سيان عند الأشرار الليل والنهار . إن الرذيلة وحدها
تجر إلى التهلكة ، كما يستجلب الضفدع سم الأفعى .
وقد يكون الصبا كالتعويذة النافعة تحت هذه
السماء الرائعة .

حليمة : تظل وحدك طول الليل بعيداً فى هذه البادية التى يعيث
فيها الذؤبان وقطاع الطريق .

محمد : لست وحدى . إن الله ربى يؤنس وحدتى .

حليمة : أرأيته ؟ .

محمد : ألا ترينه ؟ عند كل عين جارية ، وتحت كل شجرة
مزهرة ، أراه بعين البصيرة مقبلا على ، وأحس حرارة
عطفه وحبه . ما أعظم عرفانى لفضله وتسبيحى بحمده !
لقد فتح صدرى وانتزع الشغاف عنه حتى أحس قربه
فى الصميم من قلبى .

حليمة : إنك حالم واهم ! فكيف يمكن أن تكون حياً بعد
أن يفتح صدرك ؟

محمد : سأدعو الله حتى يلهمك أن تفهمينى .

حليمة : ومن هو ربك ؟ أهو هبل أم العزى ؟ .

محمد : يا للقوم المناكيد! إنك تتوجهين إلى الحجر بحبك!
— إنك تطلبين من الصلصال أن يحميك! هذه الأرباب
ليس لها أذن تسمع الدعاء، ولا قدرة على تلبية النداء .

حليمة : إن الحجر يعمره عامر، والصلصال يحوم حوله حائم،
وإنه ليسمعنى وهو قادر عظيم .

محمد : ماذا يمكن أن تكون قدرته وثمة ثلاثمائة مثله ؟ .

حليمة : أليس مثل ربك أحد .

محمد : إذا كان الرب كفوا، أيكون بعدها ربا ؟

حليمة : فى أى مكان يحلّ .

محمد : فى كل مكان .

حليمة : سيان هذا والقول أنه غير ذى مكان . فكيف
إذن تدركه ؟ .

محمد : اللهم أبتهل إليك أن تنقذ البشر من ضلالهم، فهم أجمعون
إليك يارب راغبون، وإلى وجهك الكريم متطلعون.

وقد ورد فى مذكرات جوته التى أسماها « شعر وحقيقة »
ما يفيد أنه نظم أشعارا غنائية عديدة لتأخذ مكانها من التمثيلية،
ولكن ما بقى منها بين أيدينا نشيد واحد كان قد نشره الشاعر

فى التقويم الشعرى الصادر فى جوتنجن Gottingen عام ١٧٧٣
وهذا النشيد على صورة مقطعات يتناوب إنشادها « علىٌّ » القائد
الشجاع الأمين وزوجته « فاطمة » بنت الرسول ، تحية للنبى .
وهو تصوير رائع لهذه القوة التى فجرها الله على يد رسوله خاتم
المرسلين ، ووصف شعرى لفيض الإسلام ، وسرعة ذيوعه
حتى انتظم النجاد والوهاد ، وبلغ إلى المحيط الأعظم :

على : انظروا إلى السيل العارم القوى ، وقد انحدر من الجبل
الشامخ العلى ، أبلج متألقاً كأنه الكوكب الدرى .

فاطمة : لقد أرضعته من وراء السحاب ملائكة الخير فى مهده
بين الصخور والأدغال .

على : وإنه لينهمر فى السحاب ، مندفعاً فى عنفوان الشباب ،
ولا يزال فى انحداره على جلامد الصخر ، يتنزى فائراً
متوثباً نحو السماء ، مهللاً تهليل الفرح .

فاطمة : جارفاً فى طريقه الحصى المجزع والغثاء الأحوى .

على : وكالقائد المقدام ، الجرىء الجنان ، الثابت الخطى ،
يجر فى أثره جداول الربى .

فاطمة : ويبلغ الوادى ، فتتفتح الأزهار تحت أقدامه ، وتحيا
المروج من أنفاسه .

علی : لاشیء يستوقفه ، لاالوادی الوارف الظليل ، ولاالأزهار تلتف حول قدميه وتطوق رجليه ، وترمقه بلحاظها الوامقة . بل هو مندفع عجلان صامد إلى الوهاد .

فاطمة : وهذه أنهار الوهاد تسعى إليه فى سماح ومحبة ، مستسلمة له مندمجة فيه ، وهذا هو يجرى فى الوهاد ، فخوراً بعبابه السلسال الفضى .

علی : الوهاد والنجاد كلها فخورة به .

فاطمة : وأنهار الوهاد ، وجداول النجاد تهلل جميعاً من الفرح متصايحة .

على وفاطمة فى صوت واحد } خذنا معك ! خذنا معك ! .

فاطمة : خذنا معك إلى البحر المحيط الأزلى ، الذى ينتظرنا باسطاً ذراعيه . لقد طال ما بسطهما ليضم أبناءه المشتاقين إليه .

علی : وما كان هذا الفيض كله ليبقى مقصورا على الصحراء الجرداء . ماكان هذا الفيض ليغيض فى رمال الرمضاء ، وتمتصه الشمس الصالبة فى كبد السماء ، ويصده الكثيب من الكثبان ، فيلبث عنده غديرا راكدا من الغدران . أيها السيل ، خذ معك أنهار الوهاد ! .

فاطمة : وجداول النجاد ،

علي وفاطمة في صوت واحد } خذنا معك ! خذنا معك ! .

علي : هلم جميعاً ، هو ذا العباب يطم ويزخر ، ويزداد عظمة على عظمة ، هو ذا شعب بأسره ، وعلى رأسه زعيمه الأكبر مرتفعاً إلى أوج العلا ، وهو في زحفه الظافر ، يجوب الآفاق ويخلع اسمه على الأقطار ، وتنشأ عند قدميه المدائن والأمصار .

فاطمة : ولكنه ماض قدماً لا يلوى على شيء ، لا على المدائن الزاهرة، ولا على الأبراج المشيدة، أو القباب المتوهجة الذرى، ولا على صروح المرمر ، وكلها من آثار فضله .

علي : وعلى متن عبابه الجبار تجرى منشئات السفن كالأعلام ، شارعة أشرعتها الخفاقة إلى السماء ، شاهدة على قوته وعظمته ، وهكذا يمضى السيل العظيم إلى الأمام بأبنائه.

فاطمة : ويمضى إلى الأمام ببناته .

علي وفاطمة في صوت واحد } إلى أبيهم ، ذلك البحر العظيم ، الذى ينتظرهم ليضمهم إلى صدره ، وهو يهج بالفرح العميم .

ولعل هذا الحوار الشعرى فى تحية النبي كان مقصودا به أن يكون ختام المسرحية ، أو مشهد ،قبيل ختامها . بيد أن الشاعر

حين ضم إلى مجموعة أشعاره التي نشرها عام ١٧٨٩ هـــذه القصيدة أدرجها على غير نسق الحوار الذى كانت عليه فجاءت فى المجموعة مرسلة من غير تقطيع ، وجعل عنوانها «النشيد المحمدى» .

ولم تزل فكرة هذه التمثيلية الشعرية عن «محمد» ماثلة فى مخيلة «جوته» حتى وضع مشروعها ، وعلى مقتضاه تبدأ الرواية بنشيد ينشده محمد وحده بالليل تحت السماء الساجية ، ويشعر بنفسه لما كفة على التأمل والتفكير تسمو صعداً إلى الله الواحد الأحد الذى تستمد سائر الكائنات آية وجودها من وجوده . ويكاشف النبي بهذا الهدى زوجته خديجة فتؤمن به عن طيب نفس أول من يؤمن .

وفى الفصل الثانى يقوم النبي يناصره «على» بالدعوة إلى دينه بين عشيرته وقومه، فيلقى العطف من فريق والمعارضة من فريق ، كل على حسب طبعه وتركيب مزاجه . ويقع الخلف بين القوم وتشتد الملاحاة ويضطر محمد إلى الهجرة .

وفى الفصل الثالث ينتصر محمد على خصومه ، ويطهر الكعبة من الأوثان وتستوى دعوته شريعة مقررة ، وتجتمع له أسباب الجهاد قولا وفعلا . ويظهر الرجل السياسى إلى جانب الرجل الدينى .

وفى الفصل الرابع يتابع محمد مغازيه ويتخذ لها عدتها

ويتوسل بوسائلها . وتدس له السم امرأة من يهود خيبر ثكلت أخاها .

وفى الفصل الخامس يبلغ محمد أوج كماله وتتجلى عظمته الروحية ، ثم تعاوده عقابيل السم ، فينتقل إلى جوار ربه .

ومما يؤسف له أن تقف مثل هذه المسرحية عند حد المشروع.

ولقد ظل جوته على إعجابه بالقرآن والإسلام حتى نهاية حياته.

ومما يذكر للاستشهاد به فى هذا الصدد أن الجنود الألمانية التى اشتركت إلى جانب نابليون فى حربه الإسبانية حين عادوا إلى موطنهم بعد نكبته فى روسيا وانقلاب حليفته بروسيا عليه ، كانت فرقة ويمار تحمل فى عودتها من إسبانيا صفحة من مصحف مخطوط عليها السورة الأخيرة من القرآن . فعكف جوته على هذه الصفحة يحاكى حروفها وكأنما تحمل إليه وهو ينسخها عبير الشرق . ولم يقر له قرار حتى حصل فى ٢٢ أكتوبر ١٨١٣ من المستشرق « إشتاد Eichstadt » على ترجمتها بالألمانية .

وقد أعقب ذلك فى يناير عام ١٨١٤ أن جازت مدينة « ويمار » فى أعقاب الفرنسيين المنهزمين أفواج بعد أفواج من الجيوش الروسية ومن بينها فرقة من فرسان البشكير وهم من رعايا روسيا التتار المسلمين ، فتمثل عندها فى خيال جوته زحف جيوش التتار

فى القرن الرابع عشر متدفقين من الشرق إلى الغرب بقيادة تيمور الأعرج الجبار. وقد نزل فرسان البشكير بالمدينة برهة ، واتخذوا من ردهة المعهد البروتستانتى مسجدا للصلاة ، فأتيح لأهل ويمار أن يشهدوا صلاة المسلمين . ولقد بلغ من وقع ذلك فى نفوسهم أن أقبل بعضهم وفى مقدمتهم سيدات المدينة على استعارة القرآن من المكتبة حتى يكونوا فى المعرفة على مستوى المناسبة . ولم يفت شاعرنا جوته أن يشهد صلاة هؤلاء المسلمين ويسمعهم يرتلون آيات القرآن الكريم فتأخذه ـ كالقوة الخفية ـ روعته، وإن لم يفقه مبناه وعبارته ، كما رأى إمامهم واستقبل أميرهم فى مسرح ويمار . وإنه ليذكر فى هزة المحبور ، أنهم اختصوه من رعايتهم له بقوس وسهام ، وكان يعلقها فوق موقده فى البيت تذكارا عزيزا باقيا .

وحسبنا هذا شاهدا على سعة أفق « جوته » وسمو فكره ونزاهة حكمه وترفعه عن التعصب الشعوبى والدينى . ولا يسعنا نحن المسلمين إلا الاغتباط بموقف هذا الأديب العظيم من الإسلام وكتابه المبين ، ونبيه الكريم والتابعين .

هذا الذى تقدم بنا من عكوف جوته فى « ويمار » بعد على مطالعة ما صدر من ترجمات للقرآن العربى ، ومن تراجم لسيرة النبى العربى الذى أنزل عليه القرآن وأرسل به ، لم يبق أمام شاعرنا الألمانى للإحاطة بالموضوع من بقية نواحيه إلا أن يطلع كذلك على الشعر العربى القديم .

فلا غرو إذا رأينا « جوته » فى عام ١٧٨٣ يبادر بالاتصال بمكتبة جامعة « جوتنجن Goettingin لتوافيه بالمعلقات العربية فى ترجمتها الإنجليزية التى أصدرها فى لندن المستشرق « وليم جونز William Jones » فى ذلك العام نفسه ، وما كاد الكتاب يرد على شاعرنا وتحتويه يداه حتى انكب عليه يطالعه فى روية وإمعان .

وهكذا عاش الشاعر الألمانى فى عصر الجاهلية العربى بفضل ما ترجم إلى اللغات الأوروبية وقتئذ من المعلقات ، تلك القصائد المطولات التى أحرزت السبق فى المسابقات الأدبية التى كانت تعقدها القبائل فى أسواقها الموسمية .

فى هذه المعلقات العربية عاش « جوته » مع العرب البادية من

الرعاة المقاتلة وهم لا يبرحون فى غارات إثر غارات ، يؤجج ضرامها ما كان لا يبرح قائماً بين قبائلهم من ترات قديمة دفينة أو خصومات طارئة مستحدثة .

ويقول «جوته» إن هذه المعلقات تحدثه بأقوى بيان عن العصبية التى كانت تربط أبناء القبيلة الواحدة . وتدله على ما انطبع عليه العربى من روح الإقدام والبسالة ، والتحرز من العار والاستمساك بدرك الثأر ، وطلاب المجد والتماس الفخار . ويقول إنه إذا كان شعراء العرب قد استهلوا قصائدهم بالغزل والنسيب ، فليس هذا منهم بعجيب ، فإن ما يعرضون له فى شعرهم من صفة الحرب بفضائلها الصلبة القاسية ومناظرها الدامية ، قد دعاهم إلى أن يقدموا بين يدى هذه الصورة القوية للعنجهية الجاهلية ، ما يلطف حدتها ويخفف شدتها من وصف محاسن الحبيبة ، وبث لواعج الحب ، وشكوى الجفاء أو البعد ، وترديد الحنين وتوكيد الحفاظ على الود .

ويزيد فى قيمة المعلقات السبع عند شاعر الألمان أن لكل منها صفة غالبة تتميز بها ويشوق القارئ تنوعها . وهو يرى فيها رأى مترجمها المستشرق الإنجليزى ، وخلاصته : أن معلقة «امرئ القيس» رقيقة مرحة ، مشرقة المعنى ، رشيقة اللفظ ، شتى الفنون

ذات رونق مستحب وطلاوة مستطابة . ومعلقة « طرفه » تتسم بالجرأة والحيوية والتوثب ويسرى فيها الابتهاج والتطرب . ومعلقة « زهير » رصينة متزمتة ، عفيفة مترفعة ، حافلة بالتعاليم الخلقية الراجحة والحكم الجليلة النافعة . ومعلقة « لبيد » لطيفة الوقع بارعة الحكاية أنيقة الديباجة ، يشكو فيها الشاعر من جفاء حبيبته ، ليخلص من ذلك إلى تعداد مناقبه والإشادة بقبيلته . كما تطالعنا معلقة « عنترة » مستكبرة متفاخرة . متحدية ، متوعدة بليغة الدلالة ، جزلة العبارة ، وهى مع ذلك حالية بمحاسن الوصف والاستعارة ، وكذلك ينشدنا «عمرو بن كلثوم التغلبى» معلقته فى قوة عارضة وجلالة مهيبة وفخامة رائعة ؛ وعلى وتيرة أخرى ينشدنا «الحارث بن حلزة» معلقته وهو فيها غزير الحكمة ، نافذ البصيرة ، ظاهر السمت وافر الكرامة .

وقراء العربية يذكرون لا محالة تلك الحرب الضروس التى دارت رحاها طويلا بين قبيلتى بكر وتغلب من جراء «البسوس» وكيف تصالحت القبيلتان آخر الأمر على يد « عمرو بن هند » أحد ملوك الحيرة من آل المنذر ، ثم ما كان بعد ذلك من تنازعهما فى مجلسه ، وقيام « الحارث بن حلزة » شاعر بكر وإلقائه معلقته التى عطف بها الملك إلى قومه ، وانصراف « عمرو بن كلثوم »

شاعر تغلب وسيدها وهو ناقم موغر الصدر ، ثم ما وقع بعد ذلك من دعوة الملك للشاعر التغلبي وأمه إلى زيارة بلاطه وهو يضمر التحرش به والغض من اعتزازه ، فلم يملك الشاعر أن ثار به الغضب ، فوثب إلى سيف الملك ـ وكان معلقا بجدار الرواق وليس هناك سيف غيره ـ فضرب به الملك فقتله ، وعاد توآ إلى موطن قومه فى الجزيرة الفراتية حيث نظم معلقته التى يقول فيها .

بأى مشيئة ـ عمرَو بن هند ـ
تُطيع بنًا الوشاةَ وتزدرينا
فإن قناتنا ياعمرو أعيت
على الأعداء قبلك أن تلينا

وكان من شيوع هذه المعلقة وتناقلها بين الناس ، ومفاخرة بنى تغلب بما جاء بها وإكثارهم من روايتها وإنشادها أن قال فيهم الشاعر :

ألهَى بنى تغلب عن كل مكرمة
قصيدةٌ قالهـا عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أوّلُهم
يا للرجال لشعر غير مسئوم

وقد بلغ من حماسة « جوته » وهو يطالع الترجمة الإنجليزية لهذه المعلقات فى عام ١٧٨٣ أن أرسل فى الرابع عشر من نوفمبر من ذلك العام نفسه إلى صديق له هو : « كارل فون كنيبل Karl von Knebel » يخبره بعزمه على أن يحاول بدوره ترجمة المعلقات . وقد أمكن العثور على هذه المحاولة أخيراً ، فأضيفت إلى آثار جوته فى طبعة ويمار . وبعد سنوات عديدة من هذه المحاولة وقع جوته فى ثنايا رسالة للدكتوراه عام ١٨١٤ على ترجمة لاتينية لقصيدة للشاعر العربى الجاهلى الذى استشهر باسم « تأبط شرًّا » وهى قصيدته التى يتوعد فيها بنى هذيل بالانتقام ، وقد جاءت فى باب المراثى فى مختارات « الحماسة » لأبى تمام ومطلعها :

إن فى الشعب الذى دون سَلْع

لقتيلا دمــه ما يُطَلُّ

ويقول « جوته » إن لباب هذه القصيدة ونخاع صلبها هو عظمة الشخصية ، وخطر الموضوع وجسامته مع قسوة الأخذ بالثأر فى مشروعيته ، وهو يعقب عليها شارحاً سياقها ، مبيناً مواقفها ، وكيف أصبحت الحكاية فيها شعراً بحسن تصرف الشاعر العربى فى سوق التفاصيل وتدبير أوضاعها واختيار مواقعها . مع البعد كل البعد عن زخارف القول بحيث يبقى على

القصيدة طابع الجد والحدث الجلل ، مما جعل القارئ لها يشهد بعين خياله تطور وقائعها من البداية إلى النهاية ، كما لو كان فى موقف صاحبها .

ومما يجدر ذكره أن الشاعر الألمانى قد أورد ـ فيما أورد ـ قول أبناء العربية فى معرض الفخر : إن العرب مطبوعون بفطرتهم على الشعر . وهو يعقب على ذلك بقوله : لا بد فى مثل هذه الأمة الشاعرة من نبوغ العدد العديد من فحول الشعراء فإذا اختصوا منهم بالذكر ـ على تطاول الأزمان وتعاقب الأجيال ـ سبعة فقط ليكونوا أصحاب المعلقات ، فليس لنا إلا النزول على حكمهم وتلقى قرارهم بالتسليم والإخبات .

وإن القارئ لا يتمالك نفسه من الدهشة لما يبديه جوته من قبول سخى كريم للتشبع بالروح العربى . فقد اجتمع كتّاب الغرب على رأى — لا يخلو من شبهة العصبية الذميمة — وهو أن الحضارة الحديثة مهدها يونان القديمة . فلنسمع هنا إلى الشاعر الألمانى ، يعلن فى حماسة وإيمان قوى ، عدوله عنها إلى حضارة الشرق العربى ، فى حاضرة العباسيين الزاهرة ، على ضفاف الفرات أيام هرون الرشيد والبرامكة .

وهذا ماقاله جوته فى إحدى مقطعات ديوانه الشرقى :

« دع الإغريق المثّال ، يجبل الطينة ، ويصنع التمثال ، وليفتتن بعدها ماشاء الافتتان بالدمية التي أبدعتها يداه الصناعتان .

« أما نحن فإن متعتنا لجة الفرات ، نسبح فيها مسترسلين مع عنصر الماء ، حتى إذا ارتوت غلة النفس ، تفجرت أفاويق الشعر فياضة مترنمة . فليغترف الشاعر من هذا الفيض بكفه الطهور ، فإنه ليتكور فى يديه متلألئاً كالبللور » .

كذلك يعرض الشاعر الألمانى إلى أغراض الشعر ، فلا ينكر على العرب تقسيمهم إياه إلى أبواب أربعة : الغزل ، والخمريات ، والمديح ، والهجاء . وفى ذلك يقول :

« كم هى العناصر التى يتألف منها الشعر فترضاه الخاصة ويلذ سماعه العامة ؟ .

« إذا قيل شعر ، فالنسيب المقدم . فإن الحب إذا دخل الشعر زاد نبراته عذوبة وحلاوة .

« ثم على الشعر أن يردد رنين الأقداح وهى تتلألأ بما فيها من عتيق الراح كأنها الياقوت ، فالعشاق والندامى هم وحدهم من نرتاح لهم ونستطيب مجلسهم .

« كذلك يطيب فى الشعر أن يقرع السمع بصليل السيوف ، ودوى النفير ، وجلبة الوغى ، فإذا انجلت المعركة عن البطل الظافر

كان من حقه المديح بما أبداه من العزيمة وشدة الأسر، وما أصابه فى ميدان الشرف من الغلبة والنصر .

« ولا معدى للشاعر فى آخر الأمر ، عن استنكار أشياء شتى والتعرض لأصحابها بالهجاء المر ، فما كان لمثله أن يلقى الكريه القبيح ، بمثل ما يلقى المستحب المليح .

« فإذا اجتمعت للشاعر هذه العناصر الأربعة ، فقد أشاع الحياة والبهجة بين الورى أجمعين ، إلى أبد الآبدين »

ويبلغ من تأثر جوته بمطالعاته فى الشعر الجاهلى ، أن تستهويه حياة رجل البادية العربى فيقول فى مقطوعة له بعنوان « المنن الأربع » :

« لكى يسعد العرب فى بيدائهم ، راتعين فى بحبوحة فضائهم ، أولاهم المولى ذو الفضل العميم أربع منن :

« أولى هذه المنن : العمامة ، وهى زينة أروع من التيجان كافة .

« ثم الخيمة يحملونها من مكان إلى مكان ، حتى يعمروا كل مكان .

« ثم حسام بتار ، هو أمنع من الحصون وشاهق الأسوار .

« وأخيرا ـ وليس آخرا ـ القصيد الذى يؤنس ويفيد ، ويستهوى أسماع الحسان الغيد » .

• ويسترسل شاعرنا الألماني في حماسته ، حتى ينتهي الأمر به إلى النقمة على حياة المدنية ، والتكبير والتهليل لما ينعم به الفارس البدوي من الحرية :

«دعوني - كما أهوى - على صهوة جوادي، واقبعوا أنتم في بيوت المدر وخيام الوبر ! إنني لأنطلق جذلان في هذا الفضاء الشاسع وليس فوق عمامتي إلا النجوم الزواهر . وما زينت السماء الدنيا بمصابيح إلا هدى للناس ومتعة للناظرين » .

وقد بلغ هذا الشغف بالشرق العربي من جوته غاية مبالغه ، حتى كان يعالج محاكاة الكتابة العربية ، وإقامة حروفها ، ورسم كلماتها ، وتوجيه سطورها من اليمين إلى اليسار على خلاف الكتابة الإفرنجية . وقد جره هذا الشغف إلى التغنى بالقلم العربي المتخذ من القصب ، فنظم فيه مقطوعة بعنوان « القـلم » .

« تخرج الأرض من القصب هذه الأعواد للترفيه بها عن العباد .

« فاللهم اجعل أصدق المشاعر وألطف الأفكار ، تفيض من القلم الذي أخط به هذه الأشعار » .

فاصلة

ــ بين الهجرة السابقة والهجرة اللاحقة

كان جوته بعد هجرته الروحية السابقة إلى الشرق السامى قبل الإسلام وبعده ، قد أخذت ترين عليه بعد عام ١٧٧٦ غاشية من الكلال والملل من شواغل الوظيفة السياسية والإدارية فى بلاط «ويمار» ومن حبه لمدام «دى فون ستين» حبا لم يشف غلته ولم يؤت ثمرته ، فاشتد شعوره بالحاجة إلى الاستجمام والراحة واشتدت به السآمة من « الشمال » حتى صارت أشبه ما يكون بالمرض ، وأصبح عاجزاً عن مغالبة ما ينازعه من الرغبة فى الرحيل إلى الشمس والحياة البسيطة الطليقة الباسمة . وكان لا يزال يذكر منذ الطفولة تلك الرسوم المحفورة التى يعلقها والده فى بيت الأسرة المجدد ممثلة لمناظر إيطاليا ، ومن بينها الصراط الصخرى الذى ينحدر بين صفحات الثلوج وخمائل الصنوبر إلى تلك البحيرات الزرق المحفوفة بشجر الزيتون والليمون. ولكن «جوته» حين سأل الدوق وهمافى «كارلسباد» مدينة الحمامات الحارة فى «بوهيميا» أن يأذن له فى عطلة طويلة للراحة لم يذكر له وجهته بل أخفاها عنه وعن حبيبته وسائر أصدقائه . ثم تعمد السفر خلسة فى الثالث من نوفمبر عام ١٧٨٦ فى الساعة الثالثة

صباحاً باسم مستعار «جان فيليب مولر Jean Philippe Moeller»
وكانت هجرته إلى «الجنوب» إلى أرض إيطاليا التي قال فيها
في كتابه «ولهلم ميستر» على لسان «منيون Mignon» اللطيفة
هذه المقطوعة (عام ١٧٨٤) :

«أتعرفُ الأرض التي يزهر فيها الليمون بعبيره الزكي
«ويضطرم في دجى أشجارها الوارفة التفاح الذهبي
«وتسري نسمة حلوة دافئة في سمائها اللازوردية الصافية
«وينمو في رباها الآس الناضر والغـــار الفاخر ؟
«أتعرفها حق المعرفة !!؟
«هناك ، أجل هناك ، أريد أن أمضي ياحبيبي معك !».

ولقد أطال شاعرنا الإقامة في أرض إيطاليا المشرقة حتى
يونيو عام ١٧٨٨ ثم كرر لها الزيارة عام ١٧٩٠ . فلما أن عاد إلى
«ويمار» كان أكثر استعداداً وأسرع اشتياقا إلى الهجرة الروحية
مرة أخرى إلى الشرق قاصيه ودانيه .

ولقد تحقق حلم «جوته» فاحتوته إيطاليا ، فأخذ يجول
في نجادها ووهادها ، وعلى ضفاف أنهارها وحول بحيراتها ، وخلال
حقولها ووسط مزارعها حيث تخطر العجول الضخمة وتسرع
صغار الحمير محملة ظهورها بالسلال المملوءة ، وقد انتثر الفلاحون

والفلاحات هنا وهناك فى «نابولى» و «صقلية» وسهول «لومبارديا» وهم يعملون فى الأرض وفى نفوسهم الرضى والابتهاج بالحيـاة . وفى هذه البيئة شعر «جوته» باقترابه من « أمنّا الأرض » ، وأنه يتصرف بكامل حريته فى وحدته ، دون اسم يحرجه ومن غير مهنة تقيده . وقد أبى أن يحدثه دليله المرشد عن التاريخ ، كما أبى الاهتمام للكنائس ، بل كانت بغيته الاستغراق هنا فى جنةالطبيعة وفى آثار الحضارة اليونانية الرومانية القديمة . وقد ترك لنا الشاعر هذه الانطباعات المزدوجة فى مجموعة من الأشعار أسماها « أغانى رومانية Romische Elegieen » .

وقد أجمع النقاد على أنها بلغت الذروة حتى قال بعضهم : إنه لا يذكر فى الأدب اليونانى أو الرومانى هذا الجمع بين الفكرة العالية التى تجعل الشعر عظيما وقوة الانفعال الشخصى الذى يجعل الشعر مؤثرا .

وننقل فيما يلى نماذج من بعض المقطوعات :

المقطوعة الأولى

«أيتها الحجارة ، حدثينى ! أيتها الصروح الباذخة أجيبى ! أيتها الطرق ، انطق بكلمة واحدة ! ألا تستيقظين أيتها العبقرية ؟

يلى كل شىء حى فى أسوارك القدسية يا روما الخالدة . إلا فى ناظرى وعند خاطرى ، فما برح الصمت على كل شىء مخيما .

« ألا من يوسوس لى فى أية نافذة ! أنا ناظر فى يوم من الأيام إلى الطلعة الحلوة التى ستحيي لى كل شىء وهى تغنينى ؟ أليس لى أن أهتدى إلى السبيل الذى يدرج فيه وقتى النفيس ذهابا إليها وإيابا من عندها ؟ .

« لم أر حتى اليوم إلا بيعا وصروحا . وأطلالا وعمدا ، كالسائح الحازم الحريص على الفائدة من رحلته . ولكن سرعان ما أودع كل هذا ، فلا يبقى بعده غير هيكل واحد ، هيكل الحب يقبل عليه العارف بأسراره .

« أنت يا روما عالم ! ولكن العالم بغير الحب لا يكون عالما ، وروما لا تكون روما .

المقطوعة الخامسة

بعد أن استحدث الشاعر علاقة غرامية

« على أرض الآثار تستخفنى حماسة قدسية ، وتحدثنى العصور الخوالى والعصور الحواضر باللحن الجهير فتؤنسنى . هنا أطالع فكر الأقدمين ، وأقلب بيد الخشوع صفحات أعمالهم فتستجد لى متعة فى كل نهار ، أما الليل فيشغلنى فيه الحب بشواغل أخرى

فإذا بات حظى من العلم نصفه، فلقد أصبت من السعادة ضعفيها .

« وبعد أفليس من التعلم والدرس أن يتأمل البصر تكوير نهد كاعب ، وأن تجرى الكف على استدارة خصر مبتَّل ؟ وإنى لأفهم حينذاك ولا أفهم قبل ذاك ما الرخام ، وما التماثيل ؛ وإنى لأفكر وأقارن ، وأرى بعين تحس ، وأحس بكف ترى .

« ولئن سلبتنى الغانية سويعات من النهار فإنها تعوضنى عنها ساعات فى الليل . وليس الليل كله بعناق ! فإننا لنتحدث فيه الحديث الرصين . وتأخذها سنة من النوم فتنازعنى ألف فكرة. وأنظم بين ذراعيها ، وأقسّم بأصابعى الماجنة على ظهرها تفاعيل بحر من القريض . وهى فى منامها تتنفس فتضرمنى أنفاسها حتى سويداء قلبى . والحب يتعهد أبدا مصباحه الوقاد ، حالماً بالعهد القـــديم الذى أدى فيه هذه الألطاف للأسبقين من الولاة الرومانيين » .

الشرق الأقصى

أطال شاعرنا جوته الإقامة فى أرض إيطاليا المشرقة حتى ١٨ يونيه عام ١٧٨٨ ثم كرر لها الزيارة عام ١٧٩٠ فلما أن عاد ثانية إلى وظيفته فى بلاط « ويمار » عاوده حنينه الروحى إلى الشرق مرة أخرى . ولقد كان لجوته مقنع وأى مقنع فى رحلته الروحية الأولى إلى الشرق السامى ، ولكن جوته المفكر العالم هو بعينه جوته المحب الفنان فى نزوعه إلى التنقل . ومن ثمة استجاب لما حفزه إليه « هردر » وغيره من ورود مناهل الثقافة الآرية كما يقولون ، فى أدب الشرق الأقصى .

وكان جوته قد اطلع قبيل ذهابه إلى بلاط ويمار على ترجمة ألمانية عام ١٦٨١ لما نشره الطبيب الهولندى « أوليفيه دابرا Olivier Dapper » من البحوث المستفيضة عن الشرق خاصة . وفى هذه البحوث كان المؤلف يكدس خرافات الهند تكديساً، معتمداً على الملحمة الهندية الكبرى « مهابهارته Mahabharata » . وقد استوقفه منها على الأخص عقيدة التجسد وما ترويه عن تجسد « الآله فشنو Vichnou» فى صورة الفتى الجميل راما Rama ابن ملك أوده . ثم زواج الأمير راما من ذات الحسن والجمال سيتا Sita

وما كان من نفى « راما » بسعاية امرأة أبيه ثم طمع ملك الجن « رافانا » ملك الجنوب فى الحظوة بزوجته التى بلغه صيت جمالها فاختطفها على عجلة سحرية حملتها إلى سيلان ، ثم قيام راما إلى استخلاص زوجته ، واستجاشته أهالى الهند الجنوبية الأصليين ، وإغارته على سيلان وانتصاره بمساعدة ملك القردة « هانومان » وظفره بملك الجن رافانا وقتله وإنقاذه زوجته الحسناء التى استهدفت لمحنة أخرى هى ارتياب زوجها فيها ونفيه لها .

ولقد نجح شاعرنا جوته فى إحياء هذه القصة على الرغم من كثرة أسمائها وتشابك أحداثها ، وكان تناوله للقرد المقدس على نحو مستطرف حببه إلى القراء . ولكن شاعرنا يشير فى مذكراته « شعر وحقيقة » إلى أن هذه الخلائق المروعة الهائلة العجيبة التكوين بعيدة كل البعد عن الحق الذى هو دائماً بغيته المنشودة.

بيد أن هذا التعرف لآلهة الهند العديدة وهذا الاطلاع على مطولات أساطيرهم والتيهان فى شعاب مذاهبهم حيث تختلط الشهوات بالقداسات وتلتقى الأرض بالسموات ، قد استولد قريحة شاعرنا - إلى جانب « الفاتحة المسرحية » فى فاوست - جملة من الأساطير الهندية صاغها فى أروع صورة وأبدع نظم ، بحيث صارت من فرائد موشحاته القصصية من النوع المعروف عند

الألمان باسم Ballade وفى مقدمتها جميعاً أسطورة « الإله والراقصة » :

« هبط « مهاديفا » رب الأرضين للمرة السادسة وجعل نفسه واحداً منا ، وشاء أن يبلو أفراحنا وآلامنا فارتضى هذه الدنيا سكنا ، وخضع لكل شىء ، وبعد أن استطلع المدينة استطلاع السائح ، وترصد الأكابر ، ولاحظ الأصاغر غادر المدينة فى غبش المساء ، وابتعد ، وفى ظاهر المدينة حيث تقوم المنازل النائية الأخيرة لمح صبية جميلة محمرة الخدين من الطلاء ، صبية من البنات الساقطات .

— سلامى إليك أيتها العذراء .

— شكراً على هذا الشرف ! انتظر ، سأخرج إليك فى الحال.

— ومن تكونين ؟

— راقصة وهنا بيت الحب .

ثم نشطت للرقص ورنت صنوجها ، ودارت فى لطف ، ومالت وتثنت ، ومدت له باقتها خاطبة وده . وكانت فتانة فاجتذبته إلى عتبة الباب ثم إلى خدرها :

« أيها الغريب الجميل ، لسرعان ما ينير كوخى ، أمتعب أنت ؟

إنى هنا رهينة بالتسرية عنك وتدليك قدميك الموجعتين ، لك كل ما تريد من راحة أو نشوة أو مداعبة »

وأقبلت على الأوجاع المتصنعة تأسوها

وابتسم الإله مغتبطاً بأن يرقب هذا القلب الآدمى الممعن فى الفساد ، فطالبها بما تؤديه الإماء من خدمات ، فإذا هى تتهلل لها وتزيد ابتهاجاً بها ، وإذا هذا الذى كان أول الأمر فى الفتاة تطبعاً يصبح وهى لا تشعر طبعاً غير متكلف . وكما أن الزهرة تخلفها الثمرة ، فكذلك الإخلاص إذا تفتح فى القلب كان الحب غير بعيد .

وقد شاء هذا القاضى الأعظم المتحكم فى الرفيع والوضيع أن يشتد فى ابتلائها باللذة والروعة والألم ، فقبل خدها المطلى بالحمرة فأحست عندئذ لواعج العشق ، وهامت وجداً ، وفاضت دموعها للمرة الأولى ، وجثت عند قدميه . وما تجثو اليوم ـ وا أسفاه ـ للشهوة أو للذهب ، ولكنما خذلتها أوصالها المتفترة.

وأسبل الليل أستاره الكثيفة . وفى جنح الظلام طابت الأعراس المسكرة فى فراش الغرام . وبعد موهن من الليل أخذها النعاس بين العنـــاق والقبل . ثم تنبهت مبكرة بعد هجعة قصيرة ، فألفت مضيفها الحبيب على صدرها ميتاً فولولت وانكبت عليه . ولكن هيهات أن توقظه . وسرعان ما حملوا الجسد الهامد إلى المحرقة وسمعت الكهان وتراتيل الجنازة

فأجهشت ، وانطلقت مسرعة ، وشقت الجمع .

— من أنتِ ؟ وماذا جاء بك الى المحرقة ؟ .

فانطرحت علىَ النعش وملأت الفضاء بعويلها: «زوجى، أريد زوجى، سأسعى إليه حتى القبر. أترانى مبصرة جماله الأسنى يتساقط رماداً ؟ لقد كان لى أكثر من كل امرأة سواى . وا أسفاه ! ليلة نشوة واحدة ».

هذا والكهنة يرتلون: « نحن نحمل الكهول بعد أن استنفدوا أيامهم وأملى الأجلُ لهم. نحن نحمل الشباب فى ريعان الجمال قبل أن يخطر الموت لهم فى بال »

ثم يقول الكهنة : « هذا الفتى لم يكن زوجك ، إنما أنت راقصة ، وليس لك من حق . لا يتبع الجسد إلى ملكوت الموتى الصامت إلا الظل وحده ، لا يتبع الزوج إلا الزوجة وحدها . هذا واجبها وهذا فخارها معاً . اعزفى أيتها الأبواق لحن النعى المقدس . ويا أيها الأرباب الخالدون ، أدعوا لجوارکم من جوف اللهب هذا الفتى فخر زماننا » .

كذا أنشد الجميع. فزادوا قلبها التياعاً غير راحمين ، فإذا هى تندفع ممدودة الذراعين ، وتلقى بنفسها فى الضرم المودى .

ولكن ، ها هو ذا الإله الفتى يرتفع من جوف اللهب معانقاً حبيبته . كذلك يرفع الخالدون بأذرعهم الملتهبة الأرواح الضالة إلى عليين . كذلك تبتهج الآلهة بندم الخاطئين .

وإلى جانب هذه الأساطير الهندية المروّعة ، المتصلة بالآلهة والشياطين وأنصاف الآلهة ، يحلو لشاعرنا «جوته» أن يطالع حكايات الحكيم البرهمى « بيدبا Pidpai » التى وضعها على ألسنة الحيوان لملك الهند «دبشليم» فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وأنفذ فى طلبها فى القرن السادس بعد الميلاد كسرى أنو شروان ملك الفرس الذى بلغه عنها فأشار عليه وزيره « بزرجمهر » بأن يندب الأديب المتطبب المجوسى « برزويه Burzouyéh » الذى أكب على نقل الكتاب من اللسان الهندى إلى اللغة البهلوية وهى الفارسية القديمة . وعن البهلوية نقلها إلى العربية عبد الله بن المقفع فى عهد الخليفة المنصور العباسى فى القرن الثامن الميلادى . ومن ذلك الحين تعددت ترجماتها إلى مختلف اللغات ، فترجمت إلى الفارسية بأمر أمير خراسان نصر بن نوح، كما ترجمت إلى العبرية واللاتينية منذ القرن الثالث عشر ، وإلى الفرنسية منذ عام ١٧٢٤ مما يدل على وقوعها موقع القبول عند الكافة ، ولكنها عند العرب والفرس لها مكانة لا تعدلها مكانة ، لما تنطوى عليه من الخبرة بالحياة والحكمة العملية . ويعلل « جوته » نقلهم هذه الحكايات دون غيرها عن الهند بأن ذلك راجع إلى عدم اتصالها بالوثنية الهندية ، التى تنفر منها أذواقهم المترفة، كما تنفر عقولهم من فلسفة الدين الهندى المعوصة .

الشرق الصوفي

في العربية والفارسية

المتصوفة في جميع الأزمان تغلب عليهم نشوة روحية ، فهم في شبه غيبة عن عالم الحس ، مستهلكون في شوق غامض إلى التجرد عن أشخاصهم والاندراج في حقيقة كلية عليا ، هي الله المحيط بكل شيء . ومعلوم أن الكافة من المتصوفة المسلمين في كلامهم عن الله يعنونه دائماً بقولهم : « الحق » ، ويعرفون المطلب الأسمى الذي ينشده السالك في طريقهم بأنه « الفناء في الحق » .

وهذا الشوق يأنسه في نفسه كل من ينظر إلى الوجود نظرة المتصوفة أو بعبارة أصح يحس به إحساساً تصوفيا ، لأن التصوف إحساس أكثر منه عقيدة . ومن ثمة كانت وجهتنا وجهة المعنى مع تعميم القول من غير تقيد بمصطلح أو تعرض لمختلف الطرق .

فالوجود كله صادر عن الله . ويسمون هذا الصدور بالتجلي . وتتجلى وحدانيته سبحانه في خلائقه التي لا يحصي كثرتها إلا هو . فهو حقيقة الحقائق وعين الوجود ، ومنه كل موجود من شاهد ومشهود وروح ومادة ونور وظلمة . وكما أن حركة التنفس

شهيق وزفير ، وحركة القلب بسط وقبض ، وكل فعل من الأفعال له رد . فكذلك هذا التفصيل فى الخلائق المترتب على الإيجاد فإنه لايفتأ متطلعاً إلى الاتحاد . وناموس الحب هوالسائد فى عوالم الروح والنبات والجماد أيضاً حيث يتبدى فى صور مختلفات كالجذب والثقل النوعى والمغنطيسيةوالتزاوج الكيميائى.

ولما كان المتصوفة فى جملتهم يحسون إحساس الشعراء إلى جانب روحهم الدينى ، فهم يشهدون لمحة إلهية فى كل شىء : فى رواسى الجبال ومعتلج الأمواج وعصف الإعصار يشهدون جبروته . وفى أعماق الفضاء يزدان بالأنجم الزهراء ، وفى امتداد الصحراء تمتد فى رأى العين إلى غير انتهاء ، يشهدون عظمته . وفى ألوان المروج الحالية بالنوار وشتى الأزهار ، وفى مناغاة الجداول ونضرة الخمائل ، وفى نصاعة الثلوج على الذرى ورفيف السنابل الذهبية فى نور الضحى وترقرق الأمواه الفضية فى ضياء القمر ، يشهدون جماله . وفىابتسامة الخفر وحمرة الخجل وإطراقة الطرف من الفتاة العذراء فى هواها العذرى للفتى ، وفى قبلة المحب للحبيبة فى لهفة غير مريبة ، وفى عناق الزوجين تمازجت نفساهما وتجاوب قلباهما ، وفى ضحكة الطفل فى لعبه البرىء وفى وفاء الصديق للصديق وفى عون الرفيق للرفيق ، يشهدون حبه .

فهم أبدا فى طلب المعانى ،حتى أصبحت علما عليهم فعرفوا باسم « أهل المعانى » . وشعر المتصوفة كله شاهد على ما وصفناه من شهودهم معنى الربوبية فى كل شيء . قال شيخهم ابن الفارض : ـ

تراه إن غاب عنى كل جارحة
في كل معنى لطيف رائق بهج

فى نغمة العود والناى الرخيم إذا
تألفا بين ألحان من الهزج

وفى مسارح غزلان الخمائل فى
برد الأصائل والإصباح فى البَلَج

وفى مساقط أنداء الغمام على
بساط نور من الأنوار منتسج

وفى مساحب أذيال النسيم إذا
أهدى إلى سحيراً أطيب الأرج

وفى التثامى ثغر الكأس مرتشفاً
ريق المدامة فى مستنزه فرج

والواصلون منهم إذ يشهدون الله فى آيات الخَلق ينسون الخلق جميعاً ويذكرونه ، ويزهدون فى العرض المعروض إلى الجوهر المكنون . ويغيبون عن عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وعن عالم الأشباح إلى عالم الروح . فهنا الخير كله والجمال كله . وقد

ذهبوا فى استعلائهم على الحسيات إلى قول بعضهم : « إن التصوف هو العصمة عن رؤية الكون » وعندهم أن التماس الجمال فى الخارج تكلف ، لأن الروح مشتملة عليه . والعاقل من يعكف فى حرم روحه يستزيدها من الخير والجمال ، فيوسع بالاحتجان والتوفر نطاق وجوده ؛ وبدلا من توزع الهمة بين المتعدد ، يحصرها فى الواحد. فإنه فى هذا الفيض الروحى عارج إلى مصدر الفيوض وحقيقة الوجود .

وهذا الشوق عند المتصوفة أفاد العاطفة الدينية فنزهها عن المقايضة والمساومة، وارتفع بها إلى أوج الروحانية . فلم تعد علاقة العبد بالرب مجرد الخشية من عذاب المنتقم الجبار ، ولا الطمع فى ثواب الغنى ؛ بل الحب الخالص ، كما فى قول رابعة العدوية : « إلهى ! ما عبدتك خوفا من نارك ، ولا طمعاً فى جنتك ، بل حباً لك ، وقصد لقاء وجهك » . وفى دعاء آخر تبتهل رابعة إلى الله أن يعطى ما كتبه لها من نصيب فى الدنيا لأعدائه ، وما كتبه لها فى الآخرة لأوليائه ، فإنه هو حسبها .

وهذه المحبة للذات الإلهية تستولى على متصوفه الشرق حتى تتجاوز الحد ، وتضطرم اضطرام العشق ، وتتلون بوهجه . فإذا هم يشكون برح الغرام ، واحتراق القلب بلواعجه ، وكيف أضنى

أجسادهم ويرى عظمهم ، وقرح جفونهم بالبكاء ، وأطال ليلهم بالسهاد . ثم يذهبون أكثر من ذلك إلى التشكى من التدلل والصد وتمنى القرب والوصل ، وهذا كله حتى هنا سائغ على سبيل المجاز ومع كثير من التجوز ؛ إلا أنهم ليحيرون اللب حقًّا ويتعدون كل معقول حين يعرضون للمحبوب بالوصف: فإذا بالجبين المسفر، والغدائر المسدلة ، والخد الأسيل المورد ، وفتور الطرف الأدعج وما إلى ذلك مما هو أشبه بالغزل والتشبيب ؛ كقول محي الدين ابن عربي :

حقيقتى همت بها ... وما رآها بصرى
ولو رآها لغدا ... قتيل ذاك الحوَر
فعندما أبصرتها ... صرت بحكم النظر
فبت مسحوراً بها ... أهيم حتى السحر
كأنما أنفاسها ... أعراف مسك عطر
كأنها شمس الضحى ... فى النور أو كالقمر
إن أسفرت أبرزها ... نور صباح مسفر
أو سدلت غيّبها ... سواد ذاك الشعر

والحب حاجة قلبيه لبنى الإنسان على السواء، وكأنما يتنفسه الأحياء مع الهواء ، وإنما يتوجه به الزاهد عن الدنيا إلى الذات

العليا ، فيكون التغير فى المرتبة لا فى طبيعة الشعور ، ومن ثمة هذا الاتفاق فى التعبير بين شعر التصوف وشعر الغزل . وإنه لتمر بالقارىء الأبيات لولا معرفة ناظمها لتشابه عليه الأمر ، ففهمها على غير وجهها . بل إن المتصوفة أنفسهم ليتمثلون فى مواجدهم وحلقاتهم بأشعار العذريين ، ومنهم من يروون أن مجنون بنى عامر رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك؟ فقال : « غفر لى وجعلنى حجة على المحبين » . فالحب عندهم كل شىء وقد امتلأت به قلوبهم .

والحب عاطفة مركبة القوى . فالمرء يحب للحب ، ثم لشخص المحبوب ، وكذلك ليحس أنه محبوب . وقد لمست رابعة العدوية هذا التركيب فى قولها :

أحبك حبين حب الهـــوى
وحبًّا لأنك أهـــل لذاكا

وأما ماذهب إليه الإمام الغزالى من أنها أرادت بحب الهوى حبها لله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة فلا نحسبه التفسير الأرجح . لما هو معروف من رفضها الدنيا وزهدها حتى أصبحت فى أخريات أيامها كالخلال البالى .

ويتوسل السالك الصوفى لحصول الحال التى يشتاقها بالزهد

والتقشف ومجاهدة النفس. ويقول الشيخ على بن سينا: «فإذا بلغت به الإرادة والرياضة حداً ما، عنّت له خلسات من إطلاع نور الحق لذيذة كأنها بروق تومض إليه، ثم تخمد عنه. وتكثر عليه الغواشى إذا أمعن فى الارتياض، ثم إنه ليوغل فى ذلك حتى تغشاه فى غير الارتياض. وتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينة، فيصير المخطوف مألوفاً، والوميض شهاباً بيناً، وتحصل له معارفة مستقرة كأنها صحبة مستمرة، وينتهى بأن يصير سره مرآة مجلوة يحاذى بها شطر الحق. وحينئذ تدر عليه اللذات العليا. ويفرح بنفسه لما يرى بها من أثر الحق. ويكون له فى هذه الرتبة نظر إلى الحق ونظر إلى نفسه. وهو بعد متردد. ثم إنه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط. وإن لحظ نفسه فمن حيث هى لاحظة. وهناك يحق الوصول».

وتلك حال من السعادة كما يقول «ابن طفيل» لا يقوم بها وصف، لأنه من طور غير طورها وعالم غير عالمها. ولا يمكن إثباتها على حقيقة أمرها، لأنه متى حاول أحد ذلك وتكلفه بالقول أو الكتابة استحالت حقيقتها؛ إذ أنها فى اكتسائها بالحروف والأصوات، وتقريبها من عالم الشهادة لاتبقى على ماكانت عليه بوجه، واختلفت فيها العبارات اختلافاً كثيراً.

وزلت به أقدام قوم عن الصراط المستقيم . وظن بآخرين أن أقدامهم زلت وهى لم تزل . وإنما كان ذلك لأنه أمر لانهاية له فى حضرة متسعة الأكناف محيطة غير محاط بها . غير أن تلك الحال لما لها من البهجة واللذة والحبور لايستطيع من وصل إليها وانتهى إلى حد من حدودها أن يكتم أمرها أو يخفض سرها ؛ بل يعتريه من الطرب والنشاط والمرح والانبساط مايحمله على البوح بها بجملة دون تفصيل . ولقد اكتفى الغزالى عند وصوله إلى هذه الحال بالتمثل بهذا البيت :

فكان ماكان مما لست أذكره   فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

ووقف غيره ممن أدبتهم المعارف ، وحذقتهم العلوم عند حد. أما البعض فقالوا فيها بغير تحصيل مقالات أخذوا بها . ومعظم الأشعار فى وصف هذه الحال فيها جماح واجتراء . والمتصوفة أنفسهم يعرفونها بالشطحات . ونجتزئ هنا بترجمة مقطوعة من ديوان المثنوى لجلال الدين رومى يصور فيهامعنى التوحيد؛على حد ماذهب إليه البعض من أن لفظ « أنا » غيرجائز لغير الله لأنه وحده الموجود بذاته ولا جود إلا به :

«طرق أحدهم باب المحبوب. فهتف به من البيت هاتف : « من الطارق ؟ » فأجاب : « أنا » فقال الهاتف : « لايتسع هذا البيت

لى ولك ». فانطلق المحب إلى الخلاء واختلى بنفسه صائماً مصلياً .
ثم عاد بعد عام وطرق الباب مرة أخرى، فهتف الهاتف كذلك :
« من الطارق ؟ » فقال المحب : « انت » ، وعندها فتح الباب .

وهذا الشوق من المحب للفناء فى المحبوب له أيضا نصيب من الشوق إلى المعرفة . فإن الباحث فى رأى الغزالى إذا اعتمد على المحسوسات لم يلبث أن يداخله الشك فيها ، فإنه لينظر مثلا إلى الكوكب فيراه صغيراً ، وتدل الأدلة الهندسية على أنه أكبر من الأرض فى المقدار . فإن هو عول على المعقولات فما يدريه؟ لعل وراء إدراك العقل حاكما آخر إذا تجلى يكذب العقل فى حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه. وعدم تجلى ذلك الإدراك له لايدل على استحالته . وعلى هذا يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل إنما هو حق بالإضافة إلى حالتك . ويمكن أن تطرأ عليك حالة أخرى تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ، فإذا أوردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لاحاصل لها. ولعل تلك الحالة هى ماتذهب الصوفية إلى أنها حالتهم إذا غاصوا فى أنفسهم ، وغابوا عن الحسيات والعقليات ، وتوصلوا من طريق التواجد ثم الوجد إلى تحقيق وجودهم بالفناء فى الحق سبحانه ، فإن هذا الذى فاتهم إدراكه

بظاهر الحس وبرهان العقل تحصل لهم معرفته بالملابسة والذوق .

هذه هي الصوفية بوجه عام . وقد تعمق شاعرنا الألماني جوته في دراستها فيما درسه من الشعر الفارسي .

والشعر الفارسي تغلب عليه الروح الصوفية في جملته . ومهما يكن من تفاوت شعرائهم في ذلك ، فلابد أن نستبعد من هذا المجال علما من أعلامهم وهو أبو القاسم الفردوسي (٣٢٩ - ٤١١ بالتاريخ الهجري - القرن العاشر الميلادي) . ولا غرو ، فهو صاحب ملحمة الشاهنامه التي تزيد أبياتها على الخمسين ألف ، والتي تناول فيها قصص ملوك الفرس المجوس الأقدمين ، وكانت قد جمعت نثراً في لغتها الأصلية الفهلوية وهي الفارسية القديمة فتعرض الشعراء لنظمها في الفارسية الحديثة . وممن سبقوا إلى ذلك « أبو منصور محمد بن أحمد الدقيقي » الشاعر الذي نظمها امتثالا لأمر الملك نوح ابن منصور الساماني « ٣٦٥ — ٣٨٧ هـ » . وكان آل سامان الذين استقلوا بخراسان ينسبون أصلهم العجمي إلى « بهرام جوبين » القائد الفارسي الذي ثار على كسرون برويز ، وكانوا في عصبيتهم يعملون على إحياء تواريخهم القديمة ، ويشجعون الشعراء على النظم بالفارسية ، ولقد نظم الدقيقي الشاعر من شاهنامته نحو الألف بيت ، ثم انتهى عمره على يد عبد من عبيده اغتاله ليلا . فتطلع

إلى الاضطلاع بهذا العمل العظيم « أبو القاسم » الذى يروى ذلك فى مقدمة شاهنامته فيقول : (فلما يئس قنبى من الدقيق ، توجهت تلقاء ملك العالم ، لعلى أظفر بهذا الكتاب — قصص ملوك الفرس — فأنظمه . سألت أناساً لايحصيهم العد ، وأنا أوجس خيفة من تقلبات الزمان ، وأخشى أن لا تمتد بى الحياة فأتركه لغيرى . وكان فى المدينة صديق لى كأنى وإياه نفس واحدة فقال : « أنا كفيل بهذا الكتاب الفهلوى فلعلك لا تنام عنه » . وأحضر إلى الكتاب، وقال : « إذا يسر الله لك نظم كتاب الملوك فأهده إلى الملوك » . وكان محمود الغزنوى الذى ولى « خراسان » من قبل السامانيين قد استقل بها عام ٣٨٤هـ وكان شديد الاهتمام بنظم كتاب الملوك ، فشخص أبو القاسم من بلده طوس إلى غزنه ، وأبلغ ما نظم إلى السلطان وهو قصة «رستم وسهراب» فلما عرضت على من كان حاضراً مجلسه من الشعراء تحيروا من بلاغة نظمها ، فعهد إليه السلطان بإنجاز نظم الكتاب كله ، فنظمه فى البحر المتقارب . وكان كلما سمع شعره يردد قوله « سمعت هذه القصص مراراً ، ولكن نظم الفردوسى شىء آخر » حتى زعم الزاعمون أنه قال له مرة « إنك صيرت مجلسنا فردوساً » ولقبه منذ ذلك الحين بالفردوسى .

وبديهى أن لا يطلب شاعرنا « جوته » الصوفية فى قصائد المديح التى كان « الأنورى » يصوغ قلائدها للسلطان سنجر ملك خراسان وغيره ممن كان يتعلق بأذيالهم من الكبراء . ويخلبهم بسحر الملق والثناء ، كما كان طبيعيا أن لا يلتمس مجانيها النورانية عند صاحب « حديقة الورد » بقطوفها الدانية « سعد الدين الشيرازى » وأمثاله من أصحاب الأمثال الخلقية والحكمة العملية.

وإنما ورد جوته الصوفية فى مناهلها التى استطاع الوقوع عليها عند المتصوفة من شعراء الفرس الذين كثيراً ما كانوا يصطنعون القصص لبيان طريقتهم وتصوير لطائف أحاسيسهم ودقائق مفاهيمهم ، ونذكر منهم « أبو عبد الله الأنصارى » الشاعر فى قصته المنثورة عن يوسف وزليخا ، وشاعر الحب والألم « نظامى الكنجوى » الذى يتابع فى شعره القصصى مجرى المقادير فيما كان بين الأمير الساسانى خسرو برويز والأميرة الأرمنية شيرين ، وما كان فى الرواية العربية بين « ليلى والمجنون » وما دخل بين الإلفين العاشقين من عناد الأسرة وملابسات البيئة ، وحكم العادات ولعب الأهواء ، وصروف الدهر تفرق بينهما ثم تردهما ، ولا يزالان بين فراق ولقاء فى ظروف شائقة عجيبة حتى يحم الفراق الذى ليس بعده تلاق ؛ والشاعر « فريد الدين العطار »

صاحب المثنوية الصوفية « منطق الطير » و « تذكرة الأولياء » وقصة « جل وهرمز » ; والشاعر « جلال الدين رومى » الذى نشأ فى قونيه حاضرة دولة الروم السلجوقية وتلقى الصوفية على «الشيخ الدرويش» شمس التبريزى حتى اشتهر ديوانه باسم « ديوان شمس التبريزى » ، وأنشأ بعد موت أستاذه طريقة المولوية ، ونظم آيته الكبرى «المثنوى المعنوى» وهو هنا روح لا تأنس إلى الواقع ، إذ تجد فى كل حدث من أحداثه معضلة ، فتلتمس حل ألغازه ، فتجىء الحلول ألغازا جديدة تحتاج إلى حلول جديدة ، فيلوذ آخر الأمر بمذهب التوحيد المطلق ; وأخيرا ذلك الشاعر الناثر الذى جمع الفنون كلها من دينيه وفلسفيةوعلمية فى شعره ونثره « عبدالرحمن الجامى » الذى اتخذ من قصته « ليلى والمجنون » ترجمانا عن آرائه فى التصوف فى كثير من المواقف .

ولكن شاعرنا الألمانى لا يجد صنوه وشقيق روحه إلا فى حافظ الشيرازى « شاعر الغزل » الأكبر الذى جمع فى غزله الحسية الروحية ، وبلغ من نشوة الفرس وطربهم بما نظمه فى الحب والجمال أن لقبوه « لسان الغيب وترجمان الأسرار ».

ملتقى الشرق والغرب

لا الشرق شرق ولا الغرب غرب ، بل هما على البعد يلتقيان ، كلما تلاقت بالفكر العالى والشعور العميق من هنا ومن هناك نفسان عظيمتان ، تطاول ما تطاول بينهما الزمان ، وتدابر ما تدابر بهما المكان .

وليكن فى هذه المرة العظيمان الشقيقان : حافظ الشيرازى أحب شعراء الفرس ، وجوته كبير شعراء الألمان .

ولقد طلع الأخير فى أفق الحياة من ناحية الغرب ، بعد أن غاب زميله فى الشرق بنحو أربعة قرون . وما كاد جوته يحصل فى عام ١٨١٤ على ديوانه الذى كان قد ترجمه بأكمله للألمانية « البارون دى همّر Baron von Hammer Pargstall » حتى رأى نفسه مجلوة فى مرآته ، وآنس فيه مشابه جمة من طبيعته وملكاته وحياته .

كلا الرجلين لا دعوى له فى عراقة النسب والشرف الموروث وكلاهما طالب متعة يجمع فيها بين الحس والروح . وكلاهما صاحب أثرة لم يشغل خاطره إلى حد الأعنات والجهد بأحداث عصره وتقلباته .

فهذا شمس الدين محمد ابن رجل من أصفهان نزح إلى شيراز

وأثرى فيها من التجارة ، ولكنه قضى نحبه وأحوال تجارته مضطربة وزوجه وابنه فى إملاق ، حتى اضطر الغلام إلى السعى فى كسب قوته بعرق جبينه . بيد أن الفتى الذكى الفؤاد لم يعدم الوقت والوسيلة للذهاب إلى مكتب من المكاتب المجاورة للتعلم وحفظ القرآن . ومن ثمة تسمى فى أشعاره باسم «حافظ» . ولم يلبث أن عالج قرض الشعر فلم يوفق فى البداية توفيقاً يذكر ، حتى كان فى ذات ليلة – كما تصوره لنا الرواية – يتهجد فى ضريح ولى من أولياء الله قائم على رابية فى سواد شيراز . فإذا بالإمام علىّ يدخل عليه ، ويناوله مطعما لم يذقه قبل من طعام الخلد ، ويقول له: إنه قد أوتى من اليوم موهبة الشعر ومفاتيح العلوم كلها.

واتصل حافظ بكافة الملوك الذين تعاقبوا فى أيامه على ملك شيراز ، على ما كان بينهم من منازعات . فاتصل بالشاه « جمال الدين أبو اسحق » من آل « اينجو » كما اتصل بمن غلبوهم على الملك من آل المظفر مثل « مبارز الدين محمد » وابنه « جلال الدين المعروف بالشاه شجاع » حتى قضى عليهم الغازى التترى الجبار « تيمور » [1] .

---

(١) تيمور معناها فى لغتهم : الحديد ، ويذكر اسمه أحياناً تيمور لنك ومعنى لنك :الأعرج .

وكان الشاعر شديد الحب لشيراز موطنه ، لا يمل التغنى بنهرها السلسال وخمائلها المتضوّعة ، ومن ذلك قوله : « هات أيها الساقى كل ما بقى لديك من راح ، فهيهات أن تجد فى جنة الخلد مراشف سلسبيل مثل نهر ركناباد أو خمائل ورد مثل محلة المصلّى ». ولقد توالت عليه الدعوات من والى بغداد وملوك الهند يستقدمونه بعد أن جابت أشعاره إليهم الآفاق ، ووقعت من نفوسهم موقع النفائس والأعلاق . ولم يكن الشاعر فى هذه الأثناء جميعاً بالمطمئن إلى ما هو فيه ، أو بالجاهل ما هو ملاقيه عندهم لو قد لبى الدعوة وأنفذ الزيارة . ولكنه لا يطيق فراق شيراز . فهو يزجى إليهم المعاذير فى أرق الشعر ، مستعفياً من أول الأمر دون أدنى روية وإعمال فكر . ولقد هم مرة ولكنه عدل فى النهاية فكانت الأولى التى هم فيها والأخيرة . إن شيراز تقيده إلى تربتها ، ولا تسمح له بالفكاك حيًّا أو ميتاً : « نسيم المصلى ونهر ركناباد يحرمان علىّ المسير والسفر » .

ومع هذا فالمدينة التى كلف بها الشاعر وأشرب قلبه حبها قد حوصرت مرات ، واختلفت عليها أيدى القابضين زرافات ، وضرجها بالدماء فاتح ، وعمرها باللهو والقصف ثان ، وسامها الزهد ثالث . وقد شهد حافظ الأقيال والأمراء واحداً بعد

الآخر ، يرتفعون إلى عقوة الملك ثم يزولون ، وتعاقبت على سمعه وبصره المآسى الفاجعة والأفراح الصاخبة والتماع القنا وأصوات الوغى وقيام دول وانهيار دول ، فأى صدى لهذا فى شعره ؟ لا شيء يذكر إلا أفاويق من المديح المسرف لهذا الملك ثم لذاك والإشادة بمفاخر هذا النصر وسواه ، والتنويه ببسالة هذا القائد وغيره ، كما هو المرتقب من شاعر البلاط الخليق بهذا الاسم .

وكان جل ما يعنيه فى تقلب الملوك على دست الحكم موقفهم من إباحة اللذات أو تحريمها . فإذا غلب منهم على شيراز ذو جهامة وصرامة فأغلق الدساكر ومنع جهد المستطاع شرب الخمر ، سمعت حافظاً ينفث شكاته فى قصائد عدة تتمثل فيها الشاعر يساند نفساً تتساقط حسرات ، ويغالب من سخطه عواصف ثائرات ، فيجتمع من هذه وتلك مزاج بديع من الوجد اللاعج والسخر اللاذع . كما ترى فى قوله : « مهما تكن الراح تورث الأفراح والنسيم يستقطر شذا النسرين ، فإياك وشرب العقار على نغم الأوتار ، فإن المحتسب قائم لك بالمرصاد . خبيء الكأس فى أردان عباءتك المتقشفة المرقعة ، فإن زماننا كعين الإبريق يسكب دماً . واغسل خرقة الدرويش التى أنت لابسها بالدمع من بقع الخمر . فهذا موسم الورع وأوان الزهد » . ثم قوله ينعى ابنة الكرم

ويندبها ندب الثاكل اللاهف : « يا ليت أنهم يفضون الأغلاق عن الحان ، فإذا أمورنا المعقدة قد انحلت وصرنا فى أمان ! ألا جزّوا شعور الأوتار حداداً على الصرف العقار ! وسطروا الكتب تعزية فى ابنة العنب . وليذرف عليها الندمان من جفونهم دماً . هم أوصدوا الأبواب على بيوت الصهباء . فاللهم نعوذ بك أن يفتحوها على التزوير والرياء » .

فلما أن تغير العهد ، وتبدلت الحال غير الحال بولاية الشاه شجاع وعاد اللهو إلى مجراه وفتحت الحانات الأبواب وازدهرت مجالس الشراب ؛ احتفل بها حافظ متهللا :

(طرقت مسمعى سحراً بشرى من هاتف الغيب : « هذا دور الشاه شجاع . فاشرب الراح شجاعاً » . لقد غبر العهد الذى كان فيه أهل النظر يفترقون ، وعلى ألسنتهم كلام كثير فلا تنبس بالكلمة الواحدة لهم شفة . لسوف ننشد هذه القصة على نغم الأوتار ، فتجيش لسماعها مراجل صدورنا . ولكن ، مالنا وذاك . إن الملوك أدرى بشئون الملك . وأنت الفقير العاكف يا حافظ ، فأمسك عن الكلام وعش بسلام) .

وفى مقطوعة أخرى :

« قسما بما للشاة شجاع من أبهة وسلطان وجلال . ما أنازع

أحداً على جاه ولا مال ، ولكن ألا ترى لهذا الراقص اليوم على نغم الأوتار . وكان بالأمس يحرم السماع على الندمان والسمار ! » .

ويندفع الشاعر وقد أخذته هزة الطرب فى نشوتين من سكر وفرح ، شامتا ساخراً ، ومسبحاً شاكراً فى منظومة فريدة :
(هلل العود : « أين المعترض المنكر ؟ » . وقهقهت الكأس : « أين المانع الناهى ؟ » . ألا فاطلبوا طول العمر للشاه ، إن كان طيب الحياة مطلبكم . هو رب الجود والعطاء والكريم ذو الأيادى البيضاء ، مظهر لطف الأزل ، ونور عين الأمل ، جامع العلم والعمل ، حياة الوجود : الشاه شجاع) .

وفى هذه المقاطيع التى أوردناها ما يكفى لتعريف القارئ خصائص شعر حافظ . فهو جميل السبك مصقول الحواشى بليغ الإيجاز متألق الوشى يراق يبهر الأبصار ، رخيم اللفظ منغوم النظم يسحر الأسماع ، حلو الإشارة لطيف الحس يفعل بالألباب فعل السحر .

ولا نحب أن نقف بالقارئ عند الصورة التى رسمناها لحافظ فى شبابه من حيث استجابته للمرح والطرب ، فنستدرك عليها حرصاً على استكمالها بالتنبيه، إلى أنه كان شديد الولع بالدرس والتحصيل. فهو إلى جانب حفظه القرآن عن ظهر قلب قد تضلع من علوم

الدين واللغة ، وقرأ على أكبر المشايخ : الكشاف للزمخشرى ، ومطالع الأنوارللبيضاوى ، ومفتاح العلوم للسكاكى ، والمصباح وغيرها . فضلا عن كتب الشعر وفصول الأدب وأصول النقد ، حتى ليقول عن نفسه : « لم يجتمع لحافظ من الحفاظ مثل ما اجتمع لى مع القرآن من لطائف الحكماء » . وكان شاعرنا الفارسى يجيد العربية كما تشهد قصائده باللغتين . وقد خلف أشعاراً جمعت بعد وفاته فى ديوان كبير بينها المزدوج والمقطعات والقصائد والرباعيات ، وذلك الضرب من النظم الذى يسمونه الغزل أخص ما حذقه حافظ .

ومع أن أشعاره فى معظمها تدور حول الربيع والورد والبلبل والخمر والصبا والجمال، فإن الشراح من المتصوفة وغيرهم يذهبون إلى أن هذا الظاهر من الصور الجميلة وراءه معان باطنة عميقة الروحانية . وللشاعر فى حقيقة الأمر نفس تصوفية ، ونزوع إلى النظر فيما وراء التعاليم الخارجية . وهو يطالع فى عالم الشهادة المعانى الغيبية ، ويستجلى الله ذا الجلال فى كل شىء . وهو يقول إن العبادة بالقلب خير وأولى من مجرد القيام بالفرائض العملية وترديد الذكر على طرف اللسان . ومن ثمة كان دائم الوقوع فى شيوخ الدين والمتصوفة الزاهدين ؛ يتهم ظاهرهم ،

ويكشف وراء العبادات والمراسم عن زيفهم، ويغمزهم فى صحة العقيدة وصدق النية. ونجتزىء على سبيل المثـــال بقوله: «فى طريق الخمارة الليلة البارحة، حملوا على أكتافهم إمام المدينة مخموراً. وأما الإمام فكان يحمل على كتفه سجادة الصلاة!».

والواقع أن هؤلاء الممخرقين كان لهم فى الدولة شأن خطير، حتى أنه كان من دواعى النبوة بين الشاه شجاع وبين حافظ استخفاف الأخير بفقيه كرمان، وكان هذا قد علم قطة كانت له أن تأتم به وتحاكيه قياماً وركوعاً عند الصلاة. فرأى الأمير فى ذلك كرامة من كرامات الأولياء، ورآها الشاعر مخرقة من خدع الدجاجلة.

وجعل الشاه الناقم ـ وهو فى نفس الوقت شاعر منافس ـ يقدح فى شعر حافظ لاختلاف بواعثه فهو آونة تصوف وأخرى تعشق وسكر، وهو طوراً وعظ وروحانية، وتارة ذلاقة واهتمام بحطام الدنيا. فقال حافظ لمن حوله: «فليكن ما يقال حقاً، إلا أن الخلق أجمعين على الرغم من ذلك جميعه ليحفظون أشعارى ويلهجون بها ويكثرون من ترديدها، أما البعض ممن لا أستطيع ذكر اسمه، فأشعاره لا تجتاز أبواب المدينة».

فكان من شأن هذا التعريض أن أحفظ الشاه فوق حفيظته، فانتهز الشاعر بيتاً من الشعر يوقعه فى قبضة يده، فكان هذا البيت قوله:

« إذا كان الإسلام ما يعتنقه حافظ ، فواضيعتاه للشاعر لو صح أن بعد اليوم يوماً آخرا ».

ونبه بعضهم حافظاً إلى النية المبيتة على تكفيره استناداً على هذا البيت . فبادر مضطرباً جزعاً يستفتى ، فأشير عليه بأن يضيف بيتاً آخر يفهم منه أن الكلام المتقدم جرى على لسان آخر فتنتفى التهمة وينجو الشاعر ، على مبدأ « ناقل الكفر ليس بكافر » . وبالفعل أردف حافظ بالبيت السابق البيت اللاحق .

« فياله قول هزل سمعته سحراً ، من كافر يترنم على الدف والناى على باب الحانة » . وأبرز حافظ هذا البيت مع البيت الأول حين جابهوه بالتكفير ، فسقطت عنه التهمة ، وسلم من التنكيل ، على أن شبح التكفير لم يزل فى أعقابه حتى وافته المنية ، فلم يسمحوا بأن تقام صلاة الجنازة على رفاته ، بحجة أن له أشعاراً يرى مشايخ المسلمين تفسيقها ومخالفتها للدين . وانبرى أنصاره بطبيعة الحال ينضحون عنه ويدفعون . وأخيراً استقر الرأى على الاستخارة من أشعاره . فاتفق لهم قوله : « لا تقعد عن تشييع نعش حافظ ، فإنه على إمعانه فى الغواية صائر إلى الجنة » .

وعندئذ أقيمت الصلاة ، ودفن الشاعر على مقربة من شيراز

فى ظل شجرة سرو من غرس الشاعر نفسه ، وحول الضريح بستان يزدهى بالرياحين ، ويشقه طريق يقوم على حفافيه السرو القديم .

وكان أول من اتصل بهم حافظ من الولاة هو ـ كما قدمنا ـ الشاه « جمال الدين أبو إسحق » والى إقليم فارس . وكان شاعراً وصديقاً للشعراء ، ومستهتراً مستهلكا فى حب اللذات . وكانت أيامه زواهر ، ولكن خاتم ملكه الفيروزى ـ على حد قول حافظ ـ قد سطع فى أبهى سناه ولم يطل مداه . ذلك أن خاتم الملك الفيروزى ما لبث أن انتزعه لنفسه « مبارز الدين محمد » من آل المظفر . وفى أواخر أيام حافظ طغى تيمورلنك ـ فيما طغى عليه من البلدان ـ على البلاد الفارسية ، كالإعصار الهائل يجتاح كل مايصادفه ، نخرب الأمصار ، واستباح المدن وعاث فيها وأفسد ، وأوسع أهلها سبياً وتقتيلا ، وأقام من جماجمهم الأهرام والمنائر ولم يرع للخصوم عهداً ، فمن لم يضع فيهم السيف أمر بهم فألقوهم من حالق . وقد دخل شيراز بعدها دخول الظافر القاهر . ويروى الرواة مقابلة جرت بينه وبين حافظ من المرجح أنها أسطورة موضوعة ، ويزعم رواتها أن تيمور أرسل فى طلب حافظ فلما مثل بين يديه عرض له بالنكير لقوله فى بيت من أشعاره :

« ذات دل من جواري الترك ممشوقة القد ، لو اتخذت قلبي عبداً لها لكنت نعم العبد ، ولبذلت فداء للخال على خدها بخارى وسمرقند »

لهذا صاح به تيمور : « لقد دوخت معظم العالم المعمور بالطعنات النافذة من سيفي الصقيل المطرور ، وتركت الألوف من المدائن والأقطار قاعاً صفصفاً لأزين بأسلابهـــا وغنائمها سمرقند وبخارى ، بلادي وأزهى حواضر ملكي ، فتأتي أنت الصعلوك النكد، لتبذلهما من أجل خال على خد جارية تركية من جوارى شيراز ؟ » فانحنى حافظ حتى مس الأرض وأجاب :

« لقد بهرني ما للملك العظيم من الأبهة والسرف ، فوقعت فيما وقعت فيه من هرف » .

فسر تيمور من سرعة خاطره وحضور بديهته ، فلم ينزل بالشاعر نقمته ، ووصله بجائزة سنية .

وحسبنا هذه الصورة المجملة لشاعر الشرق نعرضهـا ليتبين المطالع المتأمل أنها تصح في جملتها صورة لشاعر الغرب .

فقد التحق جوته الشاب ببلاط « ويمار » وهي إمارة صغيرة الرقعة ولكن لها في تاريخ ألمانيا أكبر الأثر . وقد كان أميرها دون جوته سناً ، جم النشاط متيقظ الحس ، لا يكل من السعي والحركة ، ولا يغفل عن انتهاز الفرص سواء في اهتمامه بشئون الملك ، أو تفننه في اللهو وانتهاب اللذة . وكان متحمساً للفنون

والآداب يستقدم أصحابها ، ويوليهم المناصب ويجرى عليهم الرواتب ، ويشعر لهم بالإجلال والكرامة ، حتى اجتمع منهم فى ويمار مالا تفخر بمثيله سائر ألمانيا . ومما يؤثر عن الأمير الفتى أنه أمر فجمعت له مكتبة عن الحب تكلف فى جمع شواردها العناء والنفقة . وهو يقرن إلى ذكاء الفؤاد وشوق المعرفة غرام العواطف الحسية الجامحة ، وكراهة المراسم ، والخشونة فى الطباع والكلام وجفاء المجون والرغبة ، فى اللهو العنيف . وبالجملة كانت له شيمة الجندى تستهوى لبه المخاطر والخمر والنساء . ولقد اتفقت سليقة الأمير وصديقه الشاعر فى عبادتهما للطبيعة وتذوقهما للحياة والأرض . فإذا ويمار تضج فى معظم الأحيان بالأعياد ، ومواكب المساخر ، وحلقات الرقص فى ضوء المشاعل فوق الثلوج ، والصيد والطرد والإجلاب الجموح على صهوات الجياد ، وركوب المزالج على الجليد . وثمة مجالس الشراب ولعب الورق والنرد ، وثمة الجولات المتنكرة والصبوات المتنقلة ومغامرات الليل فى القصور والقرى المجاورة . والأمير والشاعر متلازمان كلاهما عارم الفتوة صلب العود موثق البنية ، يروعك مرآه فى بذلة الركوب وحذائه الطويل الغليظ وقبعة السمور وهو يربت على كلاب الصيد أو يمسح على لبان الفرس . فلا جرم يصدق

عليهما ماكان يقال من أنهما يطويان بياض النهار فى الطرد والقنص ،ثم يعقبان بسواد الليل يزجيانه سكراًورقصاً ولهواً .

ولقد يجر الأمير المندفع صديقه إلى حد الاستهتار وخلع العذار ، فى مغامرات شائنة مع الإماء والقرويات ، ويجوب معه معربداً فى الأسواق والأعياد العامة ، ويميل به إلى إحدى الحانات المنقطعة ينادمان لعوباً من النساء مؤاتية . وكانت ويمار لها مسرحها ، وللسرح فرقته ، وفى الفرقة ولا شك حسان مؤاتيات ، ويقال إنه كانت للشاعر والأمير مغامرات مع بعضهن .

على أن هذا كله كان يرضى من شاعرنا شياطين حسه ، ولم يكن ينفذ فى قلبه إلى شغاف ولا صميم . فالشاعر لا غنى له عن الحب ، وهو لا يحيا حفل حياته إلا به . ولقد ذاق جوته هذا الحب طوال أيامه المرة بعد الأخرى ، ولولاه ما ارتفع على أنانيته ، ولا سبر غور الألم ، وعرف التضحية ، ولا تخرّج فى الشعر والأدب حكيما ومنشداً . والنساء اللاتى أحبهن فى مراحل عمره يطول بنا إحصاؤهن ، فيكفينا هنا للدلالة على مبلغ دينه لهن ، ومدى استلهامه منهن ، الاستشهاد بقوله : « الأنوثة الأبدية تجذبنا إلى السماء» .

ولقد قضى جوته حياته يطلب المعرفه بحماسة لا تفتر، ونهم لا يشبع ، ولم يقتصر هذا الطلب على ضرب من المعرفة دون الآخر ، بل كانت همته تستجيب لدواعيها بلا استثناء ، ويهفو شوقه إلى أسرارها على السواء ، ويتفتح لها قلبه ويحتضنها جميعا فى محبة واحدة . فلم يكتف بالتخرج على عرائس الشعر والفن ، بل خاض فى العلوم وتوغل فى بحوثها كالتشريح والنبات ونظرية النور والألوان وطبقات الأرض ، يستبطن دخائلها ويستجلى غوامضها . وقد اهتدى فى بعضها إلى حقائق قيمة هادية .

وفى أيام جوته شبت الثورة الفرنسية وهى انتصار مبين للشعب ولحقوق الإنسان . فهلل للعهد الجديد شعراء من سائر الأجناس والملل بحرارة وإيمان ، ومن بينهم شيلر وكلوبستوك وغيرهما من الجرمان . وأما شاعرنا فتنكر لهذا الأفق الملبد بالغيوم المدلهمة والرهج المثار ، والدم المراق . ولقد هب ملوك أوروبا ضد الجمهورية ومبادئها . وفى مقدمتهم صمدت لها شاكية السلاح « بروسيا » ، وحليفها أمير ويمار وفى ركابه جوته . ولكن الشاعر كان يتبع شخص الأمير ، من غير كبير اهتمام بالقضية ، لأنه بطبعه لا تحركه أحداث السياسة وتقلباتها . فهو صاحب نفس مفكرة تبحث فى

نواميس الطبيعة الخالدة ، وتجد فيها ما تجده النفوس الأخرى في طوارىء الساعة من غذاء للحياة وحافز للهمة ، فبينما كانت المدفعية الألمانية تصب نارها على قلعة فردون ، كان الشاعر في في شغل شاغل عنها . وذلك أن بعض الجنود الذين كانوا يصطادون السمك في أحد الغدران لفتوا نظره إلى حطام إناء من الخزف في قاع الماء يشع موضع الكسر فيه عن أعجب إشعاعات الطيف وأجمل ألوان «الموشور» ، وقد بلغ من وقع هذه الظاهرة في نفسه أنها ردته في الحال إلى دراسة البصريات ، وصرفته عن ضرب القنابل ، حتى لتراه في الليل - المحمر الحواشي المهتك الجباب من مقذوفات النار - يتمشى في هدوء وراء أسوار الحديقة مع أحد العلماء يحدثه عن نظرية الانعكاس . ولم يزل هم الشاعر في حله وترحاله في ميادين الوغى منصرفاً إلى إملاء المذكرات في البصريات على كاتبه ، وظل إلى ما بعدها حريصاً على هذه المذكرات يزهو بما علق بها من آثار المطر والوحل كشاهد صدق على غيرته في البحث ونبالة المقصد .

وبعد سقوط فردون دارت المعركة عند فالمي . وطاف القائد الفرنسي بالصفوف الأولى رافعاً على شباة سيفه قبعته وعليها الشارة المثلثة الألوان ، وهتف « لتحيا الأمة » . فارتفع

هتاف هؤلاء المجندين قاصفاً يصم الآذان . وثارت نخوتهم ودفعوا العدو بأسنة بنادقهم المشرعة ، وانهزم فرسان ملك بروسيا الكماة المجربون أمام من يسمونهم «اسكافية» الجمهورية . ولقد دام قصف المدافع حتى الليل . وكلما مال ميزان النهار تضاعف إطلاق النار . حتى زلزلت الأرض زلزالها ، وذهلت العقول عن التفكير فى المصير . وفى هذه الساعة العصيبة خطر للشاعر أن يمتحن رباطة جأشه وامتلاكه لأعصابه . فقد سمع أنه فى مثل هذا الوطيس يجن جنون المرء وتأخذه «حمى المدفع» فأراد أن يعجم قوة نفسه ،ويبلو جلده كشأنه وهو فى ستراسبورج إذ كان يصعد فى كنيستها إلى الذؤابة من برج الأجراس يصابر الدوار ويغالبه . وهذا هو اليوم يدفع بجواده إلى المنطقة التى تصطلى نيران المدافع حيث تنهال المرامى هنا وهناك بين الخرائب فتتشظى الحجارة ، وتتناثر الأعواد والأعشاب ، وهو مسترسل يراعى فى سكينة هذا الحاصب من القذائف المتطايرة يطوقه ويغوص حوله فى الأرض الغريقة المتحللة ، وقد اشتمله حركحر التنور ، ولكنه آنس فى عزة المطمئن أن نبضه على حالته من الهدوء .

وما برح العنف يستدعى العنف ، وجوته يزداد كل يوم كراهة للثورة الفرنسية فى عنفها دون أشخاصها ؛ لأن الرجل فى كتابه

عن معارك فرنسا قلما يبخس أبناء الثورة نصيبهم الأوفى من التفانى فى البسالة ومن حماسة الإيمان فيما عرض لوصفه من الهزائم والانتصارات على السواء . ولكنه كان يقول بالتطور تفادياً من قلاقل الفتن والثورات الدامية . وكان ذلك طبعا فيه حتى ليقول فى نهاية هذه الفترة :

« إن افتقادى لاستقرار الحياة وتقلب أهواء السياسة بالناس حَبّباً إلىّ عقردارى ، وبودى هنا لو خططت حولى دائرة لا يتطرق إليها طارق غير الصداقة والفن والعلم » .

وهنئ الشاعر رَدَحاً طويلا من الزمن بالراحة المشتهاة بين أشعاره وبحوثه ومقتنياته وبين منظومة زاهرة من أصدقائه . وفى مقدمتهم الشاعر شيلر وقد أحس إلى جانبه بتجديد حياته .

ثم عاد جو أوروبا إلى الاكفهرار . وأعلنت بروسيا الحرب على نابليون . وامتطى أمير ويمار الركاب مع حليفته ولكن سرعان ما اندحرت الجيوش الألمانية أمام نابليون وقد أثخن فيها ومزقها شر ممزق . وانثالت الفلول المكسورة إلى مدينة ويمار ، فما عتمت أن دوت المدافع بقربها ، وتطاير الرصاص يصفر فوق دار جوته ، وهو يسمع إلى أصوات الهاربين من وجه العدو ، ويلمح أطراف أسنتهم فوق أسوار الحديقة . زحام

فاجع تتدافع فيه المناكب ، وتتعثر الأقدام ، ويختلط فيه الحابل والنابل والناس والخيل ، وتتسابق المركبات متصادمة عند المنافذ ومفارق الطرق. وأينما أدار شاعرنا الطرف فثمة قوائم مدفع مهجورة وعجلات مهشمة وجرحى هائمون . والعباب الآدمى الوافد يطم ويربو كل لحظة ميمماً فى هربه إلى غربى ويمار . وبعد هنيهة تبدو طلائع الفرسان الفرنسيين شاهرين سيوفهم ، وسبائب خوذاتهم مرسلة للريح ، وهم وقوف فى ركابهم ناصبو الصدور على صهوات جيادهم الراكضة منتفخه الخياشيم مزبدة اللغام ، وكأنهم وهم يركضونها فى حللهم العسكرية الحمراء شياطين انطلقت على الدنيا . وكان من أمر شاعرنا المستشار أن أمر لهم بالجعة والنبيذ وعهد بذلك إلى نجله وكاتبه الخاص . وقد التمس جوته التشرف بنزول المـارشال « ناى » فى ضيافته ، وقامت قعيدة داره كرستيان ـ ولم يكن عقد زواجه عليها بعد ـ تخدمهما على المائدة ، إلا أنها كانت أكثر استئناساً بالضباط وإن تعرضت أحياناً لسوء مجونهم . وقد رأى «جوته» فى هذه الآونة إجراء العقد عليها وإشهار الزواج بهـــا .

وبعد شهور جرت المقـابلة المشهورة بين الأمبراطور

والشاعر . ومقابلة الأمبراطور تجرى عادة فى الصباح أثناء طعام الفطور . وكان النزل فى حركة مستمرة ، والأروقة والدهاليز غاصة بالقـــواد وأركان الحرب ، والحلل المقصبة تتعاقب على العين فى جيئة وذهوب ، وسيوف الاحتفال بجرجرة تصلّ على الدَرَج . وأقبل جوته فى حلة الديوان منسق الهندام مرجل الشعر . فطلب إليه الانتظار حاجب بدين ، وفى رواق الانتظار تعرف إلى بعض القادة الكبار . وانفتح الباب ، ودعى الجمع كله ، ودعى جوته للدخول . فولج إلى القاعة الفسيحة ، وفى بهرتها منضدة ضخمة مستديرة يجلس إليها رجل ربعة ممتلىء له جبين مقبب انحسر عنه الشعر ، يتناول إفطاره فى صحاف الفضة ، ويبدو فى الأربعين من عمره . هذا هو الأمبراطور . وكان واقفا على يمينه « تاليران » وأدنى منه على يساره « دارو » والحديث دائر فى شئون المال وخراج الحرب . ووقع نظر نابليون على الشاعر فأومأ إليه بالدنو . فاقترب إلى مسافة لائقة ، فحدد إليه الطرف مليأ يتوسم ثم قال :

— إنك لرجل حقاً .

فانحنى الشاعر ، واستأنف الأمبراطور :

— وكم سنك ؟

– ستون يا مولاى .

– إنك لمدخر العافية .

ومضى يقول إنه يعرف له المكانة الأولى بين شعراء المأساة الألمان . ثم عرج على رواية « فرتر » فذكر أنه طالعها سبع مرات واصطحبها معه إلى مصر فى حملته الغابرة ، وأنه يعرفها حق المعرفة ، وأبدى عليها بعض الملاحظات . وامتد الحديث بينهما واستفاض ، وكان نابليون طوال هذه الأثناء ظاهر الصفاء والإيناس يبدى استحسانه بإيماءة يشفعها فى لهجة قاطعة بقوله : « هذا حسن » . وهو ناشط الحركة ناطق الأسارير . وكان يردد أحياناً لنفسه بصوت مسموع أجوبة الشاعر الألمانى ليتفهم معناها جيداً من خلال كلامه بالفرنسية المقلقلة ، كما كان أحياناً إذا أدلى برأيه فى نقطة بعد المذاكرة يقبل فى بشاشة على الشاعر متسائلا : « ما ظن المسيو جوته فى هذا ؟ » .

وحين انتهت المقابلة انحنى الشاعر مستأذناً . فلما انصرف التفت الإمبراطور إلى من حوله راضياً وقال : « هاكم رجلا »

واطردت الأحوال على أحسن منوال إلى أن غضب نابليون على قيصر روسيا وتوغل فى بلاده ليعاقبه على حد قوله . ومضى يتنقل من نصر إلى نصر حتى موسكو . فأحرقها الروس . وحل

الشتاء داهما مبكراً فارتد نابليون أمام روسيا المتلفعة بالثلج والجليد . وفتك الزمهرير بالجند الإمبراطورى فتكه الذريع . فكانت الجثث تتساقط كأنها معـــالم طريق فى كل مرحلة من مراحل التقهقرى . وإذا الجيش العرمرم الذى كان يسد الأفق لا يزيد حين معاده على قبضة من الرجال ، وتألبت على النسر المهيض الملوك والشعوب التى سادها ، وانقلبوا عليه بعد إذ كانوا فى ركابه . فإذا أوروبا التى كانت معه ، تقوم اليوم مع روسيا فى وجهه .

وتحين الفرصة لخلاص ويمار من الحكم الفرنسى . ولـكن الشاعر يشفق من ذلك . فهو معجب بنابليون وهذا به معجب . كما أنه يأنس انحدار نجمه فى نظر الألمان وانقطاع أسباب التعاطف معهم بعد مؤلفات صباه ، بمقدار ما كانت تسطع شهرته وتتألف القلوب حول أدبه خارج ألمانيا فى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا . وبالجملة كان من ناحية لا يطمئن إلى الانتقاض على نابليون « بطل الأقدار » كما يصفه ، حتى قال يوماً لدعاة الاستقلال : « إنما تقعقعون بسلاسلكم . فالرجل كبير عليكم ، وقصارى أمركم أن تزيد السلاسل حزاً فى لحومكم »

وكان من ناحية أخرى يسوؤه أن يرى إمارة «ويمار» تجلو

عنها سيادة باريس لتخلفها سيادة برلين . فهو يمقت البروسيين أشد المقت لانطباعهم بطابع الثكنة والروح العسكرية وغلوائهم فى الدعاوى الحربية .

وهذه هى بروسيا فى طليعة الخارجين ، تنضم فيالقها إلى الكراديس من القوزاق الروس . ثم تأتى انجدتهم كتائب النمسا إذ ينحاز إمبراطورها إلى أعداء صهره ، ويمهر بإمضائه عهد التحالف معهم . لقد اتسعت رقعة الوغى ، ونشبت معركة الأمم ، فهى جميعاً إلب واحد على نابليون .

وتبدلت الحال فى ويمار المدينة الزاهرة بالآداب والفنون ، فهى تعانى الاحتلال البروسى بما فيه من شدة وتزمت ، وما يستتبعه من تضييق وتسخير وإيواء للجند الجفاة الغلاظ حتى ليقرع أذن المستشار الشاعر على درج قصره وفى دهاليزه رنين نعالهم الضخمة الموحلة ، فضلا عن تقاطر الجرحى والمرضى وتفشى الأوبئة والحميات .

أيام كئيبة حقاً يطيش لها عقل الحليم إلا جوته ، فإنه يعتصم دائماً من ذاك بالهرب من الحاضر : « لم يبلغ بى الهرم أن أشغل بالى ، وأقلق خاطرى بتاريخ العالم فهو أسخف شىء . فليهلك هذا أو ذاك ، ولتندثر هذه الأمة أو تلك فكله سواء » .

وزاد اعتزال الشاعر لما حوله وأبعد بفكره أميالا بعد أميال ، وارتفع أطباقاً فوق أطباق ، وتخلص من قيود الزمان والمكان وانفتحت له من خلال ديوان حافظ الشيرازى أبواب الشرق مهد الإنسانية بما فيه من أوضاع للشعر والاجتماع والأخلاق والدين تختلف عما يعهده . فخلص جوته من هذه وتلك إلى صميم الحياة ، إلى الوحدة والبساطة . فكل شيء في كنهه بسيط وغاية في البساطة ، والأشياء كلها سواء ودائماً سواء ، وما التعدد والتعقد إلا أطوار وأحوال .

وكانت أشعار حافظ تكشف لجوته عن حياة تمت إلى حياته بأقرب وشائج القربى ، حياة عاشها هو أيضاً ، حياة نفس تطالع الوجود فى ذاته بمنتهى الحرية واللذة ، ولا تقطع ما بينها وبين الأرض ، وتواجه الجمود والتعصب بالتصوف الحى والإحساس بالشمول . لكأنما هى حياة «جوته» هذه التى يحكيها حافظ . الممالك تنهار ويقوم الغاصبون فى إثر الغاصبين . فلا تسمع منها غير الغناء بنجوى نفوسها وأشجانها الحلوة وأسرارها الخالدة . وكلاهما يقف وجهاً لوجه أمام قاهر طاغية : هذا أمام تيمورلنك ، وهذا أمام نابليون فلا تنخذل عبقرية الأدب فى وجه عبقرية الحرب . إن «جوته» لمأخوذ بهذه المشابهة يهتز لها من فرعه إلى

قدمه ، فهو يعلم ما لهذه اللحظة من خطر ، فإنما يتصل هذان العالمان باتصال نفسين كبيرتين من الجانبين . وهذا هو جوته يحس فى لقاء حافظ بالشرق والغرب يلتقيان فيه وتضمهما دفتا كتاب واحد يخرجه للناس : « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى ».



الهجرة العظمى

من جحيم الغرب إلى جنة الشرق

كانت أوربا فى تلك الحقبة المضطربة على هذه الحال المضطربة تتزلزل تحت أقدام الجيوش من سائر الأجناس ، ويصطبغ أديمها بدماء الألوف من القتلى والجرحى ، ويمزق فضاءها قصف المدافع ، ويطبق على آفاقها مثل نار الجحيم ودخانها .

من هذا الجحيم المضطرم فى الغرب أزمع الشاعر الهجرة . لقد ترك « ويمار » إلى الجنوب المشمس المشرق تارة فى «بوهيميا» وفى منطقة حوض الرين الجنوبى تارة أخرى . وزاد عكوفه على قراءة كتب الرحلات إلى الشرق ومطالعته للشعر الشرقى وخاصة شعر حافظ الشيرازى .

أما اليوم وقد غامت أوروبا واكفهرت سماؤها وادلهمت آفاقها بالسحب المتوعدة تقصف رواعدها وتتهاوى صواعقها ، فقد زاد إقباله بكل جوارحه وقوى نفسه وخياله على الشرق حتى أظله واشتمله ، وأحاط به واحتواه ، وصار له موطناً وبيئة .

إنه اليوم يحس من نفسه كأنه ابن الشرق من فرعه إلى أخمص قدمه ، رافلا فى الجبة الفضفاضة ،متوجاً بالعمامة،الفخمة ، متمشياً مشيته الحالمة فى فضاء ساحر مشرق ، بين النخيل ممشوقة الشطاط ، على ضفتى دجلة والفرات ، ينطق بالحكمة و ينشد الأشعار ، بل هو بعبارة أصح كأنه شيخه الفارسى حافظ الشيرازى بذاته وسمته وفى مقامه الأثير من جنات المصلى ونهر ركناباد ، غافل إلا عن نفسه ، مستغرق فى إحساسه وحسه، نشوان يترنم بمنظوم الغزل .

وهكذا طابت لشاعر الغرب هجرته الروحية العظمى إلى الشرق . وها هوذا يتغنى بنشيد « الهجرة » .

« الشمال والغرب والجنوب ؛ أقطارها تتناثر بددا ، وعروشها وممالكها تنهار .فهاجرْ وامض إلى الشرق الطهور تستروح الطيب من الآباء الأوائل الطيبين ، وبالحب والنشوة والغناء يردُّ عليك «الخِضْرُ» القائم على عين الحياة ريعان صباك .

« هناك فى ظل النقاء والصدق تطيب لى الرُّجعى إلى نشأة الانسانية الأولى،إلى الأزمان التى تلقى فيها بنو الإنسان كلمة الحق منزلة من الله بلسان أهل الأرض ، فلم يقدحوا فكراً ولم يكدوا ذهناً ـ إلى تلك الأزمان التى كانوا فيها يبجلون السلف وينهون عن عن كل دين غير دينهم .

« أريد التملى من عصور الفطرة بأفقها الممدود المحدود :
إيمان واسع وفكر قانع لهيامن الشأن ماللكلمة فانها كلمة منزلة .
« أريد معاشرة الرعاة فى المنتجعات ، والاسترواح فى ظلال الواحات والارتحال مع القوافل متجرا فى الشيلان والبن والمسك، طارقاً كل درب من البوادى إلى الحضر .
« وسيان أنجدتُ أو أتهمت ، فأن أغانيك ياحافظ تؤنسنى فى وعثاء السفر ، إذ يترنم المرشد بها على ظهر برذونه مأخوذاً طرباً وكأنما يوقظ بها النجوم الوسنى ويرهب قطاع الطريق .
« هناك فى الشرق فى ردهات حماماته وبين جدران حاناته أريد أن أذكرك يامولاى حافظ وقد رفعت حبيبتى خمارها وتضوع الطيب من غدائرها المهدلة المضمخة بالعنبر .
« وليعلم الذين ينفسون على الشاعر هذه النعمة والذين تطوّع لهم نفوسهم تنغيصها ، أن كلمات الشاعر لاتبرح حائمة حول جنة الخلد طارقة فى لطف أبوابها تطلب الخلود »
وإذن فقدا نصرف خيال «جوته» بكليته إلى دنيا الشرق الساحر كما تمثله من مطالعاته، وبخاصة فى شعر حافظ فهو منه فى جو تشيع فيه اللذة وتشب ألوان الحياة. إنه جو تلطف حواشى نهاره بأنداء النوافير الفوارة ، وتتردد فى لياليه المقمرة أصداء المعازف وتلاحين

القيان ، وفى المقاصير من قصوره تتخايل الجوارى فى برود الخز الفاخرة ومطارف الوشى الخسروانى ، ويخطف الأبصار سنا الجواهر وبريق الحلى ، وتفغم الحواس مجامر البخور وسطعات المسك وعبير الورد .

ولقد ملك هذا السحر على الشاعر لبه ، وحق له أن يملكه . ولكن المغلوب على أمره لاقدرة له ولاخير يرجى منه . وما من سبيل للشاعر إلى الغلبة إلا أن يملك هو السحر بدوره ، ويقوى عليه فيقيده بالعبارة ويخضعه للفظ .

وهاهو ذا شاعرنا يعالج الغلبة ،وقد واتته بعض منظومات فى شتى الأغراض مما استوحى وحيه من الأدب الفارسى.ولكنه كدأبه لاينشط للإنتاج الأدبى نشاطه العجيب إلا أن يساعفه الحب ويخف إلى نجدته . فإنه على كل طاقته وبأسه ، لايستطيع شيئاً بغير هذا السند. فليس هو بصاحب السلطان على ملكاته ،فقد ترين عليه فترات من الخمود يطول أمدها أحياناً حتى لتحسب أن الفنان فيها نضب معينه وصوّح ربيعه . ثم على حين غرة تدر أفاويقه وتزدهر أفانينه تحت تأثير حب جديد شديد . ولذلك تتوافى أبدا فوّارات عبقريته على موعد من مواقف غرامه وعهود محبته .

واليوم هو فى الشرق يتغنى الشباب فيه والشيوخ بأحاديث العشق

وتتردد على ألسنتهم أسماء أزواج من العشاق أصبحوا على صدق الهوى أعلاماً مرفوعة وأمثالا مضروبة تسير بذكرهم الركبان وتستفيض أخبارهم فى كل أفق وفى كل زمان : المجنون وليلى - جميل وبثينة - خسرو وشيرين - سليمان وملكة سبأ فاتنته السمراء - يوسف وزليخا .

فمن له هو الآخر بشطره المكمل وإلفه؟ أين تكون زليخاه؟ .



فى طلب النور والحب

في شهر يوليو من عام ١٨١٤ ارتحل جوته من « ويمار » شاخصا إلى الجنوب فى طلب الشمس والدفء والنور، يجددبها شبابه ويحلم فى أحضانها بالحب. وكانت وجهته « ويزبادن Wiesbaden » مدينة العيون الحارة الطبيعية ، وقد طالعه فى صبيحة يوم هجرته « قوس قزح » شاحب غارق فى غمرات الضباب ، فشام فيه المهاجر بشارة الرجاء والسعادة المقبلة ، فنظم فى تحيته المقطوعة الآتية :

« حين اقترن إله الشمس بالسحابة الريّانة ، تولد فى الحال قوس ملون بشتى الألوان . وإنى الساعة ناظر مثل هذا القوس مرتسما فى الضباب ، وهو فى رأى العين أبيض فضىّ اللون ، ولكنه مع هذا قوس الغمام يتمثل فيه قوس الغرام وسهامه .

كذلك أنت أيها الأشيب الصحيح البنية الشديد العنفوان .
لا عليك إن شاب مفرقك ، فإن العشق لا يزال من قسمتك »

وكان قد مضت عليه سنوات عدة لم يعاود فيها هذه الأكناف من « فرانكفورت » مسقط رأسه ومدرج صباه . فطالعته ـ بعد مروج ويمار الهزيلة ـ ضفاف نهرى « الرين » و « المين » شائقة رائعة تنعكس

على عبابهما عرائش الكرم ومناظر القرى وأبراج الأجراس :

« ما هذا الذي يتراءى هنالك مبرقشاً منمنماً وكأنما يصل الربى بالسماء ؟إن هبوة البكور ترين على الأفق وتغشى على نظرى . أتراها خيام الوزير أقامها لجواريه الحبيبات ؟ أم هى الطنافس الخسروانية الممدودة احتفالا بمهرجان عرسه ؟ ليس فى العيان أجمل منها ياحافظ ، أترى بلدتك شيراز أقبلت بكل ما وصفتَ من ورودها إلى سهول بلادنا القاتمة المدجنة ؟ بل هى أزاهيرنا تبدى جميعا كأنما تتحدى إله الحرب .

« لا برح العقلاء يغرسون الرياحين لخير الخلق ، ولا برحت الرياحين فى شعاع الشمس متألقة تألقها اليوم فى طريقى »

وكانت الكنائس فى طريقه مدوّية بأصداء الرنين متجاوبة بصلوات الحمد احتفالا بأعياد تحرير ألمانيا ،وقد حفلت المحاريب بجموع الأهلين المتوافدين من كل صوب فى أثواب الأعياد القشيبة

وفى جو الجنوب حيث الرياح الدفئة السافية محملة بالتراب ، ذكر «جوته» شيخه حافظ وحن إلى الحب الأرضى :

« التراب عنصر من العناصر أنت بارع التصرف فيه ياحافظ كلما نظمت النسيب فى معشوقتك . فالتراب على أعتاب دارها أحب إليك من الطنافس المنقوشة بوشى الذهب يتربع عليها ندمان

الشاه أبى اسحق محمود . وإذا الريح السافية حملت من لدى بابها حفنة من تراب فإنها لأطيب عرفاً عندك من المسك وعطر الورد .

« ياللتراب ! لقد طال حرمانى منه فى ربوع الشمال الملتحفة أبد الدهر بالضباب. أما هنا فى الجنوب الدفىء فانى ملاقيه موفوراً. غير أن أبواب الحب لما تزل موصدة دونى ، قابعة فى مدارها لا صرير لها .

« إلا أيتها الرياح السوافى . أغيثينى بغيثك ، دعينى أسوف رائحة الأرض الندية . ولا بأس بالرعود كلها ترعد ، وبالسماء تتجاوب أقطارها بالبرق ، فإن الغيث المنهمر لهابط بهذا الغبار المثار على وجه الأرض طينة مخضلّة ، وسرعان ماتنبعث الحياة ويشع روح من التخمر خفيّة السر مباركة الأثر . فإذا كل شىء فى كل ناحية ينتعش ويترعرع ،وإذا كل شىء يخضر وينضر» .

واشتد بالشاعر هذا الشوق إلى التجدد . لقد كان من قبل فى طوره اليونانى يرى الصورة المفرغة والكيان المجبول أبلغ مافى الوجود . أما اليوم فانه يرى التحيز فى مكان بعينه معناه الجمود فلابد للحى من الممات لتتجدد له الحياة ، ولكى ينبعث أصفى جوهراً وأغنى عنصرا . وما الحياة إلا تطور من حال إلى حال ، سواء فى ذلك حياة الحشرة فى الثرى أو الأجرام فى أجواز الفضاء .

ولقد قرأ فى ديوان حافظ أبياتاً من غزله يتغنى فيها بشوق الفراشة إلى اللهب وراحتها فى الاحتراق به . فخرج منهـا بمعنى غير شوق المتصوفة إلى الفناء ، لأن صاحبنا حاضر الحس لايشبع من البقاء على ظهر هذه الغبراء . وهو القائل فى رسالة له إلى صديق : « يقينى أنى كنت حيا مثلما ترانى اليوم ألف مرة قبل هذه المرة ، ولعلى عائد إلى الحيـاة ألف مرة أخرى بعد هذه المرة » فشوقه إنما هو إلى التجدد الحافل المستمر . وهذا مايجيش الساعة بنفسه ، أليس هو اليوم غيره بالأمس ؟ ألم يمت جوته اليونانى طاويا حقبة حياة تنيف على خمس وعشرين سنة كانت وقفا على عبادة المثـــال الأغريقى . وهل يشوقه اليوم إلا أن يحترق كالفراشة فى لهب عشق جديد ليتم له فى سمته الشرقى انبعاث جديد ؟ إنه ليشرح هذا « الحنين السعيد » فى مقطوعة من أورع الشعر » :

« لا تتحدث بهذا لغير عاقل حكيم ؛ فإن عامة النـاس على السخر والاستهزاء مطبوعون !

ما أسعد الحى يطلب المنية فى اللهب !

« فى ليالى الحب الندية التى أنت فيها تتلق الحياة وتبذل الحياة تستحوذ عليك عاطفة غريبة ، إذ يسطع سنا السراج الساجى

فلا تطيق بعدها البقاء فى الظلمة ويستدرجك شوق جديد إلى قران أسمى وأعلى . ولا يقعدك المدى ، بل تخف مبادراً مفتوناً فإذا أنت يا عاشق النور ، يا صنو الفراشة ، ذائب محترق .

« مت وتحوّل خلقاً جديداً . فانك ـ ما جهلت هذا ـ باق على ظهر الأرض المظلمة ذلك الضيف الكئيب الحزين »

ولقد قدر لشاعرنا أن يستعيد شبابه ويتحول إلى خلق جديد حين لقى « زليخاه » فى الرابع من أغسطس عام ١٨١٤ فى صحبة رجل المال « فون فيلمر Gohann Gakob von Villemer » وكان قد سمع بوجود الشاعر الكهل للمرة الأولى بعد عشرين عاماً فى وادى الرين يلتمس الاستجمام والراحة فى مدينة المياه «ويزبادن» ، فذهب مع الفتاة إلى لقياه ، فراقته الفتاة . فلما رد الزيارة أخذ قلبه يعلق بها ويزداد مع الأيام ميلا لها ، لما كانت عليه من التذوق للشعر وعلى الأخص شعره ، فضلا عن حذقها للموسيقى والغناء . وهذه الفتاة هى « الآنسة مريان يونج Marianne Yung » التى أصبحت فيما بعد « السيدة مريان ڤون فيلمر » .

ولقد بلغ حب الشاعر أوجَه عام ١٨١٥ فنظم فيها مجموعة من المقطوعات . وهذه المقطوعات تمتاز على أمثالها من شعر الديوان بما يعتلج فيها من عاطفة شخصية اضطرمت نارها بقلب

الشاعر لجعلتها أشد تأججاً وتوهجاً ، كما اضطرمت مثل هذه النار بقلب « مريان » فجعلت من هذه القارئة الجميلة شاعرة أجابت على بعض مقطوعات الشاعر الكبير بمقطوعات مثلها فى طبقتها وفى قوتها وبلاغتها . وقد اختار الشاعر لمعشوقته الاسم الشرقى المشهور « زليخا » ، ولكنه أبى أن يتسمى « يوسف » ابتعاداً عن دعوى الشباب والحسن ، وآثر أن يتخذ اسم « حاتم » مثال السماحة والجود عند العرب ، إشارة إلى أن الشاعر قد وهب قلبه للحب . وقد أفرد « جوته » لهذه المقطوعات جميعها جزءاً أضافه إلى الديوان باسم «كتاب زليخا » ، وجعل موضعه بين الأجزاء الأخرى موضع القلب من الديوان .



الديوان الشرقي
للمؤلف الغربي

جعل « جوته » إهداء ديوانه الذي أسماه «الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » تحيةشعرية كتبها بالألمانية لتكون على دفة الكتاب اليسرى ، ومترجمة للغة العربية على الصورة التى وضعها المستشرق « سلفستر دى ساسى » لتكون على دفة الكتاب اليمنى ، وهذا نص التحية باللغة العربية .

يا أيها الكتاب

سر إلى سيدنا الأعز

فسلم عليه بهذه الورقة

التى هى أول الكتاب وآخره :

يعنى أوله فى الشرق

وآخره فى الغرب

والمطلع على الديوان الشرقى الغربى يستطيع أن يصور لنفسه شيخوخة ناظمه « جوته» أصدق التصوير ، وهو يتطلع إلى الشمس دالفة نحو الغروب فى أروع مجاليها ، تنشر على الأفق الغربى فى دلوفها ضياء شعشعانياً ليس لجلاله مثيل ، وكأنه منها بمقام كلمة الوداع الأخير قبل أن تغيب غيابها فى جوف الدياجير .

وإذا كانت فى هذه الساعة تشتبك الظلال وتستوى ، وتصطبغ الأشياء جميعها بصباغ مشترك ويعمرها وهج شامل ، فلا غرو أن نظم فيها مؤلفنا الغربى ديوانه الشرقى .

ولقد عالج «جوته» أساليب النظم فى غزل حافظ الشيرازى . ولكنه لم يلتزم قيودها فى الوزن والقافية إلتزاماً إلا فى القليل فإنه لا يريدها قناعاً خلاباً خاوياً ولا يرتضى من أجل العرض التضحية بالجوهر .

وشأن الشيوخ من الفحول أحيانا قلة الاحتفال بالنسق وعدم الصبر على التقيد بالقالب . وما حاجة «جوته» إلى القالب الظاهر ، وقد أصبحت شخصيته الكبيرة الفنية لأشعاره وكتاباته حسبها من طابع مبين وقالب صميم . ثم أنه وإن قصّر عن الشاعرين « روكرت Ruckert » و «فون بلاتن Von Platen» فى احتذائها لقوافى حافظ وفنونه فى القريض كما تشهد منظوماتهما فى ديوان « الغزل » و « ورود الشرق » ، فأنه لأصدق وأعمق منهما تعبيراً عن حياة الشرق نفسها ، حياته المديدة غير المحدودة . ولقد تناولها شاعرنا منطلقة جارية كماء الفرات فاستحالت فى كفه الصناع صورة مفرغة من البلور تشع بألوان الموشور .

ويصطنع جوته فى معظم ديوانه أوزاناً أشبه بالأراجيز

يصب فيها عباب حياته العريضة الزاخرة فإذا الديوان معتلج بالحركة الطليقة متجاوب بأصوات الخليقة . وإذا نواحيه عامرة بالإشارات تغلب فيها ـ على عادة الشرق ـ لغة الاستعارات ، وإذا الشوارد الغريبة والتواليد الجريئة والتضمين والإطناب ، وإذا الكلام المرسل فى جوار اللحن المنغم،والسلاسة المأنوسة بين قيود الوصف المحكم . فلقد تم لشاعرنا فى هذا العمر اجتياب عالم الصور بأسره، واستيعاب معانيها كافة.وراق ماكان فى قرارة وعيه كدراً ، وخلص ماكان فى نفسه مكبوتاً. فله اليوم أن يغيب ويظهر فيما شاء من الصور ، دونأن يخشى الضياع على نفسه . وفى قدرته اليوم التعبير عن شيخوخته بحمية الشباب وأساليبه وعياراته . وإنه ليرى فى رمز الأفعوان الملتف مثالاً للسعادة على مدى الأيام : « أيتمنى المرء خيراً من أن يتهيأ له عقد أوله بآخره ؟ »

وميزة جوته فى مشرقياته أنها ليست مجرد تهلل وفورة عاطفيةواستسلام إلى لون متقد من الصوفية لا عهد للغربيين به ؛ بل إن شاعرنا ليجمع إلى الاستمتاع الخيالى صحة الملاحظة وصدق النظرة ، ويقرن إلى التأثر النفسانى سلامة التأمل الموضوعى . ويصدر عن إحاطة بالمادة التاريخية وعلم بمآتى الأمور ومجرى

الأحوال وسير التطور وحسن تقدير لاعتبارات الزمان والمكان .

ولقد توفر جوته بعد أن استقر فى «ويمار» مرة أخرى على مراجعة هذه الأشعار وكانت مرتبة على حروف الهجاء فقسمها على حسب الموضوعات إلى اثنى عشر سفراً ، وهذه هى بأسمائها الشرقية على الترتيب :

كتاب المغنى . كتاب حافظ . كتاب العشق . كتاب التفكير . كتاب السخط . كتاب الحكمة . كتاب تيمور . كتاب زليخا . كتاب الساقى . كتاب المثل . كتاب الفرس . كتاب الخلد .

ويزعم جوته أنه يطبع هذا الديوان على اعتباره نسخة خاصة لاطلاع الأخوان، لا بوصفه كتابا كاملا من جميع الوجوه . وليس فى ذلك على كل حال مايدعو للعجب ، فإننا لو أمعنا الفكر لألفينا أن كل كتاب إنما يكتبه مؤلفه من أجل مريديه وأنصاره والمعجبين به . ويعتذر «جوته» عن تعجله فى طبع الديوان إلى تقدم سنه . فلو أنه كان أقرب إلى الشبيبة لاستبقاه فى قمطره أمداً طويلا كعادته قيد التعديل والتنقيح ، كما أنه يؤثر أن يتولى فى حياته إخراجه بنفسه على أن يترك جمعه لمن بعده كما فعل حافظ ، لأن نشر مطويه ومثوله مطبوعاً نصب عينيه

أحفز له على تقليب المظر فيه كل حين لتوفيته حقه من الكمال .

ونحن فيما يلي نعرض لبعض أسفار الديوان بالتعريف والاختيار بقدر ما يسمح به المقام .

كتاب المغنّى

يتغنى الشاعر فى هذا الكتاب بمظاهر الحياة الشرقية كما وقعت فى نفسه ولقد كان يود أن يضيف إليه أشعاراً فى المديح عرفاناً لفضل أوليائه وتحية لأخصائه ؛ ليكون فى ذلك رضى للأحياء منهم وإعلاء لذكر الراحلين . وهو يلاحظ على شعر المديح فى الشرق أنه مما لا يستطاب فى الغرب لذهابه مذهب الغلواء وكيله الجزاف للثناء . والقصيد الحر الصادق الشعور هو القمين وحده بأن يجلو مناقب الممدوحين من العظماء الذين تخلدهم آثارهم ويزداد على الزمن إكبارهم ولا ينقضى ديننا لهم . ويقول «جوته» إنه أدى بعض هذا الدين على النسق الذى اختاره من مديح سبق نشره على الناس ونحن نجتزئ من سفر المغنى ـ وهو السفر الأول من الديوان ـ بالمقطوعة الآتية :

« إذا ما عزف إله العشق اللعوب عن يسارى بمزماره الشجى الطروب على حافة جدول سلسال ، وعن يمينى نفخ إله الحرب

فى بوقه الصاخب الرنان فى حومة الميدان ، فإن السمع لا شك منصرف عنه إلى الناحية الآخرى .

ولكن الصخب يحرم السمع بهجة الطرب . فإذا استمر النغم الرخيم مرفوع العقيرة مسموع الرنين وسط الوغى القاصف الصاخب فإنى لأسخط عندها وأنقم ،وإن عقلى ليشت عندها ويشرد . فهل على فى ذلك من جناح ؟ وإذا تزايد تطريب الناى وضجيج البوق معاً فنسيت نفسى وخرجت من الحنق عن طورى . ففيم عجب العاجبين ؟ ،

كتاب حافظ

لا يحب «جوته» إطالة الكلام فى أشعار حافظ لأنه يرى الخير كل الخير لك فى أن تحسها وتجربها فى نفسك وتسترسل معها دفعةً واحدة . فهى فيض من الحياة زلال سلسال لا ينضب معينه . وحافظ حكيم طروب يأخذ فى أثناء الطريق نصيبه من الحياة الدنيا ، ويلقى نظرة من بعيد على الأسرار الربانية العليا . وإذا كان يزهد فى الملذات الغليظة الحسية فإنه كذلك ليغفل عن الفرائض الدينية . ثم إن شعره مع ما يبدو فيه من ترغيب وهداية دائم الاختلاج بحركة شكوكية .

وقد استهل «جوته» كتاب حافظ بهذا الشعار «هلم نسمّ اللفظة

العروس . ونسم المعنى العريس . لقد شهد هذا الزفاف من قرأ لحافظ شعره » .

وهذى بعض مختارات من الكتاب :

لقب حافظ :

الشاعر « جوته » — قل يا محمد شمس الدين . ما بال قومك الأكرمين يدعونك حافظاً ؟

حافظ : أحييك تحية التعظيم . وجواباً على سؤالك أقول : إن ذلك لحفظى القرآن الكريم عن ظهر قلب . واستيعابى ذخره المصون عن التبديل والتحريف فى خزائن صدرى . ولقد حمانى كل مكروه ، كما حمى جميع الذين يعلمون علم اليقين ما أنزل على النبى من القول المبين . ذلك هو السر فى تسميتى حافظاً .

الشاعر : أما والأمر ماتقول ياحافظ ، فأرانى حريا بمشاركتك فى لقبك . والمرء إذ يفكر تفكير غيره يصبح لا محالة مثله ، فأنا شبيهك حق الشبه . إننى قد طبعت فى ذهنى كتبنا المقدسة بنصها وحرفها كما انطبعت أسارير السيد المسيح على صفحة المنديل الذى مسحت إحدى الصالحات به وجهه فى طريق جلجله . وإننى على الرغم مما يداخلنى

أحيانا من التشكك والمعارضة والتجريد لواجدٌ فى طلعة الإيمان الساجية أنساً وراحة .

نهاية ولا بداية :

« أنت لا تؤذن بانتهاء ، وهذه عظمتك . ولا عهد لك بابتداء ، وهذه قسمتك . وإنما شعرك يدور على نفسه كالفلك الدوار ، سيان البداية والنهاية ، والذى يرد فى الوسط وارد بأجلى بيان فيما هو لاحق وفيما هو سابق . إنك المعين الشعرى للملذات ، وعنك تصدر فيضا فى إثر فيض لا ينتهى مداه : فم لا يبرح نزوعاً للتقبيل ، ونشيدٌ صادح بالحب منسجم كالسلسبيل ، وحنجرةٌ ملتاحة على الدوام عطشاً إلى الشراب ، وقلب طيب العنصر متفتح للبث والنجوى . عفاءً على الدنيا غيرك . فأنت يا حافظ وحدك دون العالمين من أشتهى معارضته . ولكم من المسرات والتباريح نحن فيها شريكان ، بل أخوان توأمان . ألا فليكن الحب والشراب لى مثلما كانا لك ، مطمح الهمة ومطلب الحياة . ويا أناشيدى ! رجِّعى أنغامك متقدة بحر ضرامك . فإنك اليوم لأعرق قِدَماً ، وأقشب جدَّة » .

محاكاة :

« إنى لأرجو أن أوفق إلى أسلوب نظمك . وما أحرى ترجيع القافية أن يطربنى مثلما أطربك . وليس لقافية أن تتكرر بعينها إلا إذا أفادت معنى مغايرا كما صنعت فأجدت ، أيها الشاعر الذى أوتى ما لم يؤته أحد من الأوائل والأواخر .

« وما من شك فى أن القوافى تعجب وتطرب . ويلذ لصاحب القريحة التفنن فيها . ولكن الطبع يمجها أن كانت قناعا معروضا فحسب ، ليس وراءها جسد ولا روح . ولن تجد الفكرة لذاتها فتنة إلا إذا استحدثت قالبا جديداً واطرحت الخامد الجامد القديم »

كتاب العشق

يستحضر الشاعر فى هذا الكتاب عشاق الشرق من ظلمات الماضى ، وينوّه بتعظيم الخلق كافة للحب حتى ليذكرون على الدهر أسماء المحبين ، كما تذكر اسماء الخالدين .

« أجل ، الحب فضيلة عظمى . ولن تجد نعمة هى أنفس منه . إنه لا يهب الجاه ولا الثراء ، ولكنه يجعل صاحبه صنو الأبطال العظماء . وكما يتحدث الخلق عن النبي فإنهم كذلك ليتحدثون عن وامق وعذراء . بل هم لا يتحدثون عنهما ، وإنما حسبهم أن

يذكروهما إن إسمهما على كل لسان . أما وقائعهما ، وأما حقيقة أمرهما، فليس لأحد بها علم . لقد أحب أحدهما الآخر وهذا كل ما نعرف وفيه الكفاية » .

والكتاب يصف ما يتملاه العاشق من سعادة فى سويعات القرب ، وما يعانى بعدها من حرقة الفراق ومرارة الحرمان فى قصائد عديدة موسومة كلها بطابع الشرق وأخيلته :

كتاب مطالعة

سفر ما أعجبه بين الأسفار ، ذلك سفر العشق . لقد أمعنت فى مطالعته . بضع صفحات من اللذة وأبواب مستفيضة فى الألم . اختص الفراق بجزء كامل . واقتصر اللقاء على فصل وجيز ، على مقطوعة. وللأشجان مجلدات مذيلة بحواشى لاحصرلها ولا آخر.

أسير

هنا الطرف الأدعج والثغر الأحوى اللذان حظيت منهما باللحاظ والقبل : قوام سبط واعطاف بضة لينة كأنما جعلت للمتعة فى جنة النعيم.

أكانت هنا حقا ؟ وأين مضت ؟ أجل هى بعينها التى جادت بهذا كله . هى التى سمحت بالوصال وولت هاربة . لقد تيمتنى وتركتنى ما حييت أسيرها . .

سلام :

واهاً ! ما كان أسعدنى ! . . . كنت أتمشى خلال الحقول فإذا الهدهد يطفر فى طريق . وكانت بغيتى التفتيش هنا وهناك بين الأحجار عن ودعات متحجرات مما تخلف عن البحر القديم ، فاعترضنى الهدهد فى اختيال ناشراً تاجه متبختراً فى هيئة المدلّ الساخر ، وإنه لسخر الحى بالميت . فقلت له : « يا هدهد ! فى الحق إنك لطائر جميل . انطلق ياهدهد ! وبلغ حبيبتى أنى لها وملك يمينها ما حييت . وكذلك كنتَ من قبل رسول الحب بين سليمان وملكة سبأ »

فقال الهدهد : « إن التى أنت موفدى لها قد أودعتنى كامل سرها ، فى نظرة واحدة من ناعس طرفها . وأنا لا زلت كما كنت أغبطك دواماً على سعادتك . فأحببْ وأحببْ فإنه مكتوب لك فى الطالع دوام الحب الزاهر بقية أيامك مقترنا بالقوى الخالدة » .

وانتحى الهدهد إلى نخلة فاتخذ له عشاً بين شماريخها يرمى هنا وهناك باللحاظ . ما أبدعه ! إنه أبدا يرعانا .

كتاب الساقى

لا يمكن أن يخلو ديوان شرقى من ذكر المدام والساقى الغلام. ويقول «جوته» إنه بمقتضى أدب العصر يتناول هذا الغرض الأخير بمنتهى الطهر. ويقدم إلى ذلك بأن الميل المتبادل بين الشباب والكبر هو على أصح معانيه علاقة تهذيبية بين معلم ومتعلم. وتعلق الفتى بمن يكبره سنًّا ليس بالظاهرة النادرة ولكن النادر هو حسن الالتفات إلى الاستفادة منه وليس أدل على ذلك من مراقبة العلاقة بين الحفيد والجد، فنى هذه العلاقة تنمو ذهنية الأطفال حتى النماء، ولأن همهم يكون منصرفاً إلى الشيخ المحبوب يرعون وقاره ويطيعون كلمته ويعون ما استطاعوا وعيه من خبرته. ومالنا نقصر الكلام عن سن الطفولة وهذى سائر النفوس المطبوعة على الطهر تأنس من نفسها فى كل أطوارها حاجة إلى هذه العلاقة القائمة على التقدير والأجلال. ولئن كان الصبي يستغل أحياناً عطف الشيخ لإدراك رغائبه الصبيانية وإشباع بدواته البريئة إلا أن اصطناعه التلطف والمراضاة يحمل على التساهل والإغضاء. وليس الشيخ بأقل سعادة بهذه العلاقة، فإنه ليطربه ويتصباه أن يرى الفتى الغض

الطموح مأخوذا بالعجب والإعجاب برجاحة عقله وحكمة سنه في حين تنبثق شعاعة من هذا العقل في النفس الناشئة الذكية، وإلى القارئ بعض المقتطفات من كتاب الساقي :

فلنكن سكارى جميعاً . فالشباب سكر بلا خمر ، والشيوخ يستدركون الشباب بفضل الشراب . ولا غرو فالحياة المسكينة معذبة بالهم ، وليس يطرد الهم مثل الكرم .

الخمر محرّمة بلا ريب ، فإذا كان لابد من شربها فلا تشربها إلا صرفا ، فإنك إن عاقرتها ممذوقة كنت مضاعف الإثم .

أقول غير مبالغ في القول : من كان منكم غير قادر على الشرب فليس يصح له حب . كذلك أنتم أيها الندامى لستم أحسن حالاً ، فمن كان منكم غير قادر على الحب فليس يصح له شرب .

تعال أيها الغلام ، يا رمز الشباب ! . لماذا تلزم الباب ؟ كن من اليوم نديمي تكن الخمر كلها رحيقاً .

يالك من خبيث صغير ! أبق من الخمر على رشدي . وهذا هو المهم عندي ، لكي آنس بقربك أيها النديم الخبيث على الرغم من سكري .

اليوم في البكور قامت في الحانة جلبة يالها من جلبة ، صاحب الحان والقيان والمشاعل والزحام ، وكم من لجاج بينهم وخصام ،

والناى يعزف والطبل يقرع . عربدة ما أفظعها عربدة . فدخلت مع الناس فى هذه الغمرة من الحب والغبطة . إن الخلق لينعون علىّ الاستهتار وخلع العذار ، ولكننى مبتعد فى حزم وسلام عن مجادلة فقهاء المكاتب ووعاظ المنابر .

يدعونك الشاعر العظيم كلما طلعت فى الأسواق . وإنى لشديد الإصغاء حين تنشد ، وإنى لأشد إصغاء لك حين تصمت . ولكنى أحبك أعمق ما أحبك حين تقبلنى قبلة التذكار . فإن الكلام يذهب . أما القبلة فباقية فى صميم الفؤاد . ولئن كان لنظم القوافى قدرها الكبير ،فإن خيرا منها إطالة التفكير . فأنشدْ القوم فنوناً من النظم ، واصمت صمتك البليغ مع النديم .

كتاب الفرس

فى هذا الكتاب يذكر «جوته» دين المجوس ، ويرى أن عبادة الشمس والنار مهما تكن معنوية ، فإنها عند أهلها عملية جدّ عملية . ولا غرابة فى أن يتحمس «جوته» لتعاليم من يعبدون الله فى مظاهر قدرته ، فى الشمس والنار والهواء والماء وفى خصب الأرض وحياة النبات . فإن هذا التأليه للطبيعة يتفق وإحساسه العميق بها حتى لينطق به كل سطر من « وصية المجوسى الأخيرة »

يزجيها لأخوانه فى الدين وهو من الحياة فى ذروة القمة المغمورة بالنور الأزلى .

« إذا الشمس فوق أجنحة الفجر شعَّ نورها . واستعلى قرصها الوهاج فوق الذرى ، فمن ذا الذى لا يرفع إليها البصر خاشعاً ؟ لكم أحسست فى حياتى المديدة مراراً لا تحصى لدى شروقها ، أننى عارج إليها لكى أشهد الرحمن على عرشه ، وأسبّح باسمه ، سبحانه مصدر الوجود ورب العالمين ، ولكى أسلك الصراط المستقيم صراط الذين هم أهل لهذا المشهد العظيم ، ولكى أهتدى أبد الدهر بنوره العميم . وبعد ، فهذى وصيتى المباركة أودعها صدور إخوانى وأوكلها إلى صدق عزائمهم :

« عليكم القيام بفرائض الحياة الشاقة كل يوم . وما بكم حاجة بعدها إلى الجدال فيما ليس لكم به علم » .

ويلى هذا تفصيل الفرائض ، وكلها ناطق بعبادة جوته للحياة وتقديسه الجهاد فيها .

كتاب تيمور

يرى «جوته» أن كتاباً كهذا كان من حقه أن توضع دعائمه بعد عامين كاملين من العكوف والتوفر على موضوعه حتى يتأتى للشاعر مواجهة هذى الخطوب الجسام بما يتفق وروعتها وترامى

آفاقها . كما يحمل به تخفيفاً لفجعاتها من حين إلى حين أن يظهر الأستاذ النديم نصر الدين جحا إلى جانب مولاه الطاغية المخرب وما أكثر ما يروى الرواة من نوادره معه ، ويخص جوته بالذكر هذه النادرة : « كان تيمور ـ كما هو معلوم مأثور ـ دميم الخلقة أعور أعرج ، واتفق فى ذات يوم والأستاذ نصر الدين بين يديه ، أن أمر تيمور بالحلاق ولما أتم الحلاق حلق رأسه عرض له بالمرآة كالعادة . فلما رأى تيمور فى المرآة قبحه أجهش بالبكاء وإلى جانبه بكى الأستاذ . وظل الإثنان يبكيان نحو ساعتين . وأقبل بعض الخلان فجعلوا يواسون تيمور ، ويسرون عنه بالحكايات حتى نسى . وكفّ تيمور عن بكائه ، ولكن الأستاذ لم يكف بل زادت عبراته انهماراً . فقال له تيمور : « وبعد ، إننى نظرت فى المرآة فرأيت فرط قبحى فحزنت وأنا صاحب الحول والطول وخزائن المال والجوارى الحسان أن أكون بهذا القبح . وأنت ، ماذا يجعلك تبكى وتمضى فى البكاء ؟ » .

فأجاب الأستاذ : « إنك صادفت وجهك فى المرآة مرة فلم تطق رؤيته وطفقت تبكى . فكيف بى أنا المقضىّ علىّ برؤية وجهك صباح مساء ! فإذا لم أبك فلمن البكاء ؟ »

فضحك تيمور لقوله حتى استلقى على ظهره .

ومع أن الشاعر لم ينفسح له الأجل لتحقيق ما رسمه لنفسه، ووقف عند المقطوعتين اللتين نظمهما ولم يشتمل كتاب تيمور على غيرهما إلاّ أنهما فى الحق حسبه جلالا وروعه :

الشتاء وتيمور

هذا الشتاء أنزل بهم البلاء . لقد تنفس بينهم أنفاسه الباردة فثارت صرصراً عاتية ، وبعدها سلط عليهم زعازع زمهريره وغواشى صقيعه. ثم انحدر حتى مجلس تيمور وأهاب به مرعداً متوعداً . « على رسلك واتئد أيها الشقى ! أيها الطاغية الغشوم ! أو لم يكف القلوب ما اصطلت من عذابك واكتوت به من نارك ؟ فان تك مارداً من الشياطين فأنا المارد الآخر . وإنك شيخ تمرّس بالسنين وتمرست به ، وإنى لكذلك . وأنت المريخ وأنا زحل . وكلا الكوكبين شؤم ، وفى اقترانهما إيذان بالويل والثبور وعظائم الأمور . وأنت تهلك الأنفس وتخمد جذوتها ، ولكن رياحى أقتل برداً مما تستطيع . ولئن كانت عصاباتك الهمج قد سامت المؤمنين سوء النكال ، فقد كان ما كان ! وسترى إذا آن الأوان يأذن الله شرّاً مما جرى . ووالله إنك لست لى بكفء ، وهو على ما أقول شهيد . أجل ، والله سوف لا تغنى عنك حرارة الوطيس المسجور وشواظ كانون شيئاً ، ولن يعصمك عاصم من برد الموت » .

لـكى يتحبب إليك المحب بالعطر العبق ويزيد فى انشراحك وبهجتك ، يهلك العطار على النار العدد العديد من أكمام الورد . أجل ، إنه لـكى يستقطر ملء قارورة صغيرة تهدى إليك ، قارورة مخروطة مستدقة كسبط أناملك . لابد له من عالـَم منها ،عالم من القوى الحية التى تتفتق عنها الورود مؤذنة بهيام البلبل بها وترجيعه شجى أغانيه فى حبها .

فهل ترانا نذكر هذه الآلام ، والعطر يفغم حسّنا ويزيد فى متاعنا !

لكم هلكت أنفسٌ لا عداد لها فى سبيل عظمة تيمورا » .

كتاب زليخا

حاتم : « يا للغدائر الخلابة التى تيمتنى ! لقد أوقعتنى شباكك فى أسر هذه الطلعة الأسيلة الجلواء ، وليس عندى أيتها الأفاعى السود المحببة ما يضارعك . ليس لى إلا قلبى ، وهو كعهده يتملأ ويتفتح كالزهرة اليانعة . إنه تحت الثلج الأشهب ، والدجن المخيم ، بركان مسجور يجيش بحبك . لقد علت وجهى منك حمرة كما اصطبغت من الفجر مراقى الجبال الوعرة . وآنس « حاتم » مرة أخرى فى نفسه نفحة الربيع ووقدة الصيف »

زليخا : « والله لا أرضى لك التلف ، فان الحب يذكى الحب
ويؤكده . فابق بصبابتك زينة لصباى . وما أشدنى
زهواً بمحبتك كلما سمعت إطراء الناس لعبقريتك .
فإنما الحب الحياة ، وعبقرية الذهن حياة الحياة »

كتاب السخط

ليس فى طاقة الإنسان أن يكبت فورات غضبه ويكظم نوازى نقمته. بل من الخير أن يحتال على تنفيسها ولاسيما إن كان حَـرَجُ صدره بحيث يكدر صفاء الخاطر ويعتاق الخيال عن تحليقه . وأمرّ ما يعانيه الشعراء سوء التقدير ، فتراهم يقابلونه بالمغالاة بأقدارهم ، والمفاخرة بمزاياهم . وليسُ يخاف أن الناس إذا ذكروا العظماء فأول ما يحبون امتداحه فيهم التواضع ، ثم لا يفيضون فيما عداه من المناقب والملكات . والتواضع أبداً حليف المصانعة وضرب من التمليق مقصود به إلى إنامة الحسد أو الشعور بالغضاضة بين فاضل ومفضول ، فهو فى الظاهر تسوية، وفى الباطن ترضية ، وكأنه اعتذار النابغ عن نبوغه . وما حسن المعاشرة بين الناس إلا إنكار كل كبير لنفسه ، وفى هـذا حكم على المجتمع بالبطلان ، اللهم إلا إذا تأتت للكبير القدرة على أن يترضى

اعتزاز الغير بأنفسهم ليرتضوا منه اعتزازه بنفسه . ولقد كان شعراء الشرق يبسطون اللسان فى ممدوحيهم بالهجاء كلما أخلفوا منهم الظن وخيبوا الرجاء ، أما شاعرنا فكان ذا حظوة عند الأمراء . وأما شكواه من سوء التقدير فمن الشعب وعليه يصب جام نقمته وسخطه .

البغض بالجملة

« إنى لأحب البغض ولا غنى للفؤاد عن حبه ، وليس بى بغض شخص بعينه . فإذا كان لا بد لى من البغضاء فها أنذا على الأهبة ، أبغض أصنافاً من الناس بالجملة » .

اعتبارات سخيفة

« يعاب على المرء مدحه لنفسه . ولكن ، أليس فاعل الخير بالمادح نفسه بالخير الذى هو فاعله ! ثم أليس الخير ـ لولا التعمية فى الكلام ـ هو الخير على كل حال وبالرغم من كل مقال !

أيها الحمق ، ما دمتم تلتذون جنونكم ، فدعوا الحكيم الواثق بحكمه يلتذ الاستخفاف بتافه محامدكم وسخيف اعتباركم » .

ماذا فى الكبر

ما بالكم أيها المشايخ الدجاجلة ، تذمون نفخة الكبر العاتية ؟

لو شاء الله لى أن أكون دودة لكان خلقنى دودة » .

كبد الوضيع للرفيع

« كيف ألومهم ، وهذا لسان حالهم يقول : ليس فى الإمكان أن نرفع رفيعاً دون ان نضع من أنفسنا . هل كنا نحيا لو تركنا غيرنا يحيا ؟ »

شاعر الكنود

« ما من سعيد هانئ إلا بادره الجار بالتنغيص ؛ كذلك لم يعش ذو الفضل حياته العاملة إلا كان هم الناس فى رجمه ، فإذا ما قضى نحبه جمعوا على الفور الهبات الوفيرة ليقيموا لتكريم هذا المكنود بهم تمثالا . ولو عقلوا وجه مصلحتهم لكان الأولى لهم أن يكتموا أمر المسكين ، ويدعوه فى طوايا النسيان أبد الآبدين » .

الدناءة

« فيم التشكى من الدناءة ، وإنها فى الدنيا لذات الحول والطول . هى صاحبة الأمر فى فعل الشر طلباً للمنفعة ، وهى المتصرفة فى إجراء العدل كما شاء الهوى . أفتريد أيها الحاج المتنطس خروجاً

على القضاء المحتوم ؟ ألا دع الأرض والإعصار ، فلابد فى الدنيا من الدوار وتذرية الغبار » .

التفكير والحكمة والمثل

ليست الحكمة وقفاً على الشيخوخة . ولكن الحكيم لا شك يزداد مع السن حكمة بما يجتمع له على تطاول الأيام من المشاهدات والتجاريب ينضمّ بعضها إلى البعض فيستوفى بها الجملة ، ويبلغ القمة . فإذا أضفنا إلى هذاماهو معلوم مشهور عن الألمان من أنه لا كاتب منهم إلا وهو بطبعه من طلاب الفلسفة ونقاد الأخلاق ، لخلص لنا التقدير الصحيح لحكمة جوته كبير أدبائهم وهو فى السبعين من عمره الحافل المديد . فهذه الحكمة التى تعرض لآفاق الفكر جميعها ، من فنون وعلوم وشعر وفقه وفلسفة، لا تنحصر فى حيز بعينه كالأزهار المجففة ، بل هى الشجرة الفينانة تمتد أغصانها ناضرة الريعان وتنفتح أزاهيرها متعددة الألوان، فى كل صفحة من صفحاته وفى كل سفر من أسفاره سواء أكان منظوما أو منثوراً ، مبحثاً علمياً أو نقداً فنياً ، قصصاً أو ترجمة لحياته أو مسرحية من عديد مسرحياته . وجوته مثال الحكيم : والذى يجعله أتم تمثيلا للحكمة هو أنه أوتى

مالا يؤتاه الحكيم عادة من مختلف المواهب وشتى الدوافع النفسية .

وتقوم حكمة «جوته» على أنه لا ينفك يضم إلى نفسه ما تشعب ، ويؤلف المتعارض من الميول والنزعات كما تلتقى أقطار الدائرة فى المركز . فليس هو من أهل المذهب المدرسى ولا المذهب الإبداعى ، وإنما هو فيما وراء هذا وذاك . وليس هو بالمسيحى ولا الوثنى ولا غير ذلك من العقائد المحددة ، لأنه فى المحل الأوسط بينها جميعاً ، ونعنى به الأقرب إلى المركز حيث لا تشعب ولا افتراق . فهو يستوفر ويستكثر على الدوام من كل شىء . وكأنما عنده سر يجعل القيم المتفاوتة ووجهات النظر المتضاربة تجتمع فى عيشة واحدة ، بل ينضاف بعضها إلى البعض فيحصل من تضافرها زيادة الكل . ولم يكن جوته فى موقف سالب يترك الأشياء تقبل عليه فحسب . بل كان فعّالا موجباً يسعى لها ويجذبها إليه من شتى الآفاق مهما كانت غريبة وسحيقة . والعجب العجاب أن نجد فيه مجموع هذه الأشتات الهائلة كتلة متماسكة . وثمة عظمة «جوته» الحكيم . وسيأنس القارئ هذا الجمع العجيب مجلوًّا فيما اخترناه له من هذه الكتب الثلاثة .

وهذه الكتب تصدر عن تجاريب شاعرنا وحكمته بعد بلوغه غاية السن ، وهى حافلة بالهداية والعبرة . ولا شك فى أن «جوته» أفاد

الكثير في هذا الباب من مطالعاته لترجمة كتاب « العظات »
لفريد الدين العطار وكتاب « قابوس » فضلا عن إلمامه بحكم لقمان
وبيدبا وغيرهما . ونحن نجتزئ بفقرة من كل سفر من أسفار
« جوته » الثلاث على سبيل المثال :

لذة الإحسان

ما أحلى نظرة الجارية ذات الدل وهى تغمز بطرفها ،
ونظرة النديم تلمح عينه بالرضى ساعة يحتسى كأسه ،
وما أحلى تسليم السيد الآمر يشملك بعطفه ، وأحلى شعاع
الشمس فى الخريف ينعشك بدفئه . فليكن أحلى من هذه جميعاً
فى نفسك تلك الرقة تمتد بها كف الفقير فى طلب الصدقة ، وتتلقى
منك بالحمد الجزيل ما تجود به .

ما أحلاها وقتئذ نظرة ! وما أحلاها تحية ! وما
أحلاها بلاغة فى السؤال . تأمل هذا فإذا أنت الكريم المحسن
على الدوام » .

أينا البخيل ؟

دعوتنى بالبخيل ، فهلا أعطيتنى ما يمكن أن أجود به !

المؤمن الصابر

تحدرت من السماء إلى لجة الخضم قطرة مرتجفة . فأنحت عليها الأمواج صفقاً وضرباً . ولكن الله جزاها عن صبر إيمانها خيراً . فوهب لقطرة المطر قوة واعتصاماً فاحتوتها الصدفة فى حرز حريز ، وأتم عليها العز والجزاء الأوفى فهى اليوم على التاج درة تتألق فى العلياء ساطعة اللمح سنية البهاء .

كتاب الخلد

جزاء المجاهدين الشهداء

ليندب الأعداء قتلاهم ؛ فإنهم من الهالكين . أما الشهداء من إخواننا ، فلا تندبوهم فانهم أحياء فى أعلى عليين .

لقد فتحت السموات السبع أبوابها لهم أجمعين . وهم أولاء يقرعون أبواب الجنة يدخلونها بسلام آمنين . وقد أخذ منهم العجب ، وغلبت عليهم نشوة الطرب ، إذ يجتلون من مجالى الجمال والجلال ومطالع السنا والبهاء ، ما اكتحلت به عين النبي فى ليلة الإسراء ، إذ أقله البراق إلى السماء ، وطاف به السبع الطباق فى لحظة خاطفة .

هناك ، فى تلك الجنة الوارفة ، تسمو — جنباً إلى جنب
كأشجار السرو الباسقة — أشجار المعرفة ، يعلو فروعها الفارعة
ثمر جنىّ من تفاحها الذهبى . وهناك أشجار الخلد فينانة كثيفة ،
تمد ظلالها على مفارش العشب المنمنمة الوشى ، وعلى منابت
الأزهار شتى الشيات مختلفة العطر .

وفى هذه الجنة ، جنة النعيم ، تقبل على أجنحة النسيم أسراب
الحور العين . فانعم أيها المجاهد الشهيد بالنظر إليهن . وبالنظر
وحده ترتوى غلتك ، وتشبع شهوتك . وإنهن ليقبلن عليك ،
ويسألنك عما أتيته من جلائل المساعى ، أو ماخضته من المعارك
الحامية الدامية المحفوفة بالمهالك . إن كونك بطلا أمر مفروغ
منه مقطوع به عندهن ، وإلا ما كنت هنا بينهن . ولكن
أى الأبطال تكون ؟ ذلك ما ينشدن عرفانه . وسرعان
ما يعرفنه من جرحك ، الذى نقش على صدرك أثراً هو حسبك
تذكار فخار ، ووسام مجد وقلادة جدارة . إن المال فان ، والجاه
زائل ، ولا يبقى إلا طعنة كهذه لقيها المؤمن فى سبيل الله .

وتذهب بك الحور العين إلى خمائل بالكروم معروشة ،
ويملن بك إلى قباب بالزرابى مفروشة ، تدعمها أساطين من حجارة
كريمة متلألئة متألقة ، ذات ألوان متقلبة ، يموج بعضها فى

بعض . إنهن يدعونك فى لطف وإيناس ، وقد رشفن رشفة بطرف الشفة من الكأس ، إلى شراب أهل النعيم من عصير كروم لا كالكروم ، ذلك هو الرحيق المختوم .

وأنت هنا مردود إلى عنفوان الشباب بجدّدالإهاب . وهن أبكار أتراب جميعهن،لا تفاضل فى روعة الحسن ونضرة اللون بينهن . فإن ضممت إحداهن إلى صدرك فقد ضممت سلطانة عظيمة ، هى لك فى مقصورتك نعم الخدينة . وحاشا أن تغتر بالحسن منهن حسناء ، فيداخلها الصلف والخيلاء ، وحاشا أن تطوى واحدة منهن صفحة البشر وتظهر الكمد لطارىء من الغيرة أو لاعج الحسد . بل كل تحدثك عن محاسن غيرها أصدق الحديث وأطيبه . ولا تصدك إن شئت عن مجالس الأخريات ، بل يتسابقن جميعاً على السواء للقيام على خدمتك ، وتهيئة ما فيه تمام مسرتك .

فأنت من الحور العين فى جمع عظيم زاخر ، ثم أنت مع ذلك فى صفو من العيش ناعم البال والخاطر . وإنه لمطلب معجز الدرك عزيز ، ومن حقه أن تطلب الجنة من أجله .

فأنعم بهذا الصفو الذى لا كفاء له ولا عوض منه ، بين أسراب من الحور العين لا يضجر معاشرها ، وأكواب من الرحيق المختوم لا يسكر معاقرها . نعم الصفو المقيم ، ونعمت جنة النعيم .

الخاتمة

لا أرى خاتمة لهذا الكتاب أبلغ من هذه المقطوعة التي يعبر فيها الشاعر عن أمله فى دخول الجنة جزاء جهاده . والقراء لا محالة يذكرون محاولته إظهار الخلق أجمعين على محاسن الشرق وما جاء به الإسلام من الحق . والمقطوعة تصور الشاعر على باب الجنة يحاور حورية من حورها ملتمساً الرخصة بدخولها :

الحورية : اليوم أنا الموكلة بباب النعيم ، ولا أدرى ما العمل
وأنت عندى ظنين ، أتراك حقاً من معشر المسلمين ؟ .
وهل استحققت دخول الجنة على جهادك ؟ هل أنت من
المجاهدين ؟ فاكشف إذن عن جراحك لتشهد بما قدمتَ
من المآثر إن كنت من الصادقين ، فإنى لأحب لك
الدخول .

الشاعر : « جوته » فيم هذه المراسم كلها . دعينى أدخل الجنة على
كل حال . لقد عشت رجلا أى أننى كنت من المجاهدين .
ألا حدى طرفك ، وأمعنى النظر فى فؤادى ، اشهدى

ما به من جراح الحياة النكراء ، اشهدى ما به من جراح الحب المستعذبة . ومع هذا فما برحت مؤمناً أتغنى بوفاء حبيبتى ، وبعودة الدنيا الدائرة وقضائها فى الآخرة حق المحسنين . لقد عملت مع صفوة العالمين ، وجاهدت مع خيرة المجاهدين ، وتألق اسمى بحروف مشبوبة الأنوار فى قلوب الصالحين الأبرار .



فهرس

صفحة



المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة
فاحرص على ما فاتك منها . . .

واطلبه من :

١ ــ دار القلم .... ١٨ شارع سوق التوفيقية

٢ ــ مكاتب شركة توزيع الأخبار... فى الإقليم المصرى

٣ ــ وكلاء الشركة القومية .... فى جميع البلاد العربية




Bibliotheca Alexandrina
01288836